شذرات

تأليف
د. محمد بن إبراهيم الحمد

دار الحضارة للنشر والتوزيع
الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

ⓒ دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحمد، محمد بن إبراهيم بن أحمد

شـــذرات./ محمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد- ط١-الرياض

١٤٤٢هـ

ص ؛ ٠٠×٠٠ سم

ردمك: ٧-١٠-٨٣١٣-٦٠٣-٩٧٨

١-المقالات العربية - السعودية أ- العنوان

ديوي ٨١٤.٩٥٣١ ١٤٤٢/٧٦٠

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٧٦٠

ردمك: ٧-١٠-٨٣١٣-٦٠٣-٩٧٨

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَة

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هـــاتف: ٢٤١٦١٣٩- ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٧٠٢٧١٩

فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣

الرقم المـوحـــد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد

فهذه صفحات سميتها شذرات، والشذراتُ واحدتُها الشَّذْرَة، وتطلق على إطلاقات عدة؛ فتطلق على شذرات الكتاب، وهي فقراته؛ فيقال: لم يقرأ إلا شذرات من الكتاب: أي فقرات منه.

وتطلق على قطع الذهب؛ حيث يقال لها: شذرات.

والشَّذْر ـ بوزن البَحْر ـ: صغار اللؤلؤ، وما يلقط من الذهب، وواحدتها: شذرة.

وشذَّر الأديب كلامه بالشعر: أي زيَّنه به، وتَشَذَّر القوم: تفرقوا، واختلفت مذاهبهم، وشذَّر الرجل بشريكه: أي صرَّح بعيوبه.

ويطلق التَّشَذُّر على الاستعداد، وأخذ الأهبة، وعلى التسرُّع للأمر، وعلى التهديد، وعلى التغضُّب.

ويطلق ـ كذلك ـ على تحريك اليدين عند الكلام حال الغضب، كما قال لبيد رضي الله عنه:

غُلْبٌ تشذَّرُ بالدخول كأنها جِنُّ البَدِيِّ رواسياً أقدامُها

أراد أن قومه غلاظ الأعناق كالأسود، وشبههم في ثباتهم في الخصام والجدال بالجن.

فهذه إطلاقات تلك المادة، وما تحمله من مفهوم.

والمقصود من هذه التسمية ـ ههنا ـ ما تدل عليه كلمة **شذرات** من الكلام المتفرق، المشتمل على فقرات، وقطعٍ من الكلام تتناول موضوعاتٍ شتى، وتحتوي على فِكَرٍ متنوعة، وتلفت الأنظار إلى جوانب مختلفة تارة بالتصريح، وتارة بالتلويح.

وهذا الطراز من التأليف يَتَّسم بتنوعِ المادة، واختلافِها طولاً وقصراً، وتَخَفُّفِها من العزو، والتخريج، وانطلاقِها من آية، أو حديث، أو بيت شعر، أو موقف من المواقف، أو سيرة لأحدٍ من الناس، أو نحو ذلك.

وقد كَتَبْتُها في فتراتٍ متباينةٍ، ومناسباتٍ مختلفة، ورغبتُ في أن تكون مجتمعةً في هذا الكتاب.

وقد سُبِقَ هذا الكتاب بخمسة كتب تدخل في قبيله، وتسير في ركابه، وهي: خواطر، وارتسامات، وومضات، وبصائر، ونظرات.

فإلى موضوعات الكتاب، والله المستعان، وعليه التكلان، وصلى الله على نبينا محمد.

د. محمد بن إبراهيم الحمد

الزلفي: ١١٩٣٢ ـ ص.ب: ٤٦٠

١٤٤١/١٢/٢٧هـ

جامعة القصيم ـكلية الشريعة والدراسات الإسلاميةـ

قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

WWW.M-ALHAMAD.COM

M@M-ALHAMAD.COM

@M__ALHAMAD

نظرات في آيات

١ ـ ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ : ما أحرص الشيطان على إيقاعنا في الهم والحزن، وما أحرانا أن نراغمه ببث السرور، وإسعاد أنفسنا ومن حولنا قدر المستطاع.

٢ ـ ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ : الصبر على أهل الفضل والعلم، والتغاضي عن بعض جفائهم أو مخالفتهم ـ أدبٌ رباني، وخلقٌ رفيعٌ يُفْضِي إلى حسن المعاشرة، ودوام الألفة.

٣ ـ ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ : السلامة من تسلط الأعداء والسفهاء نعمة كبرى لا تخطر ببال كثيرين.

٤ ـ ﴿ بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ : هذا منطق سبأ لما بطروا النعمة، ولم يحوطوها بالشكر. وهو صنيع بعض البشر؛ فتكون النتيجة تبدل الحال، وسلب النعم، وتفرق الشمل.

٥ ـ ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ : ليست جميع القضايا تحسم في هذه الدنيا؛ هنالك جولة أبقى، وأخلد، لا يُغادَر فيها صغيرة ولا كبيرة.

٦ ـ ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ ﴾، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ : العز في الطاعة، والذل في المعصية.

٧ـ ﴿ ٱلْـَٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ : لا يمكن أن يوجد إصلاح حقيقي إلا بالعدل، ولا عدل إلا بالتعامل مع الحقائق، ونبذ الأوهام، والشائعاتِ، والتّهمِ الباطلة.

٨ـ ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ ، ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ : التذكير بالسلف القدوة يشحذ الهمة، ويرهف العزيمة، ويخفف المشقة.

٩ـ ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ من أعظم مقاصد الشيطان بث الخوف بشتى أنواعه في قلوب المؤمنين، وعلاج ذلك بتجريد الخوف لله وحده.

١٠ـ ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ لا مُعين على تكاليف الحياة ـ بعد لطف الله ـ كالصبر والصلاة ؛ فهما الزاد الذي لا ينفد، والمَعين الذي لا ينضب.

١١ـ ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ : قال أبو حازم سلمة بن دينار: أرجى خصلة للمؤمن أن يكون أخوف الناس على نفسه، وأرجاهم لغيره.

١٢ـ ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ : يا لسعادة القاضي النزيه العادل، الحليم الحازم، الذي يفصل في المنازعات، وينتصف لأصحاب الحقوق؛ ما أعظم أجره، وأخلد أثره.

١٣ـ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ : لا وصفةَ للسعادة أنجع من هذه.

١٤ـ ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ : في هدايته، وبلاغته، وعذوبته، وإعجازه، وتشريعاته، وصدق أخباره، وعدل أحكامه، وملائمته للفطرة، ومساوقته للعقل.

١٥ـ ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ : لقد حاصرتكم الحجج من كل ناحية؛ فلا مناص من التسليم بوحدانية الله، وصدق رسله، والإيمان الجازم بما جاء في كتابه؛ فلا يزيغ عن ذلك إلا هالك.

١٦ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ : كم من كلمة وئدت بها عداوات، وحصل بسببها خيرات ومودات، ونتج عنها أعمال زاكيات ومشروعات صالحات، والعكس.

١٧ـ ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ : لا تُعْطِ عطاءً تلتمس به أكثر منه، ولا تستكثر عملك الصالح، ولا ما تسديه من معروفٍ، أو إسعادٍ بالمال، أو الجاه، أو السهر، أو المواساة، أو الشفاعة، أو التعليم، أو العفو، أو التبسم، أو نحو ذلك؛ فما تعطيه خيرٌ مما تأخذه، وما تعطيه إنما هو محض فضل الله عليك؛ إذ جعلك اليدَ العليا.

١٨ـ من الناس من يتهاون بأكل الحرام إذا كان يسيراً وينسى ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ وحديث صاحب الشملة، وهي شُقّة من ثياب غلّها في الجهاد؛ فهي تشتمل عليه ناراً.

١٩ـ ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ : حتى شكر المخلوقين على معروفهم سبب لانبعاثهم لمزيد من البذل والعطاء.

٢٠ـ ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ : حتى كنود نعمة المحسنين سبب لإقصارهم عن البذل، قال عنترة:

نُبِّئْتُ عَمْراً غيرَ شاكرِ نعمتي ... والكفرُ مَخْبَثَةٌ لِنَفْسِ المُنْعِمِ

٢١ـ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ : الطريق إلى الله أيسر الطرق، وأوضحها، وأوسعها، وأعظمها بركة، وأعمها نفعاً، وأحمدها عاقبة.

٢٢ـ أعظم القواعد للتعامل مع الناس ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ .

٢٣ـ ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ : الفطرة كير ينفي خَبَثَ الكثير من الشبهات.

٢٤ـ ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَه ﴾ ، ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ ، ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ : التطير بأهل الصلاح صنيع أعداء الرسل.

٢٥ـ ﴿ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ ، ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَة ﴾ ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ ﴾ يظهر أن كلمة ﴿ عُصْبَةٌ ﴾ بالتنكير لم ترد في القرآن إلا في معرض الكيد والتربص.

٢٦ـ ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ ، ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ ، ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ : تبقى الثقة بالله فوق كل تحليل، أو توقع.

٢٧ـ ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ : الله أكبر! لقد أضحت كلمة يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ رمزاً للعفة، ومثالاً يُحتذى به في النزاهة.

٢٨ـ ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ : لم يقل: (بي وبأخي) ولعل السرَّ في ذلك أن يوسف ـ عليه السلام ـ إنما أراد إيقافهم على جنايتهم، ولم يرد حظَّ نفسه، ولا شفاء غيظه؛ وذلك من تمام كرمه، وزكاء نفسه، وجزالة مروءته.

٢٩ـ ﴿ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ : لم يحتمل إخوة يوسف مجرد إقبال أبيهم على أخيهم يوسف؛ فارتكبوا ما ارتكبوا؛ كي يخلو لهم وجه أبيهم؛ فكانت النتيجةُ خلافَ مرادهم؛ إذ لم يسعدوا بعد صنيعهم بيوسف، وخروا له سُجَّداً بعد ذلك؛ إذا لم تتجرع غيظاً بطوعك ربما تجرعت أضعافه بغير اختيارك.

٣٠ـ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ : تدرك المطالب بالإيمان والتقوى ـ مع ما في ذلك من العز والشرف ـ ما لا تدرك بسحرٍ، وذلٍّ للخلق.

٣١ـ ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ : متى فقد الأصحاب والأقارب والخلطاء التراحم فيما بينهم زالت عنهم شعبة من أعظم شعب الإيمان، وصفة من أخصِّ صفات المؤمنين، وخسروا سعادة لا تقدر بثمن.

٣٢ـ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ : أَنْ يُسَلِّمَك الله من الضغينة والحقد للمؤمنين فتلك نعمة كبرى.

متفرقات

١ ـ من كمال العقل أن تلتمس العذر لصاحبك إذا نال منصباً، أو جاهاً، وحصل منه نوع تغيّر عليك، أو انصراف عنك؛ ومن ذا الذي يا عز لا يتغير؟

٢ ـ من كمال العقل والمروءة أن إذا نلت منصباً، أو جاهاً ـ ألا تنسى أصحابك، وألا تتغير عليهم؛ فتلك خصلة عالية، ومرتقاها صعب، وما يلقّاها إلا الذين صبروا، وما يلقّاها إلا ذو حظٍّ عظيم.

٣ـ أجمل الراحات ما كانت بعد تعب محمود.

٤ ـ من فقه النفس أن يعرف الإنسان متى يتكلم، ومتى يسكت، ومتى يقدِم، ومتى يحجم، وأن يعرف موقعه في كل مجلس وعند كل أحد؛ فذلك يريحه من أعباء كثيرة.

٥ ـ كارثة: أن ينادي للسماحة من هو في غاية الشراسة.

٦ ـ حتى شعر الهجاء في تراثنا الأدبي يحمل في غضونه مادة أخلاقية تتمثل في التنفير من مساوئ الخلال، ولا يلزم أن يكون المهجو مستحقًّا لما هُجي به.

٧ـ إتمام مكارم الأخلاق من أعظم مقاصد البعثة؛ قال ابن تيمية عن بعثة النبي ـعليه الصلاة والسلامـ: «فإنه أرسله بالإحسان إلى الناس، والرحمة لهم بلا عوض، والصبر على أذاهم واحتماله؛ فبعثه بالعلم، والكرم، والحلم».

٨ـ قال لي الشيخ بكر أبو زيد ﷺ ذات مرة: «الإسلام كالشمس؛ إذا ظهر في مكان بدد دياجير الظلم».

٩ ـ قال لي صاحبي: قابلتُ زميل دراسة لم أرَه منذ عشرين سنة في مناسبة، وبمحضر من الناس، وقد تبوأ منصباً؛ فسلمت عليه بشوق وحرارة، فقابلني ببرود، وبادرني بمزحة ثقيلة فما رأيك؟ فقلت له: اعذره؛ فلعله أتي من قلة ذوقه.

١٠ ـ قال أحدهم: تبوأت مكانة اجتماعية، وعلمية، وكنت إذا قابلت صاحباً لي أيام الطفولة، ولم يكمل دراسته الابتدائية ـ ابتدرته بالعناق الحار، ومخاطبته بلقب الزميل العزيز، والصديق القديم؛ فكانت دموعه تهراق من جراء ذلك.

١١ ـ يعجبك في الشاعر إذا ألقى قصيدة في مناسبةٍ ما ـ أن يبدأ بها مباشرة دون مقدمة، وألا يطيلها، ولا يعيد أبياتها.

ولأَنْ يقالَ: ليته واصل خير من أن يقال: ليته سكت.

١٢ ـ قَلَّ من يحسن الكلام في المناسبات؛ فَيُوفي المقامَ حقَّه، ويُنْزِلُ الكلام فيها منازله، ويضفي على المناسبة أنساً، وسكينة، دونما كثرة تفصيل، أو إطالة.

١٣ ـ قال أبو عمر بن العلاء: «لا يزال الرجل في فسحة من عقله ما لم يتكلف حوك الشعر».

ومن الناس من لا يَفْقَه ذلك؛ فيريد أن يكون شاعراً بالقوة مع أنه لا يَفْقَه في الشعر شيئاً.

قال أحدُ من له نظر في الشعر: «عرض علي شخص قصيدة قالها في رثاء قريبٍ له، وسألني عن رأيي في القصيدة، فلما نظرتُ فيها رأيتُ أنها ليست من الشعر في شيء، فحاولت صرفَه بالتي هي أحسن، فلم ينصرف، وقال: إن كان فيها شيء من الكسور فجبِّره، فقلت له بعد أن أعياني صرفُه: قصيدتك هذه لا تحتاج إلى تجبير فحسب، بل هي ميتة تنتظر الدفن».

١٤ ـ (اعتذار مليح) لقي أستاذ أحد طلابه بعد طول غياب فقال: اشتقت إليك، فقال الطالب: والله إني لأسافر لأراك؛ فأقف عند بابك، وأعود ما يمنعني إلا الحياء، فقال له أستاذه: افعل ما شئتَ بعد هذا.

١٥ـ ينبغي لمن أحسن إليه أحد أن يشكر للمحسن، وأن يدعو له، وأن يسمعه ذلك.

١٦ـ قيل لبعض العرب: ما علامة السيد فيكم؟ قال: «الذي إذا أقبل هبناه، وإذا أدبر اغتبناه».

الكبير لا بد أن يناله ما يناله من الذم، وإن لم يكن مستحقاً لذلك.

..... **وما زالت الأشراف تُهجى وتُمدح**

١٧ـ بعض الناس يظن أن ثواب إحسانه إلى الناس لا يأتيه إلا إذا دعا له من أَحْسن إليهم.

١٨ـ اجترار المآسي حماقة.

١٩ـ قرآن يتلى آناء الليل، وآناء النهار من أفواه القراء، والأئمة، والمعلمين، والمتعلمين، والمصلين، وسائر التالين؛ هنيئاً لكل من أسهم في تعليمهم.

٢٠ـ يا لسعادة من والداه على قيد الحياة ينظر إليهما متى شاء؛ ماتت والدتي ـرحمها اللهـ في الثالث من رمضان ١٤٣٣هـ ورأيتها بعد سنوات خطفة في المنام؛ فكأنما حيزت لي الدنيا.

٢١ـ ليس الشأن أن تُظلم، أو أن يساء فهمك؛ فَكُلٌّ معرضٌ لذلك، وإنما الشأن بكيفية تعاملك مع ذلك.

٢٢ـ ما أكرم ابن تيمية بالمعلومة؛ في بعض الأحيان تبحث في مسألةٍ ما، فلا تكاد تجد شيئاً فيها إلا بشق الأنفس، وإذا وجدتها عنده أدركت بغيتك وزيادة.

٢٣ـ يا ليتنا نجرب؛ فنضعَ هدنة ولو في بعض المواسم الفاضلة نتوقف من خلالها عن المهاترات، والجدال العقيم، والخصومات الفاجرة؛ عسى أن يكون ذلك ديدناً لنا في سائر أيامنا وحواراتنا.

٢٤ـ تكاثرت عبر أجهزة التواصل الوصفاتُ الطبيةُ، واقتراحاتُ المجربين؛ حتى قال بعضهم: لقد صار عندي زحمة (على الرِّيْق) من كثرة ما أسمع من وصايا حوله.

٢٥ـ الوقوف على الحكم والأمثال، والنظر في سير أعاظم الرجال ـ أمر حسن، ولكن الشأن كل الشأن في مراعاة الأحوال، وإحسان تنزيل الأمور منازلها اللائقة بها.

٢٦ـ جميلٌ أن إذا رأينا من أحد حماقة متأصلة، أو رعونة مستمرة ـ أن نحاول إصلاحه، وإن لم نستطع حاذرنا من الوقوع في مثل مساوئه.

٢٧ـ التشهير بالخطأ، وتوثيقه مسجلاً بالصوت والصورة، ونشره بين الملأ قد يكون أشد من مجرد الخطأ الذي وقع؛ التشهير بحد ذاته عقوبة شديدة.

٢٨ـ من الصدقات الجارية المغفول عنها ما يترتب على إسعاد إنسان، وبعث همته لأعمال جليلة ترضي الله، وتنفع الناس.

٢٩ـ ما أكثر النبل في الأطباء، وما أجمل صدوره منهم.

إذا كان الطبيب ذا إخلاص، واحتساب، وحسن خلق، وتلطف بالمرضى ـ فقد فتح له باب خير عظيم.

نشر المحاسن

١ ـ الدنيا مليئة بالناس الرائعين وبالمواقف الرائعة؛ فلماذا لا نستدعي ـ أحياناً ـ إلا الذكريات الأليمة، والمواقف السلبية التي تفري فَرْيَها في قلوبنا؟!

٢ ـ قد نسمع عن فضائل فلان وأياديه البيضاء، وجهوده في الخير؛ فلا نفكر في شكره؛ فإذا أخطأ مرة واحدة ـ وقد يكون مجتهداً ـ اشتد نكيرنا عليه! .

٣ ـ من البلاء أن تكون ضروب الفضائل والعظمة والكمالات متنوعة متوافرة في مكانٍ ما، وأن يكون التسويق لها ضئيلاً، أو مفقوداً.

٤ ـ يا ليتنا نحرص على شكر المحسنين كحرصنا على نقد المخطئين .

٥ ـ لِنَشْرِ المحاسن أثرٌ عظيم في التربية؛ إذ به تحصل القدوة، ويتربى النشء على سماع الفضائل، وبه يُقضى على جراثيم الإحباط، واليأس.

٦ ـ نَشْرُ المحاسن يدل على كرم نفسٍ، وأصالةِ رأي، وبعدٍ عن الحسد.

٧ ـ نشر المحاسن يتضمن شكراً لأصحابها، ودفعاً لهم إلى مزيد من الإحسان، وإشعاراً لهم بصحة ما هم عليه، وتثبيتاً لهم جَرَّاء ما يلقونه من التثبيط، والنقد الظالم.

٨ ـ اكتشاف الخصال الحميدة في الآخرين نباهة، وإشعارهم بها نزاهة، وإشاعة ذلك بين الناس سخاء ومروءة.

٩ ـ ليس من الحكمة أن نشعر أولادنا، وطلابنا بأننا خير منهم في كل شيء؛ فلو أدركوا زماننا لربما فاقونا، ولو كنا في زمانهم لربما كنا دونهم.

١٠ ـ لا يحسن بذي التأثير أن يبعث برسائل محبطة بين الفينة والأخرى لمتابعيه، أو جُلاسه، أو طلابه، أو أولاده، أو قرائه؛ فذلك يورثهم ضيق الصدر، وقلة الصبر.

١١ ـ ما أكثر مواقف الشهامة في مدارسنا، وجامعاتنا، ومحاكمنا، ووزاراتنا، وأسواقنا، وسائر دوائرنا.

ولكنَّ التسويقَ لها ضعيف، وأَعْيُن بعضِ الناس لا تقع إلا على المعايب.

١٢ ـ جميلٌ ألا تؤجِّل الشكر لمن يستحقه، وألا تؤخر الكلمة الطيبة عن حينها، وجميل أن تتباطأ عن العتاب، وما مِنْ شأنه تحريك الشرور؛ فلعل الله يصرفك عنه.

وإذا هَمَمْتَ بأمرِ سوءٍ فاتَّئِدْ وإذا هَمَمْتَ بأمرِ خيرٍ فاعْجَلِ

تنبيهات

١ ـ حِرْصُك على حاجة إنسان كحرصه عليها، أو أشد حتى تُثْبِتها له ـ عملٌ جليلٌ، وخلقٌ نبيلٌ، ولكنه يصلح مع بعض النفوس لا كُلِّها.

٢ ـ من البلاء على الإنسان أن يكون مولعاً بالتخطئة.

٣ ـ كم في صدور الرجال من الكنوز المدفونة من العلوم، والآداب، والتواريخ، والخبرة بالحياة.

وقد يموتون وتموت معهم تلك الكنوز؛ فما أحوجنا إلى استمطارهم، واستخراج ما لديهم.

٤ ـ من الخطأ أن تمر بالإنسان تَجْرِبَة شخصية بحتة؛ فيجعل منها قاعدة عامة يُفرّع عليها ما يُفَرِّع من التنظير؛ فيتلقفها قليلُ الخبرة وكأنها حقيقة مُسلّمة؛ كل تجربة لها ما يكتنفها من الخصوصية زماناً، أو مكاناً، أو شخصاً.

٥ ـ التخصص في أي فرع من فروع العلم حسن محمود، ولكن ذلك لا يعني أن يكون المتخصص عامياً في بقية الفروع لاسيما ما كان منها مسانداً لتخصصه.

٦ ـ قل أن تجد كبيراً حقًّا في علمه، أو جاهه، أو منصبه وهو متصف بالكبرِ واحتقارِ مَنْ دونه؛ لا يتكبر، ولا يحتقر الآخرين إلا صغير النفس مهزول المروءة.

٧ ـ الحق فطرة، وعليه نور.

٨ ـ أن تشجع إنساناً، و تأخذ بيده إلى ما يستطيعه، ويليق بحاله وإمكاناته ـ فذلك دليل كرم النفس، وشهامة الخاطر.

وأما رفعه فوق شأنه، ووضعه في مقامات هو دونها بمراحل، وإيهامه بأنه جدير بذلك، وأهلٌ له ـ فذلك رعونة، وتهور، ومخاطرة.

٩ـ في الأزمنة الفاضلة تكثر الدعوات والصدقات عن الأموات ومن لهم وصايا ، وهناك فئة تكاد تكون منسيَّة من ذلك كله ، وهم شباب ماتوا في ريعان شبابهم .

١٠ـ إذا كان لك صديق ، أو أخ توفي ولم يتزوج ، ولم يترك وصية يُتَصَدَّق له من خلالها ـ فلا تَنْسَهُ من دعائك ، وما يتيسر من صدقاتك؛ فربما يكون مقطوعاً من ذلك.

لطائف

١ ـ عملان يسيران، هما بمقدور كل أحد، وبهما يضاعف الثواب، وتنال الدرجات العلى: كثرة ذكر الله، ومحبة الخير للناس.

٢ ـ الأذكار القولية للنفس بمنزلة الهاتف في الأذن يُذكِّرها بعد الغفلة ـ كما يقول ابن عاشور ـ.

٣ ـ من الصدقات العظيمة التي يُغفل عنها كثيراً ـ كفُّ الأذى عن الناس.

٤ ـ راحة البال، وطمأنينة النفس، و الأنس بالأهل، والأحبة، وحب الطاعة، وبُغض المعصية، والإحساس بالذنب، وسرعة الفيئة منه ـ نِعَمٌ لا يَشْعُر بها من يتكالب على الجاه، والمال، والشهرة.

٥ ـ من جميل ما تُستقبل به مواسم الخيرات أن يُنهي المسلم أغلب أعماله قبل حلولها؛ حتى يتخفف منها، ويكون متفرِّغاً قدر المستطاع للعبادة.

٦ ـ في أواخر مواسم الخيرات ـ كالعشر الأواخر من رمضان ـ قد يَدِب الفتور إلى بعض النفوس؛ وذلك أمرٌ عاديّ؛ فلا ينبغي أن يكون حاملاً على مزيدٍ من الكسل؛ فيحسن ـ والحالة هذه ـ استدعاء الهمة، واستثارة الطاقة الكامنة، وتذكُّر حسن العاقبة.

استدعاء السعادة

١ ـ الاستدعاء الذهني مَلَكَة تحتاج إلى صقل، ومران، ورعاية؛ كي تجلب لصاحبها السعادة، وتنأى به من الوقوع في براثن الهم والشقاوة؛ إذ إن أجمل ما في ذلك استدعاء السعادة.

وذلك بأن يحرص المرء على استدعاءِ السكينةِ، ومثبتاتِ الإيمان، والألطافِ الإلهية، وأسبابِ النجاح، وبواعثِ الفأل، وما جرى مجرى ذلك بدلاً من استدعاء ما يضادها مما يضعف النفس، ويلقي بها في مهاوي الردى.

٢ ـ جاءت نصوص الشرع مثيرةً للنفوس على اجتناب الحزن، محذرة لها من الوقوعِ في الحسرات، والبحثِ عن المنغصات، حاثةً لها على الأخذ بأسباب السعادة، وانشراحِ الصدور، وفتحِ أبواب الأمل.

٣ـ المتاعب والمصاعب التي تمر بنا، وتنال نيلها منا ـ غالباً ما نعطيها أكبر من حجمها؛ بدليل أنها ـمع مرور الزمنـ تصبح مجرد ذكريات، وربما أضحت مجالَ تَنَدُّرٍ.

٤ ـ المصائب كالسياط يشتد أَلَمُها أولَ وقوعِها، ثم لا يلبث أن يضعف شيئاً فشيئاً؛ لذا فإن الصبر الحقيقي إنما يكون عند الصدمة الأولى.

٥ ـ السيطرة على المشاعر حال الغضب والرضا يحتاج إلى عقل راجح، وتدبر للعواقب، ولا يُحْكِم هذا الأمر إلا عاقل مُجَرِّب موفق كأنه ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

٦ ـ في الغالب: كلُّ شيءٍ تُرَحِّبُ به يقيم عندك، حتى الهم، والغم.

٧ـ من أروع الابتسامات: ابتسامةُ كريمٍ حليمٍ يُظهر فَرَحه، ويُخفي كمده؛ كظماً للغيظ، وسلوكاً لمسلك العلم والأدب، ومن أحكم ما قالته العرب:

ولربما ابتسم الكريم من الأذى وفؤاده من حرِّه يتأوَّه

٨ـ من أكرم النبل، وأحراه بتعجيل المثوبة ـ أن تُسعد الآخرين وأنت محزون مكلوم؛ ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾.

٩ـ بعض الناس ـ وقليلٌ ما هم ـ تزوره في مرضه الشديد؛ فيسعدك بصبره، وشكره لربه، وشدة حفاوته، ومحاسن كلامه.

١٠ـ السعادة لا تكمن في نجاح كبير، أو تحقق أمنية عظيمة؛ فذلك قد يطول انتظاره، وقد لا يتحقق؛ السعادة قريبة التناول، وقد تتحقق بنجاحات صغيرة، وقد تلتمس من كلمات، أو مواقف يسيرة.

١١ـ العاقل الموفق من يبحث عن السعادة في طي النقم، والنعم، والمحن، والمنح.

والأحمق من يستدعي الشقاء وهو غارق في النعيم إلى الأذقان.

تعامل مريم ـ عليها السلام ـ مع الهَم

لقد تردد اسم مريم ـ عليها السلام ـ كثيراً في القرآن الكريم، مقروناً بتبجيلها، وذِكْر مآثرها، وما كانت عليه من العفاف، وملازمةِ العبادة، والسيرِ على ما كان عليه سلفُها الصالح من أنبياء الله، وأصفيائه.

بل لقد أفردت سورة في القرآن تحمل اسمها، وهي سورة مريم.

وسيرة تلك الصدِّيقة تحمل في طيَّاتها عِبَراً، والكلام ههنا سيكون حول عبرةٍ عظيمةٍ تنفع المعتبر في معاشه ومعاده، ألا وهي **كيفية تعامل مريم مع الهم**.

فقد ابتليت ـ عليها السلام ـ ببلاءٍ لم يُبْتَلَ بمثله امرأة قبلها ولا بعدها؛ فبينا هي مقبلة على ربها، ملازمة لعبادته، منقطعة عن كل ما يشغلها عن ذلك ـ إذ تمثل لها الروح القدس بشراً سويًّا؛ فاستعاذت بالله منه؛ فأخبرها أنه رسولٌ ملكيٌّ من لدن رب العالمين؛ لِيَهَبَ لها غلاماً طاهراً يكون له ما يكون من الشأن؛ فأنكرت ذلك؛ إذ كيف يكون لها غلامٌ ولم يَمْسَسْها بشر؛ لِتحبل منه على نحو ما جرت به العادة؟!.

وكيف يكون لها غلامٌ وهي حَصَانٌ قد تواتر أمر عِفَّتها، وطهرها، وزكاء عنصرها؟!

ولكنها أحَسَّت بنوع طمأنينة من جراء قول الملك بأن هذا الغلام زكي؛ فهي تعرف ما تعرف من شأن الوحي، وطرقه؛ إذ هي من بيت نبوة وكتاب.

ولكن لم تكن تلك الطمأنينة لِتُبَدِّدَ كلَّ ما تجده من الهم، والخوف؛ فليس الخبر كالعيان؛ إذ لما حصل النفخ فيها من لدن الروح القدس اشتد خوفها، وبلغ منها الحزن غايته، ثم ألجئها المخاض إلى جذع النخلة، حتى قالت: ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾.

إذ كيف سيصدقها الناس؟ وكيف سيكون حالها أمامهم؟.

وبعد أن وضعته ، ووقع ما كانت تحذره بدأ خوفها يتبدد شيئاً فشيئاً ، كما هي السُّنَّةُ في الخوف والحزن؛ إذ إنهما يبدآن بالتلاشي عند بلوغهما الغاية؛ على حد قول ابن حزم : (إذا تكاثرت الهموم سقطت كلها) ، وقول القائل :

وراء مضيق الخوف مُتَّسع الأمن وأول مفروحٍ به غاية الحزن

ألم ترَ أن الله ملَّك يوسفاً خزائنه بعد الخلاص من السجن

حينها استسلمت مريم ـ عليها السلام ـ للأمر ، وفوضت أمرها إلى بارئها الذي حفظها ، وكلأها برعايته؛ فألهمها رشدها ، وهداها إلى صراطه المستقيم ، وأودع في قلبها حبه ، والإقبال عليه؛ فما كان ليضيعَها ، ويدعَها للعوادي ، والشامتين؛ فهذا هو ظنّها بربها الذي عرفته ، وكانت قانتةً له.

ومن هنا بدأت تتعامل مع هذا الهم العظيم بما تقتضيه الحكمة ، ويدعو إليه داعي الإيمان والرشد؛ فلم تفكر في الخلاص من ذلك الوليد؛ بحيث ترميه في العراء ، أو تدفنه في بطن الأرض.

وإنما أدركت أن ولادته جاءت على هذا النحو الخارق للعادة؛ فكأنها انتظرت خارقاً آخر يظهر براءتها.

ومن هنا ناداها مِنْ تحتِها ، أو مَنْ تَحتَها في القراءة الأخرى ـ والقائل ههنا إما عيسى ، أو جبريل ـ عليهما السلام ـ والأقرب أنه عيسى ـ قائلاً : ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ حيث ابتدر خطابه لها بأن تكف عن الحزن ، وأن تفرح بالمولود كفرح سائر الأمهات عندما يضعن مواليدهن.

ثم زاد بطمأنتها بأن تفرح أشد من فرح غيرها من سائر النساء عندما يلدن؛ وذلك بتبشيره لها بقوله : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾.

والسريُّ: هو النهر في السريانية، والنهر الصغير في النبطية، والجدول في لغة أهل الحجاز.

وقيل: هو المسيح عيسى ـ عليه السلام ـ ؛ إذ السريُّ: يطلق على السيد، الوجيه، الزكي، المقدم، وهكذا كان شأن عيسى ـ عليه السلام ـ.

وبعد أن نهاها عن الحزن، والاسترسال مع المخاوف أمرها بما يبدد الحزن، ويبدله أمناً، وسروراً، فقال: ﴿ فَكُلِي ﴾ من الرطب؛ فلا تشتكي الجوع، ﴿ وَٱشْرَبِي ﴾ فلا تشتكي الظمأ؛ لأن من عادة المحزون ألا يشتهي أكلاً ولا شرباً.

ثم أمرها بما هو أعظم من ذلك في جلب السرور، فقال لها: ﴿ وَقَرِّى عَيْنًا ﴾.

وقرة العين كناية عن السرور، بل هي أعظم السرور؛ فالعين لا تقر بكل شيء، وإنما تقرُّ بالعظيم من المحبوبات.

وقرة العين ههنا ـ كما يقول ابن عاشور ـ تشمل هناء العيش، والأنس بالطفل المولود.

وفي كونه قرةَ عينٍ كنايةٌ عن ضمان سلامته، ونباهة شأنه.

ثم أرشدها إلى ما تدفع به عن نفسها قالةَ السوء، وذلك بقوله: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾.

والمقصود بالصوم ههنا: الصمت، وكان الانقطاع عن الكلام من ضروب العبادة في الشرائع السابقة.

فما كان من مريم ـ عليها السلام ـ إلا أن أحسنت التعامل مع هذا الهم الذي تنوء بحمله الجبال؛ فلم تجلس جلسة المرزوء، ولم تضاعف المصيبة بالتسخط، والاعتراض.

وإنما أخذت بالأسباب؛ فتماسكت، وسارت على وَفْق ما نهاها وأمَرَها من تحتها؛ إذ أدركت أن ذلك لا يكون إلا بخارق؛ فأتت بهذا الوليد تحمله بين يديها كما تحمل الأم الرؤوم ولدها، وكلها ثقة بالله في أن يظهر براءتها، ويعلي شأنها، ويريها في هذا الغلام ما تقر به عينها.

فلما رأوها أكبروا ما رأوه منها، وهم يعلمون أنها الحصان الرزان التي لا تُزَنُّ بريبةٍ؛ فقالوا مبادرين منكرين: ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾: أي قال لها قومها؛ توبيخاً لها: لقد جئتِ بأمرٍ عجيبٍ، وأحدثتِ حدثاً عظيماً شنيعاً بالغ مبلغه من السوء.

﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ أي يا شبيهة هارون في العبادة، وهارون هو أخو موسى -عليهما السلام-.

وقيل: نُسِبت إلى رجلٍ صالحٍ كان فيهم اسمه هارون؛ فكانت تقاس به في العبادة، والزهادة.

ويحتمل أن يكون لها أخ اسمه هارون، فخاطبوها بالإضافة إليه؛ زيادةً في التوبيخ، قائلين: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ أي أنتِ من بيتٍ طاهرٍ معروفٍ بالصلاح، والعبادة، والزهادة؛ فكيف صدر هذا منك؟!.

وأرادوا بهذا الكلامِ الكنايةُ عن كونها أتت بسوء ليس من شأن أبيها، وبغاءٍ ليس من شأن أمها؛ إذ خالفت سيرة أبويها؛ فكانت امرأةَ سوءٍ، وكانت بغيًّا.

وما كان أبوها امرأ سوءٍ، ولا كانت أمها بغيًّا؛ فكأنها مبتكرةُ الفواحش في أهلها.

وهم أرادوا ذمَّها؛ فأتوا بكلامٍ صريحُه ثناءٌ على أبويها، مُقْتَضٍ أن شأنها أن تكون مثل أبويها، لا أن تحيد عن سيرتهما الحميدة، وطريقتهما المثلى.

وهم لا يلامون على ذلك؛ إذ الأمر الماثل أمامهم يقتضي مثل هذا النوع من التوبيخ.

ولا ريب أن مثل تلك القوارع تهز الجبال الرواسي، وتضاعف المصيبة، وتفضي إلى غاية الحزن.

ولكن مريم - عليها السلام - أحسنت التعامل مع هذا الموقف العصيب؛ فقابلت ذلك بجأش رابط، ونَفْسٍ مطمئنة، وسارت على نحو ما أوصاها به من تحتها؛ فما كان منها إلا أن ﴿أَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي كلِّمُوه؛ فأثارت بذلك حفيظتهم، وقالوا - متهكمين غاضبين - : على ما جاءت به من الداهية تسخر بنا؛ فتأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبيًّا؛ فكيف يتكلم وهو موجود في مهده في حال صباه، وصغره؟! وكيف نترقب منه الجواب، وكيف نلقي عليه السؤال؟!.

هنا ﴿قَالَ﴾ أي المسيح - عليه السلام - وهو في المهد: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ فكان أول ما تكلم به أن نزه جناب ربه - تعالى - وبرأ اللهَ عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه.

وقال: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ تبرئة لأمِّه مما نسبت إليه من الفاحشة؛ فههنا عَمَّ الوجوم، وظهرت البراءة، واتضحت الحقيقة.

والشاهد من ذلك كله حسن تعامل مريم - عليها السلام - مع ما أصابها من الكرب العظيم، الذي غيَّر مجرى التاريخ إلى يومنا هذا.

والعبرة من ذلك أنه يجدر بالإنسان أن يحسن التعامل مع الهم؛ فيقابله بسكينة، ويحرص على ألا يضاعفه؛ فيحرص على طرد الهم، واستدعاء السعادة، وذلك بالأخذ بالأسباب الممكنة؛ فالهم يتضاعف بالاجترار، والمبالغة في تضخيم النتائج، وتوقعِ المكروه، و الإغراق في التشاؤم، والاستسلام للحزن.

وعكس ذلك كفيلٌ بطرد الهم، أو تقليل خطره، وضرره.

وإذا لم يكن في يد الإنسان من حيلة فليسلم الأمر إلى من بيده ملكوت كل شيء؛ فهو الكاشف للهم، والقادر على إزالته.

قال النابغة الجعدي رضي الله عنه معبِّراً عن هذا المعنى:

ولا تجزعـــا إن الحيـــاة ذميمـــة فَخِفَّـا لروعـات الحـوادث أو قِـرا

وإن جـاء أمـرٌ لا تطيقـان دفعـه فـلا تجزعـا ممـا قضـى الله واصـبرا

وما أنجع وصفة الإمام الشافعي إذ يقول:

ســهرت أعــينٌ ونامــت عيــون في أمــورٍ تكــون أو لا تكــون

فــادرء الهــمَّ مــا اســتطعت عــن الــنفس فحملانــك الهمــوم جنــون

إنَّ ربــاً كفــاك بــالأمس مــا كــا ن ســيكفيك في غــدٍ مــا يكــون

زكاء الأيادي

قيل لأحد العرب: ما أطيب الطيبات عندك؟ قال:

أطيبُ الطيباتِ موتُ الأعادي ... واختيالٌ على متون الجياد

وأيادٍ حَبوتَهُنَّ كريماً ... إنَّ عند الكريم تزكو الأيادي

والشاهد من ذلك قوله في الشطر الأخير من البيت الثاني:

.... إن عند الكريم تزكو الأيادي

فهو يشير بذلك إلى معنى شريف ألا وهو الفرح باصطناع المعروف إلى الكرام الذين يحفظون الجميل، حيث جعله من أطيب الطيبات عنده.

وقبل ذلك لابد من الإشارة إلى أن صنع المعروف لا ينبغي أن يراد من ورائه مقابل، ولا أن يُقْتَصر فيه على الشاكر للجميل دون الناكر الكنود.

وإنما يُبذل ابتغاءَ مرضاة الله، ورغبةً في صنع المعروف.

ولهذا لما سمع عبدالله بن جعفر -وهو من الأجواد المعروفين- هذين البيتين:

إن الصنيعة لا تكون صنيعةً ... حتى تنال بها كريمَ المصنعِ

فإذا اصطنعت صنيعة فاعمِد بها ... للهِ أو لذوي القرابة أو دعِ

قال: «هذان البيتان يبخِّلان الناس، ولكن أمطر المعروف مطراً؛ فإن أصاب الكرام كانوا أهلاً، وإن أصاب اللئام كنت أهلاً».

وقال الفقيه ابن سراج:

بُثَّ الصنائعَ لا تَحْفَل بموقعها ... في آملٍ شَكَرَ المعروفَ أو كفرا

كالغيثِ ليس يبالي حينما انسكبت ... منه الغمائمُ تُرْباً كان أو حَجَرا

وقد مر أبو الديك المعتوه بمن ينشد:

إن الصـــنيعة لا تكـــون صـــنيعة حتـــى تنـــال بهـــا كـــريم المصـــنع

فقال: كذب شاعركم، بل يُصرف المعروفُ إلى أهله، وغير أهله، وإلا كيف ينالني، وكنيتي أبو الديك، وأنا معتوه؟!

فمن المستحسن -إذاً- أن يبذل المعروف لمن يستحقه، ولمن لا يستحقه.

ولكن بذله للكرام له معنى آخر وهو المقصود ههنا؛ إذ الكرام أهل لذلك من جهة حبهم لبذل المعروف، وارتياحهم له، وفرحهم به؛ فهم -إذاً- أولى الناس بالمعروف من هذه الناحية.

ومن جهة أن الناس يغفلون عن بذل المعروف للكرام؛ إذ قد تعوَّدوا على أخذ المعروف منهم دون بذله لهم.

ومن جهة أن الكرام يحفظون الجميل ولو كان قليلاً؛ فيَكْبُر صغيرُ المعروف عندهم، ويتعاظم مع تقادم الأيام؛ فلا ينسونه، ولا يتنكرون لصاحبه، بل يتحيَّنون الفرص لرد الجميل بأعظم منه، مع اعترافهم بأن الفضل للمتقدم.

وهذا ما يشير إليه البيت السالف؛ إذ أبان أنَّ زكاء المعروف طبع الكرام، وهو -أيضاً- مما ترتاح إليه نفوس الكرام؛ فهو مما يحدث المودة، ويجدد الصلة، ويوثِّق العلاقة، ويَعْقِد أواصرَ الإيثار، ويقضي على جراثيم الأثرة والمادية البحتة.

وتلك المقاصدُ الرفيعةُ الشأن مما يرتقي بالأفراد والمجتمعات، فتسمو أذواقهم، وتعلو هممهم، ويصعدون في سماء السعادة والمجادة درجات.

وإذا نظرتَ في سير أكابر الناس وجدتَ أن هذه الخصلةَ حاضرةٌ مُبْصَرَة في سيرهم؛ فهذا أحد السلف الصالح كان كريماً شكوراً متوداً للناس.

وكان من صنيعه إتحافُ الفقراء والأحبة بالصدقات، والهدايا، وكان له ولد يقوم بتلك الأعمال بأمره.

وفي يوم من الأيام -وكعادة ذلك الكريم- أعطى ولده مالاً، وقال: فَرِّقه على فلان، وفلان، وفلان.

وكان من بين هؤلاء الذين نالهم سَيْبُ ذلك الكريم رجلٌ لا يدري الولدُ ما سبب إكرام والده له؛ فقال: يا أبي! ما شأن فلان؟ لِمَ أعطيتَه ما أعطيتَه؟ فقال: يا بني! لقد لقيني؛ فحيَّاني بتحية طيبة أفرحتني، وأردت أن أكافأه بما أستطيع!.

ويُذكر عن أمير المؤمنين في الحديث سفيان الثوري رحمه الله أنه قال: «إن الرجل ليَسْبِقُني إلى شربة الماء فيسقيني إياها؛ فكأنما دقَّ ضلعاً من أضلاعي؛ لا أستطيع مكافأته».

فانظر كيف زكا المعروف عند هؤلاء الأكابر مع قلته.

وفي مقابل ذلك ترى من اللئام من لو فعلت له ما فعلت لما رفع بذلك رأساً، بل قد يبلغ اللؤم ببعضهم أن يحسد من يحسن إليه على حد قول أبي الطيب:

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً لمن بات في نعمائه يتقلب

والخلاصة أن حفظ المعروف، والاعتراف لصانعه، وتكبيره ولو كان صغيراً - صفة من صفات الكمَّل من أهل المروءات، الذين يُعَظِّمون معروف غيرهم ولو كان يسيراً، ويصغِّرون معروفهم ولو كان كبيراً.

وهذا ما حدا بالشاعر العربي الآنف الذكر أن يَعُدَّ بذل الجميل للكرام من أنفس الغنائم، وأطيب الطيبات.

وذلك مما تُشْرَبُه النفوس الزاكية التي ذللت لها سبل المكارم تذليلاً.

جمال المعروف بتفاصيله

المعروف جميلٌ بذاته، ويزداد جمالاً بتفاصيله، وإلى هذا المعنى الجميل يشير أبو الطيب المتنبي بقوله:

وما كلُّ هاوٍ للجميل بفاعلٍ ولا كلُّ فعَّالٍ له بمتمِّم

والناس يتفاوتون في هذا المعنى تفاوتَهم في الذوق، والثقافة، والعقل، والمروءة.

فمن جمال المعروف بتفاصيله: تعجيله، والحذر من التسويف فيه كما قال البحتري في أحد ممدوحيه:

عَجِلٌ بالذي تُنيل يداه إن بُطْءَ النوال مِنْ تَنكيده

وكما قال آخر:

إن الكريمَ إذا حَبَاكَ بِمَوعدٍ أعطاكه سلساً بغير مِطَال

ومن جمال المعروف: متابعته، وتعاهد من يُحْسَنُ إليه قدر المستطاع؛ فبذلك يجعل المحسن ما بينه وبين صاحبه عامراً؛ إذ تعاهد الصنيعة من أعظم خصال المروءة، والمعروف يحتاج إلى رعاية وسقيٍ، حالُهُ حالُ الزرع؛ ليثبت، ويؤتي أكله الطيب، وثماره اليانعة.

ويكون ذلك بمتابعة المعروف قدر المستطاع.

وإلى هذا المعنى الجميل يشير الحكيم العربي بقوله:

عندي حدائق ودٍّ غَرْسُ نِعمتكم قد مَسَّها عطش فَلْيَسْقِ من غرسا
فداركوها وفي أغصانها رَمَقٌ فلن يعود اخضرارُ العود إن يبسا
إني صنيعة أيديكم وأَنْعُمِكُم لا تتركوني فإن القلب قد درسا
إن الكريم إذا أنشا حدائقَهُ من المروءة أن تُسقى وتَنْحَرسا

ومن أجمل ما في التعاهد للمعروف تعاهدُ الإنسان أصحابَه، ولمن لهم حق؛ فتلك خصلةٌ حميدة تنمُّ عن أصالة رأي، وكرم طبع، وصدق مروءة، وحسن تذمم ووفاءٍ.

ويجمل ذلك الخلق، ويزدان رونقه إذا صدر من ذي جاه، ومنصب؛ بحيث يذكر من أصحابه، وجيرانه الذين يعرفهم قبل أن يكون له شأن؛ فيكون لسان حاله بعد أن ارتفع شأنه:

أســـكان نعمـــان الأراك تيقنـــوا بـــأنكموا في ربـــع قلـــبي ســـكانُ

وإلى هذا المعنى الجميل أشار أبو تمام بقوله:

إن الكـــرام إذا مـــا أســـهلوا ذكـــروا مـــن كـــان يـــألفهم في المنـــزل الخشـــن

ومن جمال المعروف بتفاصيله: ما يكون في شأن المعروف السالف؛ فيجمل بمن قدَّمه أن ينساه، وبمن قُدِّم له ألا ينساه مهما تقادم عليه الزمن، سواء قَلَّ ذلك المعروف، أو كثر.

ومن جماله: ألا يُنسى معروفٌ سالفٌ لمجرد أدنى تقصير.

بل يحسن أن يحفظ المعروف القديم، ولو حصل تقصير جديد.

ومن جمال المعروف بتفاصيله: إعزاز طالب المعروف، والحذر من إهانته، وصدعِ قناة عزته خصوصاً إذا كان من ذوي المروءات؛ فلا يحسن ترديده، والتسويف في مواعيده، ولا يحسن النظر بألحاظ الازدراء بعد الإحسان إليه.

ومن جماله: الفرحُ به؛ فيفرح صاحب المعروف بالبذل والعطاء أكثر من فرحه بالأخذ.

وإلى هذا المعنى الجميل يشير أبو نوفل الثقفي بقوله:

ولئن فرحتَ بما يُنيلك إنه لبِما ينالك من نداهُ أفرح
ما زال يعطي ساكتاً أو ناطقاً حتى ظننت أبا عقيل يمزح

ومن جماله: الصبر على بذله خصوصاً لمن لا يستحقه كالأحمق، والأخرق، والكَنود، ونحوهم مما لا بد للإنسان من بذل المعروف لهم، كمن يبتلى بأقارب، أو جيران من هذا القبيل.

وأذكر كلمة في هذا الشأن لوالدي رحمه الله بعد أن ناهز التسعين؛ حيث قال لأخي عبدالعزيز وكان في مقتبل حياته: (يا ولدي المعروف يحتاج إلى صبر).

ومن جمال المعروف التفنن في صنعه، والحرص على أن يكون في قوالب محببة للنفس تلاءم حال المسْدَى إليه؛ فتارة يقدم المعروف مباشرة، وتارة يُقَدم بطريقة غير مباشرة، وهكذا.

ومن جمال المعروف تحري الزمان والمكان حال تقديمه؛ فذلك ذوق عالٍ، ومنقبة سامية.

والحاصل أن تفاصيل المعروف كثيرة، وهي من أعظم مقومات الإحسان، والله يحب المحسنين.

السخاء بالمشاعر

الناس يتفاوتون في سخاء نفوسهم بحسب ما أودعهم الله من المواهب.

وسخاوة النفوس ليست مقتصرة على جانب معين؛ إذا السخاء مراتب، والناس فيه درجات.

وقد يُفتح على بعض الناس في بابٍ من أبواب السخاء ما لا يفتح على غيره فيه، ودون أن يفتح عليه في أبواب أخرى.

ومن أعظم أبواب السخاء التي تَمَسُّ الحاجةُ إليها، وتكثر الغفلة عنها ـ السخاءُ بالمشاعر؛ إذ هو نوعٌ شريفٌ من أنواع السخاء، وفيه ما فيه من الأجورِ العظيمة، والدلالةِ على طهارة النفس، وسلامةِ الطويَّة، والبعد عن الأَثرة.

وكم من الناس من يَسْهُل عليه أن ينفق الأموال الطائلة، والأوقات الكثيرة، والعلوم النافعة، والشفاعات الحسنة، وما جرى مجرى ذلك من ضروب السخاء.

ولكنه لا يستطيع أن يسخوَ بمشاعره؛ فيجودَ بالكلمة الطيبة، واللمسة الحانية، والتنويه بالمساعي الحميدة؛ إما حياءً، أو غفلةً، أو قلةَ إلفٍ، أو عدمَ مبالاةٍ، أو جفاءَ طبعٍ.

وأعرف من الناس من وهبه الله كرماً في المشاعر، وسخاءً في إبدائها؛ حيث رُزق لساناً رطباً، ونفساً طاهرة، وأوتي مشاعر فياضة صادقة يجود بها على أحبته، وأقاربه، ومعارفه، وجلاسه، بل ومن يلاقيهم في شتى المناسبات ـ على اختلاف طبقاتهم ـ.

ولا يكاد يجد فرصة للتعبير عن مشاعره من نحو تهنئة، أو مواساة، أو تشجيع، وما جرى مجرى ذلك ـ إلا وبادر إليها، وأقبل عليها بكل ما أوتي من

قوة، مع أنه كبير في سنِّه، وجاهه، ومنصبه، وليس بحاجة لأحد، ولا يحدوه فيما يقوم به من ذلك رغبة ولا رهبة.

وكان ذلك دأبَه مع الصغير، والكبير، ومع من يعرف ومن لا يعرف؛ فلا يبخل بالثناء الصادق، ولا الدعوات الخالصة، ولا يخفي إعجابه بمواقف الصدق، والشهامة، فكان بذلك مثارَ الإعجاب والتقدير لكلِّ مَنْ عرفه.

بل إن كثيراً مما يقوم به من ذلك يكون مع أناسٍ لا يعرفهم من قَبل، وإنما سمع عنهم؛ إذ إن أُذُنَه تعشق قبل عينه كثيراً؛ فما إن يَذكُرُ له بعضُ أحبته ممن يثق بصحة أحكامهم أن فلاناً من الناس بَدَر منه عمل طيب، أو أنه على قدر من النبل وشهامة الخاطر - إلا ويحرصُ على أخذ رقمِ هاتفه، ومعرفة كنيته، وأحب الألقاب إليه، فيبادر إلى تكليمه، والتعرف عليه، وشكره على ما قام به، وإظهار الفرح به، ودعوته إلى زيارته، والتشرف بمعرفته، وخدمته، وما إلى ذلك؛ فَيُحْدِث هذا النوعُ من السخاء بالمشاعر لدى الطرف الآخر سروراً، وانبساطاً، وتدفعاً لمزيد من العمل، والنفع.

بل إن كثيراً ممن رأوا ذلك منه أخبروا بأنهم لم يروا مثله طيلة حياتهم، وأنهم لم يتعودوا على مثل هذا النوع من السخاء.

ولا ريب أن ذلك مما تنشرح له صدور الأكابر، ومما يعين على ما نعاني منه من فتور في العلاقات، وفقر في المشاعر.

وفي ذلك درسٌ عظيم، ألا وهو التدرب على هذا النوع من السخاء؛ فيحرص المرء على التصريح بمشاعره الطيبة، ولا يأنف من الإشادة بما يراه من أعمالٍ زاكيةٍ، ومساعٍ حميدة؛ فينال بذلك محبة الآخرين، وينفي عن نفسه مَعَرَّة الأَثَرة، ويسلم من نقيصة الشح، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

سماحةٌ نادرة

السماحة في البيع والشراء، والتجارة، والمعاملات عموماً ـ خصلةٌ حميدة، وشعبةٌ إيمانيةٌ، ومروءةٌ ضافية.

والناس يتفاوتون في سماحتهم تفاوتَهم في المعاني السالفة الذكر.

والحديث ههنا عن سماحةٍ نادرةٍ عجيبةٍ قَلَّ نظيرُها.

وهي لإنسانٍ معاصرٍ توفي عام ١٤٢١هـ عن عمرٍ يناهز الخامسة والتسعين، ألا وهو عبدالعزيز بن محمد بن سلامة السلامة من أهالي الزلفي.

يحدثني ابنه الأستاذ عبدالمحسن ـ حفظه الله ـ في يوم الخميس ١٤٤٠/٢/٢هـ قائلاً: «كان أبي رحمه الله من عامة الناس، ومن متوسطي الحال.

وكان في مقتبل عمره ـ كغيره من معاصريه ـ يسافر، ويتقلب في البلاد؛ لطلب الرزق.

وكان من ضمن ذلك اشتغاله جَمَّالاً في طريق الأحساء ـ الرياض ينقل التمر، والعيش من الأحساء إلى الرياض على الجِمَال.

وكان ربما أقرض بعض من يعرف، أو وضع بعض ما يحصل عليه من مال عند أحد معارفه؛ لينمِّيه له.

وكان عنده دفتر فيه أسماء من له عندهم ديون.

وفي يومٍ من الأيام بعد أن كبرت سنُّه أمرنا بإحضار ذلك الدفتر، وقال لنا: اقرؤوا عليَّ أسماء من أريد منهم مالاً، فشرعنا في قراءته عليه، وصار كلما قرأنا عليه شيئاً يقول: اطمس على اسمه؛ لقد سامحته، وهو في حلٍّ مني، إلى أن انتهينا، فقال: أحرقوا هذا الدفتر، فأحرقناه.

وكان من ضمن معارف والدي، وممن يقرضهم، وله عندهم بعض المال رجلٌ ليس من أهل الزلفي، وإنما كان يعرفه لما كان يعمل في الأحساء.

واسم ذلك الرجل بندر أبو لسان، ولا نعرف عنه إلا اسمه، وأن له زوجة تعمل في بيع بعض الأشياء اليسيرة.

وكان والدي قد وضع بضاعةً عند زوجة ذلك الرجل؛ كي تبيعها، ثم لم يَعُدْ لهم بعد ذلك».

ويواصل الأستاذ عبدالمحسن السلامة حديثه قائلاً: «وفي حدود عام ١٤٠٩هـ قابلت عبدالرحمن الغنام -وهو من كبار السن من أهل الزلفي، وممن يسافر إلى الكويت وغيرها- فقال لي رحمه الله: لقد قابلت أولاداً لبندر أبو لسان، وسألوني عن والدك، وقالوا: إننا منذ مدة طويلة، ونحن نبحث عنه.

فقلت له: وماذا يريدون؟

فقال: إنهم يقولون: إن لعبدالعزيز السلامة مالاً عند والدتنا، وقد نمَّته، فَكَثُر، وتنوَّع، فصار منه الغنم، والإبل، ثم انتقلوا إلى الكويت؛ فصارت تنمي ذلك المال في العقار، فأصبح لوالدك أموالٌ، وماشيةٌ، وعقاراتٌ من جراء ذلك، وهم سألوني عن والدك؛ ليعطوه حقه.

فقلت لعبدالرحمن الغنام: سوف أذهب إلى والدي، وأخبره بذلك، وأَرُدُّ عليك؛ فجئتُ إلى والدي، وأبلغته بالخبر.

فما كان من والدي إلا أن قال لي: قُلْ لعبدالرحمن الغنام: قُلْ لهم: إنني سلمت والدتهم مالاً يسيراً لا يستحق الذكر، وأنا قد سامحت من لي مبالغ مالية

عنده، وهذا المال الذي نمّته هو تعبها، وعرق جبينها، ونتيجة جهدها؛ فليس لي فيه شيء، ولا أريد منه شيئاً.

ثم التفت إلينا، وقال: (إياكم أن تأخذوا منها شيئاً).

فما كان منا إلا أن قلنا له: سمعاً وطاعةً؛ فهذا مالك، وأنت تتصرف فيه كما تشاء».

يقول الأستاذ عبدالمحسن: «ولا أدري هل أخبر عبدالرحمن الغنام أبناء أبو لسان بذلك أو لم يخبرهم.

ولكن المهم عندنا أن المال لم يعد يعنينا بشيء منذ أن قال والدي ما قال».

فهذه حادثة غريبة ترينا وجهاً من وجوه الحياة المشرقة، ولوناً من ألوان السماحة، والتكرم، والإيثار، وتذكّرنا بحديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، فدعوا بصالح أعمالهم، وكان منهم من نمى المال لصاحب له؛ فكانت تلك المرأة مثالاً للوفاء، والأمانة، والصدق.

وكان صاحبنا عبدالعزيز السلامة رحمه الله مثالاً أروعَ في التكرم، والسماحة، وسخاوة النفس، وإيثار الآجل على العاجل.

﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾

هذا العنوان جزء من آيةٍ، وهي من ضمن آيات الحكمة الواردة في سورة الإسراء، وهي معطوفة على الآية التي قبلها، وهي قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾.

وفي هذه الآية إرشادٌ عظيمٌ لمن سُئِل وهو غير واجد، أو غير مستطيع.

وقد ذكر المفسرون أن النبيﷺ إذا سأله أحدٌ مالاً ولم يكن عنده ما يعطيه فإنه يُعْرِضُ عنه؛ حياءً؛ ذلك أن طبعه كريم؛ إذ هو أكرم البشرية قاطبةً؛ فيشق عليه أن يأتيه السائل، فلا يجد ما يعطيه؛ فَيُعْرِضُ عنه إعراض حياء.

وذلك أدبٌ رفيعٌ يدركه كرام الناس، كما عبر عن ذلك الإمام الشافعيرحمه الله بقوله:

يا لهف نفسي على مالٍ أفرِّقه ... على المُقلِّين من أهل المروءات

إن اعتذاري لمن قد جاء يسألني ... ما ليس عندي لَمِن إحدى المصيبات

ولما كانت هذه هي حالَ النبيﷺ نبهه ربُّه ـ جل وعلا ـ إلى أدبٍ أكمل من ذلك الإعراض الذي باعِثُهُ الحياءُ، ويحصل من ذلك التنبيه تعليمٌ لسائر الأمة.

وذلك الأدب ملاقاتهم بالقول الميسور، وهو اللين الحسن المقبول عندهم المتضمن لحسن الاعتذار، والوعد الصادق بالعطاء إذا تيَسَّر.

ولهذا جاء الإعراض بالآية مشروطاً بشرطين ـ كما يقول ابن عاشور رحمه الله ـ :

أحدهما: أن يكون إعراضاً؛ لابتغاء رزقٍ من الله، لا إعراضاً لبخلٍ عنهم.

والآخر: أن يكون معه قول ليِّن في الاعتذار.

وبذلك يجتمع القول الميسور مع الاعتذار الصادق، وهذا ما عبر عن الحكيم العربي بقوله:

إلا تكن ورقٌ يوماً أجودُ بها ... للسائلين فإني ليِّنُ العودِ

لا يعدم السائلون الخير من خلقي ... إما نوالي وإما حسن مردودي

بخلاف القول الشديد العسير الغليظ؛ فإنه يكدر النفوس، ولو مع العطاء؛ فكيف إذا كان مع المنع؟

وبخلاف الاعتذار الكاذب الذي يُقْصَدُ منه التعلُّل، والتخلص من السائل، كما قال بشار:

وللبخيل على أمواله عِلَلٌ ... زرق العيون عليها أوجهٌ سودُ

وقد قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

وقال: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾.

وفي ذلك إرشادٌ لمن يقابلون السائلين بخشونة لفظ، وصلافة خطاب، وغلظ طبع، وكثافة نفس، كأن يقول المسؤول: آذيتني، أو كما يقول بعضهم ـ معاتباً السائل، زارياً عليه ـ: لو بكَّرت، لو تأخرت، لو أتيتني في اليوم الفلاني الفائت، أو يقول: لو أتيتني بعد أيام؛ فإذا أتاه في نفس الموعد أمطر عليه ذلك الوابل من التقريع.

أو إن أتاه السائل قال له: أنت لا تعرفنا إلا عند الحاجة!

إلى غير ذلك من أساليب التقريع، وسوء الاستقبال.

وفي هذه الآية ـ كذلك ـ إرشاد لمن يقابلون السائلين بوعود كاذبة، مقرونة بلطافة، وألسنة معسولة؛ حيث ترى بعض الناس إذا جاءه السائل قابله بوجهٍ طَلْقٍ، وجبينٍ وضاحٍ دون أن يعطيه شيئاً، مع قدرته ويساره، ويقينه بصدق السائل، وحاجته.

وترى بعضهم ـ كذلك ـ يَعِدُ السائل بالوعود الكاذبة، ويُمَنِّيه بالأماني العراض الباطلة؛ كي يتخلص من الحرج، وهو يعلم علم اليقين أنه لن يبذل له أي جهد مع قدرته على ذلك.

وهذه آفة تعتري كثيراً من النفوس، فتزري بها من ناحية، وتقطع صاحب الحاجة من ناحية أخرى؛ إذ لو سلم من تلك الوعود العرقوبية لكان خيراً له، ولربما بحث عن سبيل آخرى؛ ليحصل من خلالها على حاجته.

قال أعرابي: «وعد الكريم نقد وتعجيل، ووعد اللئيم مطلٌ وتعليل».

وقال بشار في إنسان وعده عِدةً، وتأخر فيها:

أطلَّتْ علينا منك يوماً سحابةٌ أضاءت لنا برقاً وأبطا رشاشها
فلا غيمها يُجلى فييأس طامع ولا غيثها يأتي فتروى عِطاشُها

وقال آخر في وصف إنسانٍ ذي لسان معسول دون أن يكون له معروف:

إذا ما جئت أحمد مستميحاً فلا يغررك منظره الأنيق
له لطفٌ وليس لديه عُرف كبارقة تروق ولا تريق
فما يخشى العدو له وعيداً كما بالوعد لا يثق الصديق

والحاصل أن العطاء مع الكلام الجميل، وحفظ كرامة السائل معروف فوق معروف، والاعتذار بالقول الميسور والوعد الصادق بالخير ـ من جميل البر، ومن قبيل المعروف.

وأما البخل، والمطل، وتعليل السائل بالكذب ـ فظلماتٌ بعضها فوق بعض.

قال زياد الأعجم زارياً على من هم على تلك الشاكلة:

لله درُّك مـــــــن فتـــــــىً لـــو كنـــت تفعـــل مـــا تقـــول
لا خـــــير في كـــــذب الجـــــوا دِ وحبـــــذا صـــــدق البخيـــــل

وقال آخر:

لـئن جمـع الآفـات فالبخـل شـرُّها وشـرٌّ مـن البخـل المواعيـد والمطـلُ

وهذا الأدب القرآني ـ وهو القول الميسور ـ ليس مقتصراً على الجواد بماله، وإنما هو شاملٌ لكل من يمتلك خصلةً من خصال الجواد من جاهٍ، أو علمٍ، أو رأيٍ، أو غير ذلك.

كما أنه شاملٌ لمن كان معلماً، أو موظفاً، أو مسؤولاً في أي نوعٍ من أنواع المسؤولية التي يستطيع من خلالها تقديم النفع.

القلوب الطاهرة

القلوب الطاهرة قلوب زكت، وانطوت على البر، ومحبة الخير، والرغبة في الإحسان، والسلامة من الغلِّ، والحسد، والأضغان؛ فهي قلوب عامرة بمعاني الطُّهر، والفضيلة، مُزْهَرةٌ بما حَبَاها الله من الصفاء، والنقاء.

وهذه الصفات الرفيعة الشأن تظهر على وجوه أصحابها، وعلى ما تَفُوْه به ألسنتهم، على حدِّ قول ابن الرومي:

وقلَّ من ضمنت خيراً طَوِيَّتُه ... إلا وفي وجهه للبشر عنوان

وقول الشافعي:

وعلى الفتى لطباعه ... سمة تلوح على جبينه

وإذا رُزق العبد قلباً كتلك القلوب الطاهرة فقد أوتي حظًّا عظيماً، ونعمة كبرى.

وإذا وفِّق لصحبةٍ تحمل تلك القلوب فذلك من تمام النعمة، ومن أعظم زينة الحياة الدنيا.

ولا يظن ظانٌّ أن أصحاب تلك القلوب قد فُقدوا، وأن الدنيا قد خَلَتْ منهم؛ فلا يُرَى إلا قلوبٌ منطويةٌ على الشر، ومحبته، وإيثاره، وتمني البلاء والشقاء للناس.

ومن ظنَّ مثل ذلك فقد اقترف إثماً، وظَنَّ ظنَّ السوءِ، و (من قال: هلك الناس فهو أَهْلَكُهم).

فأصحاب تلك القلوب الطاهرة موجودون ـ ولله الحمد ـ ولا تخلو دنيا الناس من أولئك.

وأعرف ، ويعرف غيري الكثير من أولئك.

وَدَعْني ـ أيها القارئ الكريم ـ أضرب لك مثالاً من أمثلةٍ كثيرةٍ وقفتُ عليها لأفراد ، أو مجموعة تحمل تلك القلوب.

ففي يوم من الأيام زرت أحد الأصدقاء في أحد البلدان ممن هم على تلك الشاكلة ، وأقمت عنده يومين بمكانٍ له خارج البلد يستضيف فيه آخر الأسبوع أصدقاءه ، ومرتادي مجلسه.

ولاحظت أن وجوهَ أولئك الصحبِ مُشْرِقَةٌ ، وتحيتهم فيما بينهم حارَّة ، وأن احترامَ بعضِهم لبعض مَوْفُور ، وأن مزاحَهم فيما بينهم مُتميزٌ بالأريحية ، وأن خدمتهم لبعض ، وتواضعهم لبعض ظاهر.

ولاحظتُ أنه إذا قَدِم أحدُهم رحَّبوا به أحسنَ ترحيب ، وأَنَّ من يكون بجانبي منهم يذكر القادم بأحسن صفاته.

وإذا دار بينهم الحديث دار بكل أدب ، ولطف ، وذوق ـ وإن اختلفوا في بعض آرائهم ـ.

وقد طال عجبي من ذلك ، فظننت أن هذا من قبيل الندرة ، أو الاحتشام للضيف ، وليس هو دأْبهم.

وظننت ـ أيضاً ـ أنهم من ذوي التعليم اليسير ، أو أنهم من عامة الناس؛ لما رأيت من البساطة ، والراحة التي يشعر بها من ارتاد مجلسهم.

وكان معي صاحب ألمعيٌّ ، فسألته عما لاحظه على أولئك ـ فكان عجبه منهم لا يَقِلُّ من عجبي.

ولكن عجبي، وعجب صاحبي طال لما عَلِمْنا أنهم على درجة عالية من التعليم العالي، وأنهم ذوو تخصصات علمية كبيرة، وأن أغلبهم أساتذةُ جامعاتٍ كبارٌ، بل إن بعضهم من ذوي التخصصات النادرة، وقد تخصصوا بها من أكبر جامعات أوروبا، وأمريكا.

ومع ذلك تجدهم على هذا النحو من الطيبة، والرقي، والبساطة.

حينها لم أتمالك إخفاء ذلك الإعجاب الذي انتابني، فعبرت لهم عن إعجابي بهم، وحبٍّ بعضهم لبعض، وإنزالِ كلِّ واحدٍ منهم لصاحبه منزلته اللائقة به؛ فأجابني أحدهم قائلاً: أُبشِّرك أننا منذ سنوات ونحن على هذه العلاقة التي تزداد مع الأيام وثاقة، وأن مَنْ في هذا المجلس ـ ولا أزكيهم على الله ـ على درجة من الصفاء، **وطهارة القلوب**.

ثم قال: وأزيدك أن مجلسنا هذا قد يأتيه من الناس ممن ليسوا على تلك الأوصاف؛ فلا يلبث أن يجلس معنا أياماً، ثم يفارقنا إلى غير رجعة، وأننا ـ ولله الحمد ـ نعيش في نعيمٍ معجَّل، ونجد اشتياقاً لبعض، وحدباً على بعض، وأن مجلسنا هذا مُعِيْنٌ لنا على تكاليف الحياة، والتخفيف من لأوائها، وكثرة أعبائها.

وبعد أن ودَّعْتُهم مكثتُ أياماً وأنا أجد طعم تلك اللقاءاتِ العامرةِ بالود، المفعمة بصدق الإخاء.

وبعد؛ فهذا نموذج **لطهارة القلوب**، يشعرك بطيب الحياة، وسعتها، وينأى بك عما تسمعه من كلمات موحشة توحي إليك أن الحياة خراب يباب خالية من ذوي **القلوب الطاهرة** السعيدة المسعدة.

التفريط في المكاسب

هذه الحياة الدنيا، وما فيها من إمكانات، وخيرات ـ مليئة بالفرص التي يستطيع الإنسان من خلالها الحصول على مكاسب في نواحٍ شتى تعود عليه بالخير في دينه ودنياه.

ومن تلك المكاسب ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ما يحصل عليه الإنسان من مواهب دينية كزيادة إيمانه، وطمأنينة قلبه، وأنسه بربه ـ جل وعلا ـ.

ومن تلك المكاسب ما يحصل عليه في حياته من صداقات، وعلاقات، وارتباط بأناس هم من زينة الحياة الدنيا علماً، وعقلاً، وديانةً، ومروءةً.

ومنها ما يُفتح عليه من العلوم على اختلاف فنونها؛ فيكون جديراً بأن يعلو شأنه فيها.

ومنها ما يفتح عليه في باب التجارة، أو نحوها.

ومن تلك المكاسب ما يشعر به من عزة، وكرامة، وسلامة من الوقوف في مواقف الذل، والهون.

وقِسْ على هذه النبذة من المكاسب أموراً كثيرة جداً.

والذي يدير النظر في أحوال الناس إزاء ما يتيسر لهم من تلك المكاسب يرى أن كثيراً منهم لا يبالي بها، ولا يَقْدُرُها قدرها، ولا يرعاها حق رعايتها؛ فتطير منه، وربما ذهبت إلى غير رجعة؛ فتراه يخسر ما فتح عليه من أحوال إيمانية، ويفرط في علاقاته، وصداقاته، وفي كثير مما فتح عليه في نحو العلم، والتجارة عند أدنى سبب يعرض له، أو أقل عقبة تعترض سبيله.

وتلقاه لا يبالي بما كان عليه من كرامةٍ وعزةِ نَفْسٍ، فيتبوَّأ مقاعد للذل، والهُون بعد أن كان موفور الكرامة، عزيز الجناب.

ولا ريب أن هذا النوع من التفريط خلل عظيم يحسن بالعاقل أن يتفطن له، وأن يكون منه على بال، فيسعى جهده في أن يحافظ على ما حباه الله، وما فتح عليه من أبواب المكاسب؛ فيوفيها حقها من الرعاية، والتَّحوُّط؛ إذ هي من جملة النعم، والنعم يُستوجب شكْرُها، ويُستَنْكَر كنودُها؛ فإذا شُكرت دَرَّت وقَرَّت، وإذا كُفِرَت فَرَّت، وربما كان فرارها إلى غير رجعة.

ثم إذا حصل تقصير في أي شأن من تلك الشؤون فيحسن به أن يُتَدارك بالإصلاح، واستعادة ما فَرط من ذلك قدر المستطاع.

حدود العلاقة

معرفة حدود العلاقة مع أَيِّ أحدٍ كائناً من كان تحتاج إلى دَرَبَة، وفطنة مستيقظة، وألمعية مهذبة.

والتفريط في هذا الجانب يحدث شرخاً في العلاقات.

ومهما كانت وثاقة العلاقة مع قريب، أو صديق، أو زميل، أو رئيس، أو مرؤوس، أو تلميذ، أو أستاذ ـ فهناك حدود لا ينبغي تجاوُزها بحال من الأحوال.

وهذا الأمر يتفاوت، ويحتاج إلى مراعاة، وحسن تقدير؛ لذا كان من الأهمية بمكان أن يدرك العاقل حدودَ العلاقة، وأنها تختلف من شخص إلى شخص، ومن حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام.

وحقيقٌ عليه أن يتفطن لحدود دَالَّتِهِ، وإسقاطه الكلفةَ فيما بينه وبين من تربطه به علاقة؛ فقد يليق ـ على سبيل المثال ـ بالمعلم، أو الوالد، أو الكبير أن يمازحَ تلميذه، أو ولده، أو من دونه في المقام ـ بنوع مزاح؛ فهل يليق بالتلميذ، أو الولد، أو الصغير في سنِّه، أو قدره أن يجاري من فوقه في مزاحه، أو نحو ذلك؟.

لا شك أن ذلك يحتاج إلى تقدير الموقف، و معرفة ما يليق من ذلك، وما لا يليق.

وقُلْ مثل ذلك في العلاقات الخاصة؛ فقد يُغتفر لك أن تعامل صاحبك فيما بينك وبينه معاملة تُرفع فيها الكلفة.

ولكن ذلك لا يعني أن يكون ذلك بمحضر من الناس، أو أمام من يظنون أنك بذلك تسقط هيبته، وتنزل من مقامه.

وكذلك قد تطلب من إنسانٍ طلباً معيناً، أو تشفع عنده أي نوع من الشفاعة دون أن يكون لك وزن، أو مقدار عنده.

ومن هنا قد يُرد طلبك، أو شفاعتك، لا لشيء إلا أن مثلك لا يصلح أن يقوم بهذه المهمة عند ذلك الشخص.

ومن هنا توقع نفسك في الحرج؛ حيث تضعها في موقفٍ لا ينبغي لك أن تَقِفَه.

وقِسْ على هذه الأمثلة كثيراً مما يدور في هذا الفلك.

وبالجملة فإن حدود العلاقة، ومقاديرها يختلف من جهة من تربطك به علاقة، وأن تلك الحدود تختلف من جهة متانة تلك العلاقة، ومن جهة أصحابها، وما يليق بكل واحدٍ منهم، ومن جهة معرفة طبائع النفوس، ومقتضيات الأحوال، وأحوال الأشخاص.

ومَنْ أَحْكَم تلك السياسة؛ فعلم ما لَه، وما عليه، وعمل بذلك المقتضى - أراح، واستراح، وحافظ على علاقاته، وأبقى قدره وافراً غير مكلوم.

أدب السؤال وذوقه

أدب السؤال وذوقه، وملاءمتُه ـ توفيق، وموهبة ربانية، وقد تحصل بالمران، وملاحظة سير الأكابر.

ومن فاته ذلك فاته خير كثير، وفُتح عليه بابُ شَرٍّ مستطير.

ومراعاة ذلك الأدب شامل للسائل والمسؤول؛ ذلك أن الناسَ يختلفون في رغبتهم في الأسئلة من عدمها؛ فبعضهم قد يرغب في أن تسأله عن أمرٍ ما، وأن تستفصل عنه فيه، وقد لا يرغب أن تسأله في أمرٍ غيره.

وبعضهم لا يُحبذ أن يُسأل عن أي يخصه شأن من شؤونه، بل تراه يضيق ذرعاً عندما يسأله أحد عن أي شيء ولو كان يسيراً.

وبعضهم لا يكره أن يُسأل بمفرده، ولكنه يتضايق كثيراً إذا سئل بمحضر جمع من الناس.

ومن الناس من لا يراعي هذه الأحوال؛ فتراه لا يأنف ـ بسبب كثافة طبعه ـ من كثرة الأسئلة، ولا يبالي في إدخال الغمِّ على المسؤول، ولا يتحرج من السؤال عما لا يعنيه.

وبعضهم يسأل غيره عن أمور معينة، ولو سألوه عن مثل ما سألهم لما أجاب، ولربما غضب.

لذا كان حريًّا بالعاقل أن يراعي جانب **الذوق والحكمة في السؤال**؛ فيعرف متى يسأل، وعمَّ يسأل، ومتى يؤجل السؤال، ومتى يسترسل فيه، ومتى يُقْصِر عنه.

ولهذا جاءت نصوص الشرع بمراعاة حال السؤال؛ فنهت عن كثرة السؤال، وحذّرت من الأسئلة التي تجر شراً على الإنسان.

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾.

وقال النبي ﷺ: «**ويكره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال**». رواه مسلم.

ويذكر لنا التاريخ شذراتٍ من هذا القبيل لأناس لم يراعوا جانب الذوق في السؤال؛ فكانوا عرضة للذم، وغرضاً لسهام الأجوبة المُسْكِتة المُبَكِّتة.

قال ابن عبدالبر رحمه الله: «قال تميم بن نصر بن سيار لأعرابي: هل أصابتك تخمة؟

قال: أما من طعامك فلا!».

وقال ابنُ رَشِيْقٍ القيرواني في العمدة: «كان الفرزدق ينشد مرةً، والكميت ـالشاعرـ صبيٌّ؛ فأجاد الاستماع إليه، فقال: يا بني! أيسُرُّك أني أبوك؟

قال: أما أبي فلا أرى به بدلاً، ولكن يسرني أنك أمي؛ فأفحمه، حتى غصَّ بريقه».

قال الحكيم العربي:

وَدَعِ السؤالَ عن الأمور وبحثها فَلَرُبَّ حافرِ حُفْرةٍ هو يُصْرَعُ

ولا يعني ذلك ألا يَسأل الإنسان صاحبه عن شيء؛ فتكون لقاءاته بأحبته باردة باهتة.

قال الحكيم العربي:

كيف أصبحت كيف أمسيت مما يورث الود في فؤاد الكريم

وإنما المقصود أن يراعي ما مضى من أحوال؛ فيرتقي بأسئلته؛ فيسأل عما يعني، ويفيد، ويسعد، ويتجافى عما يضر، ويحزن، ولا يجدي نفعاً، ويراعي مقتضى الحال، والزمان، والمكان، والأشخاص.

وبذلك يسلم من الحرج، وجرح الإحساسات، ويحفظ على نفسه كرامتها، وعزتها، ويسلم مما يجره عليه فضولُ الأسئلة، وما لا يليق منها.

﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾
ـ أنموذج من هذا القبيل ـ

هذا العنوان جزء من آية في سورة البقرة، وهي تدور حول صنفٍ من أصناف الفقراء.

والكلام ههنا لن يكون حول تفسير هذه الآية عموماً، وإنما هو مستوحىً من هذا الجزء منها.

ومعنى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾: أي لا يلحون في المسألة، ولا يسألون الناس ما لا يحتاجون إليه؛ فإن من سأل وله ما يغنيه فقد ألحف في المسألة ـكما يقول المفسرونـ.

ومن كانت هذه حاله ممن لا يسأل الناس إلحافاً ـ فالله كافيه، ومعينه؛ إذ الرزق لا يجره حرص حريص.

وكثير من الناس يغيب عنهم هذا المعنى؛ فتجد من يطلب فوق حاجته، وتراه لا يحسن تدبير ما بيده من المال؛ فكلما وقع بيده شيء منه بدَّدَه في أمور تحسينية لا يحتاج إليها.

وإذا خلت يده من المال صار يتكفف الناس، ويعرض نفسه للإلحاف، ومذلة السؤال.

ولو أنه أحكم سياسة المال لكفاه القليل منه، ولصار يدبر أموره على وَفق ما عنده.

قليل المال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد

هذا وأعرف رجلاً يعد ـ في الحقيقة ـ أنموذجاً من هذا القبيل؛ فهو رجلٌ من عامة الناس، وكان يعمل في وظيفةٍ مَّا، ويحسن صنعةً معينة يكسب من خلالها ما يكسب من المال.

وكان رجلاً دَيِّناً عاقلاً سليم الصدر حسن النية، قانعاً بما قسم الله، سعيداً بأسرته، وهم سعداءُ به.

ولما وصل سن الستين تقاعد عن العمل بحسب النظام، وصار له راتب تقاعدي ضئيل جداً لا يفي بحاجاته، وربما قَصُرَ في بعض الأحيان عن حاجاته الضرورية.

وكان له زوجة عاقلة مواتية لا تكلّفه فوق طاقته، وإنما هي عاذرة له، راضيةً بما يأتي منه، محسنةً تدبير أمور منزله.

ولهذا الرجل أحوال عجيبة من الرضا، وتدبير المعيشة؛ فمن أجلى أحواله أنه لا يسأل الناس إلحافاً، وما جاء من المال عفواً أكثر من شكر الله، وَمِنْ شُكْرِ من أسدى إليه شيئاً منه.

وإذا كان في مجلسٍ مَّا، وذكر فيه ذو حاجة وهو يعرفه صار يذكر حاجة ذلك الرجل، ويذكر من مناقبه ما يذكر، ويبين مدى عوزه وحاجته، والدَّيْن الذي ركبه دون أن يجد في نفسه أدنى غضاضة، ودون أن يبالي بمقدار ما يعطى صاحب الحاجة، ولو كان هو أحوج منه.

وأذكر في يوم من الأيام أن فرجت كربة لأحد من ذكره بسببه؛ فكان فرحه بما حصل لصاحبه أكثر من فرحه بما يأتيه هو من المال.

ومن أحوال ذلك الرجل أن تكون له الحاجة أحياناً في شراء شيءٍ ما؛ فيذهب إلى صرافة النقود؛ فيضع البطاقة، فيكتشف أن ليس في رصيده أي مبلغ؛ فينصرف عن شراء تلك الحاجة بنفس راضية، ولسان حاله كما يقول محمود الوراق:

وإذا غـــلا شـــيءٌ علـــيَّ تركتـــه فيكـون أرخـص مـا يكـون إذا غـلا

وكان له بنون وبنات وبعضهم متزوجون، وبعضهم صغار عنده في البيت.

وإذا طلب منه بعض أولاده طلبات وهو لا يجد أخبرهم أن اصبروا فإذا رزقني الله فأبشروا، فلا يلبث أن تفرج كربته، وله في ذلك أخبارٌ يطول منها العجب.

ومن عجيب أخباره أنه يفاجئ أحياناً بالمال ينزل في حسابه دون أن يدري، ولهذا الخبر قصة، ومفادها أن لصاحبنا هذا قريباً يتفق اسمه معه ثلاثياً من ناحية اسمه واسم أبيه وجده.

ولكن قريبه كان عكسه تماماً؛ حيث كان ملحاحاً مزعجاً؛ لا يكاد يصبر إذا احتاج شيئاً، ولا يحسن تدبير المال.

وقد أفاد بذلك الخبر من يعرف الاثنين تماماً.

ويضيف -وهو الشاهد ههنا- قائلاً: «في بعض الأحيان يلح عليَّ قَريبُ صاحبِنا بالطلب، ويكثر الاتصال، والارسال، ويفيد بشدة حاجته، وضرورة الإسراع في رفده؛ مما يضجرني كثيراً.

وأحياناً أعلم أنه محتاج حقيقةً فأرسل له المبلغ عبر حسابه؛ فأفاجأ بأن صاحبنا الأول قد أرسل إلي رسالة شكر ودعاء على ما وصله من المال عبر حسابه، فإذا انتبهت وجدت أنني أرسلت إليه ولم أرسل إلى قريبه الملحاح؛ هذا يصيد وهذا يأكل السمكة.

أســـــلمي أم خالـــــدٍ رُبَّ ســـــاعٍ لقاعـــــد

فما يكون مني إلا أن أعجب من شأن الرزق، وكيف يسوقه الله إلى صاحبه، ثم أرسل إلى ذلك الملحاح ما كنت أريد إرساله إليه».

وإذا نظرتَ في سيرة صاحبنا الأول وجدت أنه يعيش في هناءة، وسعادة ورضا.

بل تراه يحسن لأناس كثيرين؛ فتراه يحسن إلى جيرانه، وتراه يتفقد أحوال كثير من المساكين، ويقوم بقضاء حوائجهم، وتراه واصلاً لأرحامه زَوَّاراً لأصحابه وأصحاب والده قائماً بما افترضه الله عليه؛ فيقضي سحابة يومه بأعمال طيبة، وبنفس راضية مطمئنة، وبحسن ظنٍّ بمن له خزائن السماوات والأرض، وبمن بيده ملكوت كل شيء.

ومثل هذا الصنف نادر في الناس، وإذا ظفر به الموسر، أو الدال على الخير - فلا يحسن أن يغفل عنه؛ إذ هو محل للمعروف، ومظنة لإيقاع الخير موقعه.

﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾

هذا العنوان جزء من آية من سورة الحجرات، وهي سورة مقصودها الإرشاد إلى مكارم الأخلاق؛ حيث احتوت على جملة كبيرة منها.

والآية بتمامها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

والمراد بالذَّكر والأنثى: آدم، وحواء ـ عليهما السلام ـ.

فالناس جميعاً ينتسبون إلى أصل واحد، ويجمعهم وعاء واحد.

وما دام الأمر كذلك فلا وجه للتفاخر بالأحساب، والأنساب.

والشعوب جمع شعب، وهو العدد الكثير من الناس يجمعهم أصل واحد.

والقبائل جمع قبيلة، وتمثل جزءًا من الشعب؛ إذ الشعب مجموعة قبائل.

ثم بيَّن ـعز وجلـ الحكمة من ذلك فقال: ﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾: أي ليعرف بعضكم بعضاً، فينتسب كل فرد إلى آبائه، وتتعاونوا على البر والتقوى، لا ليتفاخر بعضكم على بعض بحسبه، أو نسبه، أو جاهه.

ولهذا عقب ـجل ثناؤهـ بقوله: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾: أي أرفعكم منزلة عند الله هو أكثركم تقوى، وخشية من الله ـتعالىـ فإذا تفاخرتم ففاخروا بالتقوى والعمل الصالح.

والحاصل أنه إذا تقرر كونهم متساوين في أصل الخلق فإن الشأن ألا يَفْضُلَ بعضهم بعضاً إلا بالكمال النفساني الذي يرضاه الله ـعز وجلـ والذي جعل التقوى وسيلته.

والمقصود في هذا المقام هو الكلام على قوله ـتعالىـ: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ فالتعارف مقصد شرعي، ومطلب اجتماعي؛ إذ لو استقل كل واحد من الناس بنفسه لم يحصل ذلك التعارف الذي يترتب عليه ضروب المنافع والمصالح من نحو التناصر، والتعاون، والمصاهرات، والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، وما جرى مجرى ذلك مما يعين على تكاليف الحياة.

ولو أرجعت البصر في حياة الناس لرأيت أن أكثر مصالح الناس، ومنافعهم إنما كانت بسبب التعارف.

ولو سألت فلاناً أو فلاناً ممن أنعم الله عليهم بشتى النعم من نحو المال، أو الجاه، أو العلم عن سبب ما هو عليه من ذلك ـ لربما بادرك بأن ذلك بسبب التعرف على فلان أو فلان.

وهذا مما يؤكد ـمن حيث الأصلـ أهمية التعارف بين الناس أفراداً، وقبائل، وشعوباً، ودُوَلاً.

ثم إن التعارف يقتضي أن يُعَرِّف الناس بعضهم ببعض، وهذا الشأن يتفاوت فيه الناس؛ إذ منهم من يُعَرِّف فضلاء وأكابر، ونبلاء، وأهل علم على أمثالهم؛ فيترتب على ذلك خير عظيم، ونفع عميم.

ومنهم من يعرف أصحاب مصالح على أمثالهم، فيترتب على ذلك تعاون، وتعاضد، وزيادة مال، ونحو ذلك.

وأمثال هذا التعريف إذا أُحْضِرت فيه النية كان مما تنال به الدرجات العالية؛ إذ هو من قبيل الدلالة على الخير، والدال على الخير كفاعله.

وفي مقابل ذلك تجد من يُعَرِّف الأشرار على الأشرار، والمفسدين على المفسدين؛ فيترتب على ذلك ما يترتب من الشر والفساد، والآثام التي تجري على أصحابها بتجدد وزرها عليهم.

وبناءًا على ما مضى فإنه يحسن بالعاقل الذي يريد الخير لنفسه، وغيره، ويرجو رحمة ربه، وزيادة أجوره ـ أن يحرص على أن يكون له نصيبٌ من تعريف من يترتب على تعرفهم ببعض مصالح دينية ودنيوية، وأن ينأى بنفسه عن تعريف من يترتب على تَعَرُّفِ بعضهم ببعض مفاسد، وشرور.

ثم إذا وفق الله الإنسان لأن يُعَرِّفَ شخصاً فاضلاً على آخر مثله، ثم ترتب على تلك المعرفة ما ترتب من الخيرات والمصالح ـ فلا يعني أن يكون ذلك التعريف سبباً للمنة، والإدلال، وربما الإذلال من قبل المُعَرِّف؛ بحيث يقول: أنا الذي عَرَّفت فلاناً على فلان.

أو تراه يريد منهما ألا يزور أحدهما الآخر إلا بإذنه، وبعلمه، وإذا حصل خلاف ذلك غضب، أو هجر.

أو تراه إذا رأى مَنْ عَرَّف بعضهم على بعض وقد توطدت صلتهما، أو عظمت مصالحهما ـ يَكْبُر عليه ذلك، ويحاول توهين تلك العلاقة، أو بَتَّ حبالها.

وَقِسْ على هذه النبذة الكثير الكثير من تلك الآفات في هذا الباب.

والحقيقة أن الأمر أهون من ذلك، وبإمكان من كان هذا شأنه؛ بحيث يوفق لتعريف الأفاضل بعضهم ببعض ـ أن يكون أشرف نفساً، وأبعد همةً، وأطول بالاً.

وذلك بأن يستشعر ما له من الأجر إن هو احتسب ذلك، وأن يفرح بأن كان سبباً لتلك الصلة الطيبة، وأن يستحضر بأنهما لن ينسيا له ذلك الجميل إن كانا من أهل الفضل.

وإن كانت الأخرى، فصار مناناً مُدِلاً فإنه سيضيِّع أجره، ويخسر قيمته، و:

شر المواهب ما تجود به ... من غير محمدةٍ ولا أجر

ثم إن على من عرَّفه أحد من الناس على آخر، فترتب على تلك المعرفة ما ترتب من الخير الديني والدنيوي ألا ينسى من كان السبب في ذلك؛ بحيث يذكره بالخير، ويعترف له بالفضل، ويفيده بما يستطيع من جاهٍ، أو مالٍ، أو علمٍ خصوصاً إذا كان ما حصل عليه من ذلك الخير بسبب ذلك التعريف، وكان المُعَرِّف بحاجة إلى أي نوعٍ من أنواع البر والإحسان.

ولكن ذلك ليس بحتم لازم، ولكنه نوع تكرُّمٍ، وحفظٍ للجميل.

هذا وإن من الآفات في ذلك الشأن أن ترى بعض من عَرَّف إنساناً على صاحب مالٍ، ثم كان بين المتعارفين ما بينهما من المصالح رأى ذلك المعرِّف أن له نصيباً مفروضاً من ذلك؛ بحيث إذا باعا بيعةً مَّا، عقاراً كان أو غيره رأى أن من حقه أن يعطى شيئاً من ذلك، وهكذا...

ومن تلك الآفات أن يأتي شخصٌ لزيارة صديقٍ، أو قريبٍ، أو وجيهٍ؛ فيصطحب معه إنساناً في تلك الزيارة؛ فيعرِّف مَنْ صحبه بِمَزُوْرِه؛ فترى ذلك الصاحب قد صار يتردد على ذلك المَزُوْر، وربما طلب منه طلباتٍ محرجة؛ بحجة أنه صاحبٌ لصديقه.

ويزداد الحرج إذا كان الصديق الأول لا يعلم شيئاً من ذلك؛ فترى ذلك الذي تُعُرِّف عليه أخيراً يلبي بعض تلك الطلبات المحرجة؛ تقديراً لصديقه.

ومن الآفات في ذلك قلة المبالاة بالتعرف على من لابد للإنسان من مخالطتهم في عمل، أو دراسة، أو تدريس؛ فترى بعض الناس يزامل طلاباً فضلاء عدة سنوات، ولا يحرص على التعرف عليهم.

وترى بعضهم يدرس طلاباً عدة فصول دراسية، ولا تراه يحاول معرفة أسمائهم.

وذلك نوع جفاء؛ إذ لو تعرف عليهم لتوطدت العلاقة، ولكان درسه أكثر نشاطاً، وفائدةً، ومتعةً.

وترى بعضهم يعمل في دائرةٍ ما، ومعه زملاء كثر، فلا يحرص على التعرف عليهم؛ فيخسر بذلك تعاونهم معه، وتخففه من بعض أعباء عمله.

ومن ذلك ما تراه بين الجيران، حيث تستمر الجيرة بين بعضهم سنوات عدة، وربما كان باب أحدهم مقابلاً باب الآخر، أو ملاصقاً له؛ ومع ذلك لا ترى بعضهم يعرف بعضاً؛ فمن الجميل في ذلك أن يحرصوا على تعرف بعضهم ببعض؛ فذلك أعظم لأجورهم، وأعون لهم على القيام بمصالحهم.

وكذلك الحال بالنسبة للتعرف على الضيوف، وتعريف بعضهم على بعض، واستعلامهم عن أسمائهم.

وذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص؛ فقد يَجْمُل أن يُعَرَّف الضيوف بعضهم ببعض، وأن يُقرنَ ذلك بذكر بلدانهم، وألقابهم العلمية، أو الوظيفية مع ذكر بعض مآثرهم، وما يُقَرِّب بعضهم من بعض؛ فذلك مما يزيل الوحشة، ويقود إلى التئام مجلس الضيافة.

ولقد كان من أدب نبينا محمد ﷺ أن يستعلم من يقدمون إليه عن أسمائهم، كأن يقول: من القوم؟ أو أن يسأل عن أسمائهم.

جاء في صحيح مسلم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ لقي ركباً بالرَّوحاء، فقال: «**من القوم؟**» قالوا: المسلمون، فقالوا: من أنت؟ قال: «**رسول الله**».

وفي صحيح البخاري عن المسيب عن أبيه أن أباه جاء إلى النبي ﷺ فقال: «**ما اسمك؟**» قال: حَزَن، قال: «**أنت سهل**».

قال ابن المسيب: فما زالت الحزونة فينا بعد.

وفي سنن أبي داود عن أسامة بن أَخْدَرِيٍّ رضي الله عنه أن رجلاً يقال له: أحدم، كان من النفر الذين أتوا رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «**ما اسمك؟**» قال: أنا أحدم، قال: «**بل أنت زرعة**».

وجاء في سنن الترمذي عن يزيد بن نعامة الضَّبِّي قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا آخى الرجلُ الرجلَ فليسألْه عن اسمه، واسم أبيه، وممن هو؛ فإنه أوصل للمودة**».

فاستعلام الضيف عن اسمه مما يشعره بالاهتمام، ومما يزيد في الصلة والمودة.

بل مما يزيدها أن يسأله من أين هو، وما بلده؛ فإن في ذلك مزيدَ قُرْبٍ، وأنسٍ.

ولا يُعْدَمُ الكريمُ أن يجد من غضون ذلك التعريف ما يكون مادةً لزيادةِ المعرفة، والصلة.

وكان سماحة شيخنا ابن باز رحمه الله **يستعلم أضيافه عن أسمائهم**، ويسألهم عن أخبارهم، وأحوال بلدانهم، ومن وراءهم من أهل العلم والدعوة.

وفي بعض الأحيان قد لا يَحْسُن تعريف بعض الضيوفِ ببعض؛ إذ قد يكون من بينهم مَنْ هُمْ متناكرون، ولا يعرف بعضهم بعضاً إلا بالذكر، فَيُخْشَى إن

علم أحدٌ من المتناكرين بوجود الآخر أن يخرج من المجلس، أو يحدث في نظامه خللاً؛ خصوصاً إذا كان أرعن الطبع، ويُخشى سوء بادرته.

وقد تَضْطَر الحالُ الرجلَ أن ينزل ضيفاً على أحدٍ في بريَّة، أو نحوها، وهو يريد طعاماً، أو ماءً، أو مَبِيْتاً؛ فلا يرغب أن يُعرف اسمه، أو يرى أن من الجفاء أن يُسْأَلَ عنه؛ فيحسن -والحال هذه- ألا يُسْأل عن اسمه، ومن أين أتى إلا إذا خُشي أن وراءه ما وراءه من الشر، أو الفتنة.

وعلى هذا -أي على ترك الاستعلام عن الاسم- يحمل قول الشاعر:

سلي الطارقَ المُعْتَرَّ يا أمَّ مالكٍ ... إذا ما أتاني بين قِدْري ومجزري

أيسفر وجهي أنه أول القرى ... وأبذل معروفي له دون منكري

قال الخطيب التبريزي في شرح البيتين: «قوله: (**بين قِدْري ومجزري**): يريد إذا أتاني في موضع الضيافة أعطيه لحماً نيًّا، وذلك من المجزر، وإما مطبوخاً، وذلك من القدر.

ومعنى قوله: (**إنه أول القرى**): يريد أن إظهار البشاشة للضيف من أوائل قِراه.

وقال النميري: **المعروف** هنا: القِرى، والإيناس، وما شاكلهما.

والمنكر ههنا: أن يسأل الضيف عن اسمه، ونسبه، وبلده، ومقعده، وكل هذا مما يجلب عليه حَيَاءه».

ومن جميل التعرف: التعرف بالزيارة، أو عبر الرسالة، أو المهاتفة، أو إرسال السلام، أو الهدية؛ فقد تسمع عن إنسان ولم تره، ولم تَلْقَهُ من قبل؛ لما بلغك من فضله، ونبله، وعلمه؛

..... **والأذن تعشق قبل العين أحيانا**

وكم من محبٍّ قد أحب وما رأى وعشقُ الفتى بالسمع مرتبةٌ أخرى

فترغب بعد ذلك بالتعرف عليه، ومواصلته من خلال ما مضى من السبل؛ فتشعره بمحبتك له، واغتباطك بفضله، وفرحك بما تسمع عنه من مآثر، وما يصدر منه من خير؛ وأن ذلك حَمَلَكَ على الرغبة في التعرف عليه، فذلك من دواعي السرور، ومما ينمي العواطف النبيلة، والصداقات الفاضلة.

ومن جميل ما يذكر في هذا السياق ما حدثني به أحد الأصدقاء أن صديقاً له -وقد سمَّاه لي- كان يسكن الرياض، وأنه في حوالي عام ١٤٠٢هـ كان يسمع بشيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين، وذلك قبل أن ينتشر صيته أكثر وأكثر، وأنه رغب في زيارة الشيخ في مدينة عنيزة، وهو لا يعرفه، ولم يره من قبل.

يقول: فذهب إلى مطار الرياض، وركب الطائرة قاصداً مطار القصيم لزيارة الشيخ، ولما أخذ مكانه في الطائرة جلس بجانبه راكب، ثم تجاذبا أطراف الحديث، وسأله ذلك الراكب عن سبب قدومه إلى القصيم، فقال: إنني لم أذهب لأي عمل سوى أنني أحببت الشيخ محمد بن عثيمين في الله؛ لما أسمع عنه من الأخبار الطيبة، والحرص على نشر العلم؛ فرغبت في زيارته والسلام عليه.

فقال له ذلك الراكب: وهل تعرفه من قبل؟ فقال: لا.

ثم صارا بعد ذلك يتحدثان إلى أن هبطت الطائرة في مطار القصيم.

ولما هَمَّ ذلك الرجل بتوديع صاحبه قال له ذلك الصاحب: هل تعرف منزل ابن عثيمين؟ فقال: لا، ولكنني سأسأل إلى أن أجده، فقال له: هيا معي؛ لأدلك على منزله.

يقول: ولما وصلنا قال: أنا ابن عثيمين، فتفضل على الرحب والسعة، وأنا شاكر لك هذه الزيارة التي أسعدتني كثيرًا.

ولقد كان من دأب شيخنا الإمام عبدالعزيز بن باز ﷺ الحرص على التعرف على أهل العلم في شتى البلدان، ويشهد له بذلك المكاتبات الكثيرة بينه وبين العلماء في سائر الأمصار.

ومن الأمثلة على ذلك مكاتبته للشيخ عبدالفتاح الإمام من علماء الشام؛ حيث كان الشيخ ابن باز يسمع به، فكاتبه، وأبلغه تحياته، وأشواقه، ورغبته بالتعرف عليه.

وقد ضمَّن ذلك الكتاب سؤالاً عمن يعرفهم الشيخ من أهل العلم في الشام كالشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني وغيره -رحمهم الله-.

وهذا نص ذلك الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالعزيز بن عبدالله بن باز إلى حضرة الأخ المكرم، والعلامة الفاضل الداعي إلى الله - سبحانه - الشيخ عبدالفتاح الإمام وفقه الله لما يرضيه آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد فإني أحمد لكم الله الذي لا إله إلا هو على جميع نعمه، وأسأله -تعالى- أن يوزعني وإياكم شكرها، وأن يمن علينا جميعاً بالفقه في دينه، والقيام بحقه، والنصح له، ولعباده؛ إنه على كل شيء قدير.

ثم إني أشعر أخي المحبوب في الله أن الإخوان القادمين من طرفكم، وهم أبناؤكم محمود الجبَّان، والأخ صالح ضيف الله، والأخ محمد ناصر، والأخ عبدالله علوش وغيرهم - قد بلغوني كثيراً من صفاتكم الحميدة، وجهادكم المبارك؛ فسررت بذلك كثيراً، وشكرت الله عليه، ودَعَوتُه -سبحانه- لكم بالمزيد من التوفيق، والهداية، والنشاط في الدعوة إلى الحق؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

ثم قرأت لأول مرة بعض كتابكم الصغير حجماً، الكبير شأناً وقدراً الموسوم «المشكلات وجوابها» وبعض كتابكم الثاني العظيم الشأن الموسوم بـ: «حكم الإسلام» فأعجبت بهما كثيراً، وسَرَّني ما تضمناه من الدعوة إلى الإسلام، وبيان كثيرٍ من حكمه، وأسراره، وكثيرٍ من قواعده العظيمة، وتحدِّي العالمِ أجمع أن يأتوا بما يناقض ذلك؛ فأسأل الله أن يزيدكم من فضله، ويثبت أقدامكم على الحق، وأن ينفع عباده بكتبكم الجليلة النافعة، وأن يفسح في أجلكم على خير عمل؛ إنه سميع مجيب.

ونحن -يا أخي- في عصر قد استحكمت فيه غربة الإسلام، وقلَّ فيه ناصروه، والدعاة إليه، وكثر فيه أعداؤه والصادُّون عنه؛ فاغتنم يا محبُّ بقية حياتكم في الدعوة إلى الحق، واصبر وصابر، وأبشر بالذكر الجميل، والأجر الجزيل، والعاقبة الحميدة ما دمت على هذا النهج القويم، ثبتني الله وإياك، وسائر إخواننا على دينه حتى نلقاه -سبحانه-.

ولا يخفاكم الحديث الصحيح: «**من دل على خير فله مثل أجر فاعله**» والحديث الثاني: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً**» الحديث، والحديث الثالث: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث**» الحديث.

وقد اشتقت كثيراً إلى مؤلفاتكم؛ فأرجو إتحافي بها من كل نوع نسخة، وإذا كان عندكم منها جملة فأخبروني بها وبقيمتها حتى أسعى في تسديد قيمتها، وأخذها من فضيلتكم وتوزيعها بين الطلبة بطرفنا.

وقد أبلغني بعض الإخوان أن فضيلتكم قد جمع تفسيراً مختصراً، وترغبون طبعه؛ لينتفع به المسلمون، وهذا عمل مشكور، أجزل الله مثوبتكم عليه، وإذا

كنتم ترغبون طبعه كما بلغني، ورأيتم إرساله إلي؛ للإشراف عليه، والتوسط في طبعه بواسطة الشربتلي، أو الحكومة، أو غيرهما ـ فلا مانع من ذلك، بل أنا أحبذ ذلك؛ لما أرجو في ذلك من النفع لطلبة العلم.

والله المسؤول أن يجعلني وإياكم، وسائر إخواننا من المتعاونين على البر والتقوى، وأن يزيدنا جميعاً من العلم النافع والعمل به، وأن يمنَّ على الجميع بالصدق في معاملته، والاستقامة على دينه، والدعوة إليه على بصيرة؛ إنه جواد كريم.

وأرجو إبلاغ سلامي لمن حولكم من خواصِّ المشايخ والإخوان، وأخص منهم فضيلة أخينا ومحبوبنا في الله الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني، كما منا الأولاد، والمشايخ، والإخوان بخير وعافية.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

حرر في ١٣٧٧/٥/٢٥هـ».

فهذا مثالٌ من صنيعِ شيخنا المبارك، وأخبارُه في ذلك كثيرةٌ جداً يطول ذكرها، والمقام لا يتسع لذلك.

وقد ذكرت جملةً كبيرةً منها في كتاب (**الرسائل المتبادلة بين سماحة الشيخ ابن باز وأهل العلم**).

ومن جميل التعريف أن إذا تعرفت على فضلاء، وبعضهم لا يعرف بعضاً أن تذكر فضائل بعضهم عند بعض، وأن تحرص على تشويق بعضهم إلى لقاء بعض؛ فإذا سنحت لك الفرصة بتعريف بعضهم ببعض، ولقاء بعضهم ببعض بادرت إلى ذلك؛ فتكون أنت الرابطةَ بينهم؛ فتنال أجر تلك المعرفة، وما يترتب عليها من الآثار الحميدة.

ومن الأمثلة على ذلك ما جرى بين علامة الشام جمال الدين القاسمي، وعلامة العراق محمود شكري الآلوسي -رحمها الله- حيث انعقدت بينهما محبة ومودة، وحصل من جرائها تعاون على نشر كثير من كتب السلف، وكانت بينهما مكاتبات عدة، وقد أخرجها الصديق الشيخ المحقق محمد بن ناصر العجمي -حفظه الله-.

واستمرت تلك العلاقة بين أسرتيهما، وطلابهما بعد وفاتهما مع أنهما لم يريا بعضاً، وإنما كانت تلك العلاقة بسبب تلميذ نجيب فاضل من أهل عنيزة اسمه الشيخ عبدالعزيز السناني، وقد مات قبلهما بعد أن وطّد العلاقة بينهما عبر السلام، والذكر الحسن المتبادل.

ولما مات عام ١٣٢٧هـ استمرت العلاقة بين هذين العالمين إلى أن فارق الشيخ القاسمي الحياة عام ١٣٣٢هـ، وفارق الآلوسي الحياة عام ١٣٤٢هـ.

وكان مما يذكر في تلك الرسائلِ ذلك التلميذُ النجيبُ الذي كان سبباً في تلك المعرفة التي ترتب عليها خيرٌ عظيمٌ ساقه الله للعلامتين: القاسمي، والآلوسي ببركة ذلك التلميذ النجيب[1].

بل استمرت العلاقة بين الأسرتين، وطلاب الشيخين إلى يومنا هذا.

وبالجملة فإن التعارف حسن مطلوب، تؤيده مقاصد الشريعة، وتقتضيه طبيعة الناس، وله ثماره اليانعة، وآثاره الحميدة إذا كان سالماً من الآفات، والمكدرات.

---

(١) وقد كتبت عن تلك العلاقة، وذلك الكتاب مقالاً عنوانه (حمالة الورد) وهو موجود في كتابي (ومضات).

لواذع الأحبة

الأخوّةُ الحقة وفاء، وإيثار، ومودة، ورحمة، وتغاضٍ، وتغافر، وتذمم، ورعاية.

والذي يرغب من أحبته أن يكونوا كاملين لا نقص فيهم بوجهٍ من الوجوه - فقد رام مستحيلاً؛ فأي الرجال المهذب؟ ومن ذا الذي ترضى جميع سجاياه؟.

فالنفوس يعتريها ما يعتريها من التغير، والملالة، والسآمة، وتغير الأحوال، وطروء الأشغال، ومن ذا الذي يا عَزُّ لا يتغير؟.

فلا مناص - إذاً - من وقوع ما لا يُرْتَضى من الأحبة من نحو القوارص، والغفلات، والجفوات العارضة، وخُلف المواعيد، والخذلان في بعض المواقف، وما جرى مجرى ذلك من **لواذع الأحبة** التي هي أشبه بما يعتري الجسد من حرارة الجو، وبرودته.

والتعامل الأمثل مع تلك الأحوال هو توطين النفس على وقوعها، واحتمال ما ينشأ عن تلك **اللواذع** من الأذى، خصوصاً عند أول وقوعه، فذلك نوع من الصبر عند الصدمة الأولى، وهو أحمد ما يكون من الصبر.

وتَمَثُّلُ ذلك المعنى من عاجل الراحة، ومن دلائل سعة النفس، وكبر العقل.

فلا ضيرَ في ودٍّ تغاضيت فيه عن لـواذعَ يأتيها الصديقُ بلا عمدِ

ومن لم يوطن نفسه على ذلك المعنى كان حريًّا بضيق الصدر، وخسارة الأحبة.

يقال هذا لأن أكثر الناس لا يثبت على الود، ولا يسير على ما تقتضيه الأخوة الحقَّة، لا عن زهد بالصداقة، ولا ميلاً عن الود السالف.

وإنما هي الغفلات التي تعرض للأريب، والأحوال العارضة التي تنال نيلها من الصداقات، والعلاقات.

ومع ذلك فقد تظفر من الناس بمن هو مقيم على الود، لا تغيِّره الأحوال، ولا تقلبات الأيام؛ فحاله واحد في كل حال، إن لم يزدد قرباً منك لم يبعد عنك بعداً يصل إلى حدِّ إيصال اللواذع إليك.

وهذه حال ذوي النفوس المطمئنة، والأمزجة المعتدلة.

ومثل هذا الصنف قليل في الناس؛ فلا ينبغي أن يقاس عليه بقية الخلطاء، والأصدقاء، والمعارف؛ فَيُطْلَبَ من جميع أولئك أن يكونوا كحال ذلك الفذِّ الحافظ للود، البعيد عما يكدر الصفو؛ فليس ذلك من الكياسة، ولا حسن السياسة.

وإنما الواقعية تقتضي قبول أولئك على علاتهم؛ فذلك من الأخذ بالعفو الذي أمرنا الله به، وجَعَلَهُ معياراً لدوام الإلفة، وبقاء المودة ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

وهو ما يلوّح به قول النبيﷺ فيما رواه مسلم: «لا يفرك مؤمنٌ مؤمنةً؛ إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر».

فهذا الحديث وإن كان خاصًّا بمعاملة الزوج لزوجه هو ـ في الحقيقة ـ قاعدةٌ تصلح مع جميع المعامَلِين.

وهذا ما عناه الحكيم العربي:

اقبل من الناس ما تيسَّرْ وَدَعْ من الناس ما تعسَّرْ

فإنما الناس من زجاج إن لم تَرَفَّقْ به تكسَّرْ

ومن كانت هذه حاله استمتع بالحياة، وبالأصحاب، والمعارف، والخلطاء، وأمكنه النأي بنفسه من معرةِ التسخط، وكثرةِ العتاب، واليأسِ من خلوص المودات.

التألف والاستعداء

١ـ صاحب المشروع العظيم، والقلب الكبير يتألّف، ويتغاضى، ويصبر، ويحيِّد، وينظر في العواقب، ولا يستعدي، ولا يلجأ إلى الخيار الأشد إلا إذا أَعْيَتْه الحيلة.

٢ـ الصداقة الطويلة لا تنبت ولا تزدان إلا في صدور العظماء؛ استمرت صداقة العلامتين: محمد الخضر حسين ومحمد الطاهر بن عاشور إحدى وستين سنة؛ فرق بينهما الموت.

وكذلك صداقة الشيخين: عبدالله بن حميد، وعبدالعزيز بن باز؛ إذ لم يفرق بينهما إلا الموت.

٣ـ ظلمُ المخالفِ، ورميُه بما ليس فيه ـ مثلبةٌ يستطيعها كلُّ أحدٍ.

أما العدل معه، واحتواؤه، وتقريبه من الحق ـ فَدَأْبُ نفوسٍ أُشْرِبت الفضائل، وتخللت منها مسلك الروح.

وأما الإحسان إلى المخالف فمنزلة السابقين المقربين.

٤ـ بعضُ النفوس لديها قابليةٌ شديدةٌ للتشظي، والانشطار.

٥ـ كثير من الخلافات تبدأ بين اثنين أو أكثر، ثم لا تزال تنمو، وتتضخم.

ولو صار الحوار حولها في نطاق خاص لطويت قضايا لا تحصى كثرة.

٦ـ الفارس النبيل يلزم السكينة عند الانتصار والنجاح، ويجانب الشماتة والغرور.

وهو ـفي الوقت نفسهـ يقبل الخسارة بنفسٍ راضيةٍ، ويبحث عن فرصٍ أخرى للنجاح.

٧ـ من عجيب ما تراه من المفارقات أن تجد من يترفع عن السب وجرح المشاعر ولو بمحضر شخص واحد، ثم تراه لا يأنف من ذلك أمام الملأ عبر وسائل الإعلام.

٨ـ لا ينبغي للإنسان أن يجعل من وسائل التواصل الاجتماعي ميداناً لاحتقاناته، وتقلبات مزاجه.

٩ـ بعض الناس مولع بخسارة أحبابه وأصحابه وَلَعَ بعضِهم بزيادة القرب منهم، والمحافظة عليهم.

١٠ـ لا يندم العاقل على الكلمةِ الطيبة، والمبادرةِ النافعة، والعفو عن المسيء، والإعراض عن الجاهل، والتماس العذر للمخطىء.

١١ـ إذا اجتمع العقل، والعلم، والحلم، والإخلاص في بلد، أو عمل، أو مجموعة ـ كثر الصواب، وقلَّ الخلاف، وسما الذوق، وارتفع الشأن.

١٢ـ من البلاء على الإنسان أن يتبنى عداوات غيره؛ فإذا اصطلح المتعادون وقع في حرج:

كم صاحبٍ عاديته في صاحب فتصالحا وبقيت في الأعداء

١٣ـ ما تبذله في سبيل إصلاح ذات البين، وتأليف القلوب من تفكير، وحسنِ تأتٍّ، ومراعاةِ مشاعرَ؛ ابتغاءَ مرضاة الله ـ هو من أعظم أبواب الجهاد، ومضاعفة الثواب.

وَأْدُ العداوةِ والمظاهرةُ بها

الإنسان في هذه الدنيا لا ينفك عن مناوئ، أو حاسد، أو متربص على حد قول ابن الوردي:

ليس يخلو المرءُ منْ ضِدٍّ ولو ... حاول العزلةَ في رأسِ جَبَل

ويكثر ذلك في حقِّ من يتصدر، ويقوم بجلائل الأعمال، ويشار إليه بالبنان.

وليس الشأن في أن يُناوئ، أو يُحسد، أو يُتَرَبَّص به؛ فكل أحد عُرضة لذلك.

إنما الشأن كل الشأن في حسن تصرفه في مقابلةِ ما يصدر نحوه من إساءات.

والناس في ذلك ليسوا على سنة واحدة، وإنما هم أصناف متفاوتة؛ فمنهم من يظاهر بالعداوة لأدنى سبب، ومنهم يئد العداوات تلو العداوات؛ حتى لا يَبْقَى لها عينٌ ولا أثرٌ.

وهذا الصنف الأخير هم أهل العقل، والروية، وحسن التدبر للعواقب.

بخلاف من يظاهر بالعداوة، ويناوئ كل من خالفه، معتقداً أن ذلك مما تقتضيه الصراحةُ، وتركُ المواربةِ، آخذاً بشعار المثقّب العبدي:

فإما أن تكون أخي بحقٍّ ... فأعرف منك غَثّي من سميني

وإلا فاطّرحني واتخذني ... عدواً أتقيك وتتقيني

ولا ريب في خطأ من يجعل ذلك قانوناً عاماً في كل حال؛ إذ لو كان ذلك سائغاً، وقاعدةً مطردةً للزم أن يكون الناس ما بين صنفين لا ثالث لهما: إما إِخْوَةُ صدق، أو أعداء أَلِدَّاء.

وما ذلك بمسلك رشيد، ولا سديد؛ فما هكذا تورد الإبل؛ إذ بين ذينك الصنفين برازخ، ومُضْطَرَبٌ واسع.

وليس كلُّ حكمةٍ تقال تصلح لأن تكون قاعدة مطردة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ما لم تكن عن الله، أو عن رسوله ﷺ.

فإذا كان الحكيم العربي يقول ما يقول في بيتيه السالفين - فإن العليم الخبير بالعباد يقول: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾.

ويقول: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾.

فالحكمة -إذاً- تقتضي وأد العداوة، وترك المظاهرة بها، وذلك بالإعراض والتغاضي، والمداراة؛ فإذا بُلي الإنسان بأناس يقعون في عرضه، ويتنقَّصونه في غيبته، وعلم بصنيعهم - كان من جميل ما يصنع أن يتغافل، وألا يشعرهم بعلمه بما يقولون.

وإذا أدرك أن أحداً من الناس يتربص به الدوائر كان من الحكمة أن يَحْتَرِسَ منه دون أن يظاهره بالعداوة.

وكذا إذا بلي بمن يحاول جَرِّه إلى معارك صغيرة، أو معارك لا قبل له بها - كان من لطيف تدبيره أن ينأى بنفسه عن ذلك ما استطاع إليه سبيلاً.

وإذا حاول أحد أن يسعى لقطيعته، وصرم حبال وده - كان من حسن مداراته أن يتحامى ما يحدث نفرةً، أو قطيعةً.

وهذا الصنيع وما جرى مجراه يريحه من عقبات شَأْنه أن يصعد منها في عقبة ويهبط في أخرى، ويربحه مكاسب لا تخطر له ببال.

ومن أجلِّ تلك المكاسب: أن يسلم من مغبة ملاقاة الإساءة بمثلها، ويُفْرِغ قَلْبَه لما هو بصدده من الأعمال النافعة، ويستميل بذلك الصنيعِ قلبَ المناوئ، أو - في الأقل - يعمل على تحييده، وتقليل شره.

ومن تلك المكاسب التي يجنيها من جراء ذلك: المحافظة على الأحبة الذين بينك وبين ذلك المناوئ؛ بحيث تريحهم من امتحان مودتهم، وميلهم معك أو مع خصمك.

ثم إن النار تُذكى بالعودين؛ فإذا كانت من جهة واحدة كانت إلى الخمود أقرب منها إلى الاشتعال.

وهذا الصنيع ضرب من الحكمة، والمداراة المحمودة، وهو خيرٌ من المجاهرة والمظاهرة بالعداوة.

بل قد تَرْجِع بعدها العداوةُ إلى إلفة، والمناوأة إلى مسالمة.

أما من أبى إلا تحريك الكوامن، وإظهار العداوة عند أدنى سبب - فهو كَمَنْ يحرك عشَّ الدبابير، ويطعم النار جزل الحطب؛ فلا يلبث إلا وقد تناسل إليه الأعداء من كل حدب، واستعرت نيرانهم عليه من كل صوب؛ فلا يستطيع لهم حيلة، ولا يهتدي سبيلاً.

والناس قد يتعاشرون بالمعروفِ والمداراةِ ما دامت العداوة كامنة.

أما إذا حرِّكت فإن الخسارة ستلحق بجميع الأطراف.

وكما أن هذا الحال في شأن الأفراد هي كذلك في شأن المجموع شبراً بشبر، وذراعاً بذراع.

ولهذا جاءت وصايا الحكماء مثيرةً للأخذ بالتغاضي، والمداراة، محذرةً من مغبة المجاهرة، والمظاهرة بالعداوة.

ومن هؤلاء ابن الجوزي رحمه الله في كتابه (صيد الخاطر) حيث أبدى وأعاد حول هذا المعنى.

ومن ذلك قوله: «مما أفادتني تجارِبُ الزمان أنه لا ينبغي لأحد أن يظاهر

بالعداوة أحداً ما استطاع؛ لأنه ربما يحتاج إليه مهما كانت منزلته.

ولقد احتجتُ في عمري إلى ملاطفة أقوام ما خطر لي قطُّ وقوعُ الحاجةِ إلى التلطف بهم».

وقوله: «اعلم أن المظاهرة بالعداوة قد تجلب أذىً من حيث لا يعلم، لأن المظاهرَ بالعداوة كشاهر السيف ينتظر مضرباً، وقد يلوح منه مضربٌ خفيٌّ، وإن اجتهد المتدرِّع في ستر نفسه؛ فيغتنمه ذلك العدو.

فينبغي لمن عاش في الدنيا أن يجتهد في أن لا يظاهر بالعداوة أحداً؛ لما بيَّنْتُ من وقوع احتياج الخلق بعضهم إلى بعض، وإقدار بعضهم على ضرر بعض.

وهذا فصل مفيد، تَبِيْنُ فائدته للإنسان مع تقلب الزمان».

وقوله: «فإياك أن تساكن من آذيته، بل إن كان ولا بد فمن خارج، فما تؤمن الأحقاد».

وقوله: «ومن الخور إظهار العداوة للعدو».

وقوله: «ومن أحسن التدبير التلطف بالأعداء إلى أن يمكن كسر شوكتهم، ولو لم يمكن ذاك كان اللطف سبباً في كفِّ أكفِّهم عن الأذى، وفيهم من يستحي؛ لحسن فعلك؛ فيتغير قلبه لك».

وقوله: «من البله أن تبادر عدواً أو حاسداً بالمخاصمة.

وإنما ينبغي إن عرفت حاله أن تظهر مما يوجب السلامة بينكما، إن اعتذر قبلتَ وإن أخذ في الخُصومة صفحتَ، وأريته أن الأمر قريب، ثم تبطن الحذر منه؛ فلا تثق به في حال، وتتجافاه باطناً مع إظهار المخالطة في الظاهر.

فإن أردت أن تؤذيه فأول ما تؤذيه به إصلاحك واجتهادك فيما يرفعك.

ومن أعظم العقوبة له الصفح عنه لله.

وإن بالغ في السب فبالغ في الصفح تَنُبْ عنك العوامُّ في شتمه، ويحمدك العلماء على حلمك.

وما تؤذيه به من ذلك، وتورثه به من الكمد ظاهراً وغيره في الباطن أضعافٌ وخيرٌ مما تؤذيه به من كلمة إذا قلتها سمعت أضعافها.

ثم بالخصومة تُعَلِّمُهُ أنك عدوه، فيأخذ الحذر، ويبسط اللسان.

وبالصفح يجهل ما في باطنك، فيمكنك حينئذٍ أن تشتفي منه.

أما أن تلقاه بما يؤذي دينك فيكون هو الذي قد اشتفى منك، وما ظَفِر قط من ظفر به الإثم، بل الصفح الجميل.

وإنما يقع هذا ممن يرى أن تسليطه عليه: إما عقوبة لذنبٍ، أو لرفع درجةٍ، أو للابتلاءِ؛ فهو لا يرى الخصمَ، وإنما يرى القدر».

هذا ويذكر لنا التاريخ شذراتٍ من هذا القبيل ممن لم يظاهروا بالعداوة، وإنما حَكَّموا العقلَ والحكمةَ؛ فكانت عاقبتهم رشداً، وفلاحاً، وحسنَ أحدوثه.

ومن أعجب ذلك ما ذكر أبو حيان التوحيدي في كتابه (الصداقة والصديق) من خبر القاضي أبي حامد المَرُّوذي، وابن نصرويه.

قال أبو حيان: «كان بين القاضي أبي حامد المرُّوذي وبين ابن نصرويه العداوة الفاشية، والشحناء الظاهرة[1]، فكان إذا جرى ذكر ابن نصرويه أنشد:

وأبـى ظـاهرُ العـداوة إلا طغَيانـاً وقـولَ مـا لا يقـالُ

---

١ ـ هذه قصة عجيبة تؤكد الحكمة القائلة: إن العدو العاقل خير من الصديق الجاهل.

وكان يقول: والله إني بباطنه في عداوته أوثقُ مني بظاهر صداقة غيره، وذاك لعقله الذي هو أقوى زاجر له عن مساءتي، إلا فيما يدخل في باب المنافسة؛ ولهذا استمر أَمرُنا أربعين سنة، من غير فحاشة ولا شناعة، ولقد دعيتُ إلى الصلح فأبيتُ، فقلت: لا نحرك الساكن منا، فَلِقَدِيمِ العداوة بالعقل، والحفاظ من الذمام والحرمة ما ليس لحديث الصداقة بالتكلف والملق.

ولقد وقفني مرة على ضربة تأتت له عليَّ[1] كان فيها البوار كفَّ عنها، وأخذ بالحسنى، فأريته أختها، وكانت خافيةً عنده، فقال: لولا علمي بأنك تسبق إلى مثل هذه ما قابلتك بتلك، فقلت: هو والله ذاك.

ووالله لقد ضرني ناس كانوا ينتحلون مودتي، ويتبارون في صداقتي؛ لضعف نحائزهم[2] ولؤم غرائزهم.

ولقد ثبت لي هو في عداوته على عقل وتذمم، أفضيا بهما إلى سلامة الدين، والنفس، والحال.

وورد معز الدولة هذا المِصْر، فسأله عني سراً، فأثنى خيراً، وقال: ما قطَنَ مصرنا غريب أعظم بركة منه، وإنه لَجَمالُنا عند المباهاة، ومَفْزَعُنا عند الخلاف!

ولقد سألني معز الدولة عنه سراً، فأثنيت خيراً، وقلت: أيها الأمير، والله ما نشأت فتنةٌ في هذا المصر إلا وهو كان سبب زوالها، وإطفاء ثائرتها، وإعادة الحال إلى غضارتها ونضارتها!

فقال معز الدولة لأبي مخلد سراً: كيف الحال بينهما؟ ـ يعنينا ـ فقال: بينهما نُبوٌّ

---

١ ـ يعني أنه قد سنحت له فرصةٌ؛ يستطيع أن يتشفى من خلالها مني.

٢ ـ نحائز: جمع نحيزة، وهي الطبيعة.

لا ينادى وليدُه، وتعادٍ لا يلين أبداً شديدُه.

فقال: لئن كان كما تقول فإنهما ركنا هذا البلد، وعدَّتا هذا السواد، اجعلهما عينيَّ أبصر بهما أحوال الناس في هذا المكان، وأعوِّل عليهما في ما يريان ويشيران، فخلا بي أبو مخلد وبصاحبي، وتقدم إلينا عن صاحبه بما زادنا بصيرةً وتألفاً إلى هذه الغاية.

ثم قال أبو حامد: والله إن عداوة العاقل لألذُّ وأحلى من صداقة الجاهل؛ لأن الصديق الجاهل يتحاماك بعداوته، ويُهدي إليك فضل عقله ورأيه.

ومن فضل عداوة الجاهل أنك لا تستطيع مكاشفته حياءً منه، وإيثاراً للإرعاء عليه، ومن فضل عداوة العاقل أنك تقدر على مغالبته بكل ما يكون منه إليك.

ثم قال: وما أظن أنه كان فيما مضى إلى وقتنا هذا متصادقان على العقل والدين، مثل أبي بكر وعمر، ومن يتحرى أخبارهما، ويقفو آثارهما وقف على غورٍ بعيد، هذا مع العُنجهية المصحوبة أيام الجاهلية، والعَجْرفية المعتادة أوان الكفر، فلما أنار الله قلوبهما بالإيمان رجعا إلى عقل نصيح، ودين صحيح، وعرفان بالعرف والنكر، ونهوض بكل ثِقْل وخِف، وإني لأرحم الطاعن فيهما، والنائل منهما؛ لضعف عقله ودينه، وذهابه عما خصا به، وعَمَّا فيه، وميزا عنه، ورقيا إليه، واندفع في هذا وشبهه، وكان والله بليل الريق، يستحضر كيف شاء بالطويل والعريض، والجليل والدقيق» ا.هـ. ص٥٩ ـ ٦١.

ولئن كان ذلك مما يصلح مع كل أحد فلهو مع القرابة أولى، وأجمل، وأعظم، وأوجب.

وهذا ما أرشد به النبي ﷺ الرجل لما جاء إليه، وقال: يا رسول الله إن لي قرابة

أَصِلُهم ويقطعونّي، وأحسن إليهم ويسيؤون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي. فقال له الرسول ﷺ: «**لئن كنت كما قلت فكأنما تَسِفهم الملَّ - وهو الرماد الحار - ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على حالك تلك**».

ومن جميل ما يذكر في ذلك قول معن بن أوس:

وذي رحمٍ قلّمتُ أظفار ضِغْنِهِ ... بحِلْميَ عنه وهو ليس له حلمُ

إذا سِمْتُه وصلَ القرابةِ سامني ... قطيعتَها تلك السفاهةُ والظلمُ

ويسعى إذا أبْني ليهدمَ صالحي ... وليس الذي يبني كَمَنْ شأنُه الهدمُ

يحاول رَغْمي لا يحاول غيرَه ... وكالموت عندي أن يسوغَ له الرَّغْمُ

فإن أنتصر منه أكنْ مثل رائشٍ ... سهامَ عدوٍ يُستهاضُ بها العظمُ

وإن أعفُ عنه أُغْضِ عيناً على قذىً ... وليس له بالصفح عن ذنبه عِلمُ

فما زلت في لينٍ له وتعطُّفٍ ... عليه كما تحنو على الولد الأمُ

لأستلَّ ذاك الضِّغنَ حتى استللتُه ... وقد كان ذا ضغنٍ يضيق له الحزمُ

فداويت منه الحقدَ والمرءُ قادرٌ ... على سهمه ما دام في كفه السهمُ

ومَعْنٌ هذا شاعرٌ من مخضرمي الجاهلية والإسلام، وله أخبار مع عمر رضي الله عنه، وكان معاوية رضي الله عنه يفضله ويقول: «أشعر أهل الجاهلية زهير، وأشعر أهل الإسلام ابنه كعب، ومعن بن أوس»[1].

وجاء في الأغاني ١٢/٦٠: «قال عبدالملك بن مروان يوماً وعنده عدة من أهل بيته وولده: لِيَقُلْ كل واحد منكم أحسن شعر سمع به، فذكروا لامرئ القيس،

---

١ - راجع أخباره في الأغاني ١٢/٥٤ - ٥٦، والإصابة ص٨٤٤٥، والخزانة ٣/٢٥٨.

والأعشى، وطرفة، فأكثروا حتى أتوا على محاسن ما قالوا، فقال عبدالملك: أشعرهم - والله - الذي يقول: وذي رحم...».

وخلاصة القول أنّ وَأْد العداوة أدب الفضلاء، ودأب الحكماء، والمظاهرة بالعداوة شأن الذين لا يتدبرون العواقب، ولا يبالون بالمآلات.

والنتيجة سعادة الأوائل، وتفرغهم لمصالحهم، وشقاوة الآخرين، وتشتت قلوبهم، وضياع أوقاتهم.

الخروج وإغلاق الباب

الصداقات والعلاقات الإنسانية عموماً يعتريها ما يعتريها من الصعود، والهبوط، والقوة، والضعف.

والناس ـ في الأغلب ـ لا يثبت ودّهم، ولا تدوم صداقاتهم على حدِّ البيت الذي يُقرأ من جهتين:

مودَّتُه تدومُ لكلِّ هولٍ وهل كلُّ مودَّته تدومُ

والعلاقات معرضة لنوعٍ من الهزات، التي لا يصمد لها إلا من كانت مروءته جزلة، وصداقاته مبنية على الفضيلة؛ إذ الصداقة الطويلة لا تثبت إلا في صدور العظماء.

وقد يبتلى الإنسان في هذه الدنيا بتلون أهل ودِّه، وتقلب أمزجة بعض معارفه.

وقد تعييه الحيلة في رأب صدعهم، وإعادتهم إلى سالف مودتهم.

وقد يقسو على نفسه؛ فيُحَمِّلُها السبب في ذلك، وقد لا يكون الأمر كذلك؛ إذ قد يكون صاحبه خَلِيٌّ من الود، وممن لا تطرأ له مقتضيات الصداقة والأخوة على بال.

فاللائق بمن كان ذا مروءةٍ، ومحافظةٍ على حقوق الصداقة، وحرصٍ على ألا تؤتى من قِبَله ـ ألا يجاري من يتهاون بتلك الحقوق؛ بل عليه أن يصبر، ويدرأ، ويحاول المرة بعد الأخرى.

فإذا تعذر عليه ذلك ـ **فليحسن الخروج، والتوديع، وإغلاق ذلك الباب**؛ بحيث ينسَلّ من تلك الرابطة بكل سكينةٍ، وهدوء، ويغلق بابها بلطفٍ، ويُسْرٍ؛ فقد تعود المياه إلى مجاريها، وترجع رواجع الود إلى صاحبها.

وأقلُّ ما في ذلك ألا يكون الفراق، والبعد مصحوباً بجراح، وذكرياتٍ مؤلمة.

يقال هذا؛ لأن كثيراً من الناس تمر به تلك الحالات؛ فينتج عنها بتٌّ، وزيال، وقطيعة، وتدابر، وكشف أسرار، وهتك أستار.

وما ذلك بمسلك الكرام من الناس ممن يرعون الذمام، ولا ينسون ما مضى من صفو الأيام.

والحاصل أن الخروج الهادئ، وإغلاق الباب دون ضجيج ولا صخب ـ هو المسلك الراشد الأَمَم في مثل تلك الأحوال.

وذلك الخروج قد يفتح الباب مرةً أخرى، ويعيد الألفة إلى ما كانت عليه.

وهذا ما توحي به بعض إشارات الكتاب العزيز من نحو قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾.

الحسَّاس البليد

الطباع البشرية عجيبة غريبة، وتقلبات النفوس لا تكاد تنقضي.

وقد جرت العادة أن بعض البشر يكون مرهف الإحساس شديد التأثر، لا يحتمل أن يساء إليه، وهو -كذلك- لا يرضى أن يسيء إلى أحدٍ بأي نوع من الإساءة.

ولو شعر بأدنى تقصير، أو إساءة في حق أحدٍ من الناس لبادر لتلافي التقصير، والاعتذار عن الإساءة.

وجرت عادة البشر -كذلك- أن فيهم البليدَ البارِدَ الطبع القليل الإحساس الذي يسيء، ويتبع الإساءة الإساءة، ويقَصِّر ولا يبالي بالتقصير، ولا يريد أن يُقَصِّر أحدٌ في حقه.

وجنس الأول من البشر كجنس الثاني من ناحية كثرة أولئك وأولئك، وأن ذلك ليس بغريب ولا مستنكر.

أما وجه الغرابة حقًّا فهو أن يجمع بعض الناس بين هذه الأمرين؛ فيكون شديد الحساسية، متفطناً لكل صغيرة وكبيرة مدركاً وجه الصواب من الخطأ، فتؤذيه الكلمةُ الجارحةُ ويزعجه التصرفُ الأرعن.

ثم تراه في الوقت نفسه، وفي كثير من تعاملاته بليداً مقصراً في الحقوق الواجبة عليه، ولا يبالي في أن يُرى مسيئاً.

وهذا الصنف من الناس تحار في التعامل معه؛ فلا تدري هل تحاكمه إلى طبعه المرهف؛ فتلين معه، وتكتفي بالإشارة والتلويح في تنبيهه، أو تحاكمه إلى طبعه الأرعن البليد، فَتَجْبَهُهُ بالصريح من القول، وتواجهه بالغليظ من الخطاب؟!

فإذا بليت بالتعامل مع أولئك فاجنح إلى الحكمة، وتغليب المصلحة، والنظر في المآلات.

وإذا وجدت سبيلاً لأن تسل يدك من تلك الرابطة فابتغِ تلك السبيل، وأرح نفسك من عناء التفكير، وعنت المراعاة.

وإن كنت مبتلىً بمن هم على تلك الشاكلة، ولا مناص لك من التعامل معهم- فما لك إلا الصبر «**ومن يتصبر يصبره الله**».

الوسط المحميّ

من شوارد أبي تمام الحكيمة ـ وما أكثرها ـ قوله في فائيته :

كانت هي الوَسَطَ المحميَّ فاكتنفت بها الحوادثُ حتى أصبحت طرفا

وهذه الخاطرة من وحي ذلك البيت الشارد ، وبالذات من قوله : (**الوسط المحمي**).

إذ في ذلك إشارة إلى معنى عظيم ، وهو معنى الوسطية ، وما يستتبعه من الأمور ، والأحوال ، وما ينبغي لمن يتحلى به أن يكون عليه من لزوم العدل ، والاعتدال ، والاحتمال.

فالوسط من كل شيء خياره ، وعدوله ، وأحاسنه ، وأَبْعَدُه عن مواطن الوكْسِ ، والشَّطَط.

ومن فضل الله على أمة الإسلام أَنْ جعلها أمةً وسطاً في شتى شؤونها ، وتصاريف شريعتها ، قال الله ـعز وجلـ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾.

ويقابل الوسطَ : الأطرافُ؛ إذ هي ـ في الغالب ـ مذمومة معرضة للخطر ، والحيف ، وجلب الضرر على حدِّ قول الحكيم العربي :

ولا تغلُ في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

بخلاف الوسط فهو محمود في الدين ، وفي المواقف ، وفي مقابلة الحوادث ، وتقلبات الأحوال.

حتى إن التوسط لَيُحْمَدُ في أوقات النوم ، ولذا ذَمّوا النوم في أطراف النهار والليل؛ فَذَمُّوا نومة الصبحِ ، وعَدُّوها زاريةً بالمروءة ، كما قال الأول :

نوم الغداة وشربٌ بالعشيّات مُوكّلانِ بتهديم المروءات

وقال آخر:

ألا إن نوماتِ الضحى تورث الفتى خبالاً ونومات العُصير جنون

وسمّوا النومةَ وسطَ النهار نومةَ الأكياس، ووصفوها بأنها تصقل العقل.

وجاء في السنة كراهية النوم في أول الليل؛ حيث كُرِه النوم قبل صلاة العشاء.

وإن كان الناس يختلفون في ذلك بحسب أحوالهم، وما يلائمهم.

وحُمِدَ التوسط في الأكل والشرب، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾.

وكل خلق فاضل إنما هو وسط بين خلقين رذيلين؛ فالشجاعة ـ على سبيل المثال ـ وسط بين التهور والجبن، والكرم وسط بين البخل والإسراف، وهكذا، والمقام يطول في ذلك.

وإنما الغرضُ ههنا: الإشارة إلى فضل التوسط في الأمور.

ولهذا فإن الوسط **محميٌّ** من غائلة الغلو والجفاء، ومن مَعَرَّة الإفراط والتفريط؛ فعاقبته حميدة، ومآلاته إلى رشد وفلاح، كما قال الحكيم العربي:

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاةٌ ولا تركب ذلولاً ولا صعبا

وجاء في حكمة السلف السائرة: (خير الناس هذا النمط الأوسط).

ومع حَمْدِ التوسط، وحسن نتائجه فقد قلَّ من يسلكه، ويلزم سبيله؛ إذ هذه الوسطية تحتاج إلى حماية، وسياج، ومحافظة، وتعاهد.

والمقصود مما مضى ذكره أن يحرص العاقل على لزوم التوسط فيما يأتي وما يذر؛ لذا كان حقيقاً على من أوتي حكمةً، ودرايةً، وحبًّا للخير، ورغبة في اجتماع الكلمة، ورأب الصدع ـ أن يلزم هذا الطريق الأَمَم الراشد، وأن يحافظ على سلوكه أشد المحافظة.

فإذا حباك الله مكاناً وسطاً بين قومك، وعشيرتك، وزملائك، أو أهل بلدك؛ فكنتَ محل ثقتهم، وكلمة إجماعهم، أو قريباً من ذلك ـ فحافظ ـقدر المستطاعـ على هذه الوسطية، وحاذر مما يكدر صفوها من نحو الخوض في بُنيَّات الطريق، أو الدخول في معارك صغيرة، أو مجادلات عقيمة.

وإذا بليت بشيء من ذلك فاخرج منه بأقل جراح.

وكما أن هذا المعنى حاصل للأفراد فهو كذلك منطبق على المجموع، سواء كانت أسرة، أو مدينة، أو نحو ذلك؛ بحيث يعرف عنها التوسط، ومجانبة التطرف؛ فتكون حَرِيَّة بالحفاظ على ما هي عليه على نحو من قال فيهم المُجَرِّب المُحَكَّك زهير بن أبي سلمى:

هُمُ وسطٌ يرضى الأنامُ بِحُكْمِهِمْ إذا نزلتْ إحدى الليالي بِمُعْظِمِ

وكما قال الحكيم العربي الآخر:

لا تَذْهبنَّ في الأمور فَرَطا لا تسألنْ إن سألتَ شَطَطا

وكنْ مِنَ الناسِ جميعاً وسطا

وما أجمل التحول ـ للفرد أو المجموع ـ من الطرف إلى الوسط.

وما أقبح عكس ذلك، وهو التحول من الوسط إلى الطرف، وهذا ما نعى عليه أبو تمام في بيته الشارد:

كانت هي الوَسَطَ المحميَّ فاكتنفت بها الحوادثُ حتى أصبحت طرفا

التنافس الشريف

جرت سنة الله في خلقه أن الإنسان ـ بطبعه ـ يحب التميز، والتفرد، ونيل المحامد. ولا غضاضة في ذلك، ولا مذمة على من كان كذلك.

وكـــل امـــرئٍ قاتـــلٌ نَفْسَـــهُ علـــى أن يقـــال لـــه إنـــه

بل إن التجرد من ذلك منقصة، ولا يَعْطُل من حب تلك الخصال إلا من نزل عن مدرجة الأسوياء.

ولهذا كان التنافس بين البشر قائماً في شتى الميادين.

ولا يخلو زمان أو مكان من تلك المنافسة سواء في قاعات الدرس، أو صفقات البيع والشراء وسائر التجارات، أو في مجالات الرياسات، أو في ميادين الرياضة والفروسية وما جرى مجرى ذلك.

وهذا التنافس من أعظم أسباب التطور، والعبقرية، وشحذ القريحة، واستنفار الطاقات، واكتشاف الجديد.

ولو لم يكن هناك تنافس لما ارتقت الصناعات، والعلوم، ولجمد الناس على نظام في الحياة لا يتزحزحون عنه، ولا ينالون ما يأملون من رُفَهْنِيَةِ العيش، وحصول مزيدٍ من الراحة.

وهناك تنافس أعظم من ذلك، وأشرف، ألا وهو التنافس في ميادين الخير، والزلفى من الله ـجل جلالهـ ولهذا جاءت الآيات حاثة على هذا المعنى، كمثل الأوامر المصدرة بـ: ﴿ سَابِقُوٓاْ ﴾ ﴿ وَسَارِعُوٓاْ ﴾ ﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ﴾ ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾.

والحاصل أن التنافس في أصله مقصد شريف، ومعنىً عالٍ، وسبيل إلى الترقي في الكمالات.

ولكن قد يعتري هذا التنافس ما يلوث وجهه، ويكسوه حِليةً تشينه.

وذلك كأن لا يكون شريفاً؛ بحيث يخرج عن طوره؛ فتكون المنافسة ضرباً من التحايل، والتربص، والتشكيك، والطعن في المنافس، وتجريده من كل فضيلة.

لذا كان على العاقل أن ينافس، ويتقدم في الفضائل؛ فإن علا شأنه، وارتفع على أقرانه ـ فليلزم التواضع، ولينسب الفضل إلى ربه ـجل وعلاـ ثم إلى من كان سبباً في ذلك.

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

وإن فاقه قِرنه في منافسةٍ ما فليسلِّم له، وليعترف بفضله، وليكن أول المهنئين له؛ فذلك أنزه لنفسه، وأبرأ له من الأثرة، وأرفع له في نفوس أقرانه؛ فلئن فاته السبق إلى الفوز في أي ميدان ـ لم يَفُتْه شرف النفس، وسلامة الصدر.

بل قد تفوق تلك الروح ما أدركه منافسه من المحامد.

وذلك مما تنشرح له صدور الأكابر، ومَنْ يقدرون المكارم قدرها.

ولا يزال الناس يرون صوراً من تلك النماذج التي تُذكر ما بين الفينة والأخرى؛ فتُضْفي على الحياة رونقاً وجمالا.

ومن الأمثلة على ذلك ما كان بين شيخين من أكابر شيوخ الأزهر، وهما شيخ الأزهر الباجوري، والشيخ مصطفى المبلط؛ حيث اشتدت المنافسة بينهما؛ لنيل مشيخة الأزهر؛ فكانت من نصيب الشيخ الباجوري؛ فلما آلت إليه المشيخة كان من الشيخ المبلط موقفاً عظيماً يعبر عن معنى التنافس الشريف أيما تعبير.

يقول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله مبيناً ذلك الموقف: «نحن في صحن الجامع الأزهر في مصر، بعد المغرب، وكان شيخ الأزهر الرجل العظيم بعلمه، العظيم بمنصبه الشيخ الباجوري (المؤلف المشهور) وقد قعد على عادته كل عشية؛ وأقبل العلماء والطلبة يقبلون يده.

وكان الشيخ مصطفى المبلّط أكبر منه سناً، وكان قد نازعه مشيخة الأزهر، وزاحمه عليها، ولم يدَّخر في سبيل الفوز بها جهداً؛ فلما صارت للباجوري صار يُعَظِّمه، ويراعي له حق منصبه، فلما أقبل الناس هذه العشية على الشيخ؛ لتقبيل يده اندس بينهم، وقبل يده معهم؛ فانتبه له الباجوري، وعرفه، فوثب قائماً وأمسك بيده وجعل يبكي ويقول: حتى أنت يا شيخ مصطفى؟ لا! لا!

فقال الشيخ مصطفى: نعم، حتى أنا؛ لقد خصَّك الله بفضل وَجَبَ أن نقرَّه، وصرت شيخنا؛ فعلينا أن نوقرك».

ونحن ـ معاشر القراء ـ إذا قرأنا مثل هذا النموذج الراقي تهتز في نفوسنا عاطفة احترام.

وربما كان إعجابنا لمن سلم لِقِرْنِهِ، واعترف له بفضله يفوق من نال المنصب العالي.

وما ذاك إلا لأن النفوس جبلت على محبة الإنصافِ، والاعترافِ للمحسن.

ولو أن الشيخ المبلط نال من منافسه الشيخ الباجوري ـ رحمهما الله ـ أو أنه ـ في الأقل ـ نأى عنه، ولم يظهر له ذلك الاحترام، والاعتراف ـ لربما عُذِر، وقيل: هذا كلام أقران يطوى ولا يروى، أو لم يذكر بسوء إذا هو أعرض.

ولكن نفسه الشريفة، وعنصره الزاكي أبيا إلا أن يظهرا في ذلك الوقت الذي تتحرك فيه نوازع الغيرة، والحسد، والتنافس المحموم.

ولكنه تسامى عن تلك النوازع، وأبان عن نفس كريمة، وساحة طاهرة؛ فكان أن خلد له التاريخ هذا الموقف الرائع.

والحاصل أن الحياة قصيرة من جهة؛ فلا ينبغي أن تُقَصَّر بمثل هذه الصغائر.

وهي -في الوقت نفسه- واسعة؛ فلا ينبغي أن يُقْصَر الفضل، والمجد في زاوية ضيقة ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾.

شفاعة صغير عند كبير

جرت العادة أن الشفاعة بأنواعها تكون من الأكابر سواء عند أكابر مثلهم، أو عند من دونهم من سائر الناس؛ إذ إن مكانة الأكابر تتطلب منهم زكاة الجاهِ.

وزكاتُه ببذله في سائر طرق المعروف، ومن ضمنها الشفاعات الحسنة التي يقومون بها.

ولكن الغريب أن تقبل شفاعة صغير في السن، أو القدر، أو العلم، أو الجاه عند كبير في سِنِّه، ومقامه، وقدره.

وإن دَلَّ ذلك على شيء فإنما يدل على تواضع ذلك الكبير ورسوخه في الفضيلة.

ومما وَقَرَ في نفسي من ذلك القبيل موقفٌ حصل لي، ولا أزال أتذكره إلى يومي هذا.

وهو موقف مع الشيخ الجليل الوجيه عبدالرحمن بن يوسف الدويش رحمه الله فهو صاحبٌ حميمٌ لوالدي، وكان رئيساً لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الزلفي، وكان رجلاً كريماً مهيباً.

ومجرد المثول أمامه يحدث ارتباكاً لبعض من أمامه خصوصاً عند حصول خطأ من ذلك الماثل.

ومفاد ذلك الموقف الذي حصل لي معه أن شابًّا من الشباب حصل منه خطأ ولا أتذكر ذلك الخطأ، ولكنه ليس بالخطأ الكبير، إما التأخر عن الصلاة، أو أنه أحدث جلبة في أحد المساجد، أو نحو ذلك مما يصدر من بعض من هم في تلك السن.

وقد رُفِع أمره إلى رئيس الهيئة الشيخ عبدالرحمن الدويش، وكان دوامهم في بعض الأيام بعد صلاة المغرب، وكان مقر عملهم في داخل السوق القديم في الزلفي القريب من المسجد الجامع -جامع الملك عبدالعزيز حالياً- وكان لذلك الشاب نوع قرابة من الشيخ عبدالرحمن.

والحاصل أنني كنت في السنة الخامسة أو السادسة الابتدائية وكنا مجتمعين عند دكان قريب من مقر الهيئة؛ فَأُتي بذلك الشاب؛ وكان معنا شاب قريب له؛ فذهب ذلك الشاب إلى الشيخ عبدالرحمن الدويش، وأراد الشفاعة لقريبه؛ فما كان من الشيخ إلا أن رفع رأسه أمامه وقال للشافع: لئن لم تذهب لأجمعنك به، ولأؤدِّبنك معه، وما ذلك إلا لعلم الشيخ أن ذلك الشاب قريب من المشفوع له.

ولما خرج ذلك الشاب قال لي: لماذا لا تذهب لأبي يوسف وتقوله له يسمح لصاحبنا؛ فلعله يطيعك بحكم أنك لست قريباً من صاحبنا، وبحكم علاقته بوالدك، ومحبته له؟

فقلت له: حسناً، ثم دخلت على الشيخ عبدالرحمن، وسلمت عليه، وقبلت رأسه، فحياني، وسألني عن والدي ووالدتي، ثم قال: ما عندك يا فلان؟ فقلت: يا أبا يوسف هذا شاب أخطأ، ولعلها تكون الأخيرة له؛ فلعلك تعفو عنه، وإن عاد فعاقبه عن الأولى والأخيرة.

فما كان منه رحمه الله إلا أن أطرق رأسه هنيهة، ثم رفعه وقال لي: شفاعتك مقبولة يا محمد، وسأسامحه، ثم استدعى ذلك الشاب، وقال له: سنعفو عنك هذه المرة، وإن عدت فلا تلومنَّ إلا نفسك، فخرج ذلك الشاب فرحاً مسروراً، وأنا أشد فرحاً منه بقبول الشفاعة، وأظنه اشترى لي قارورة بيبسي.

هذا وقد مضى على هذا الموقف ما يزيد على أربعين سنة، ولا أزال أتذكره وأترحم على أبي يوسف بسببه؛ إذ شجعني وجرأني على الشفاعة.

ولو أنه نهرني وزجرني لما لمته، ولكنه كان ذا نفس كريمة وشهامة عالية.

ولم يكن ذلك هو الموقف الأخير منه، بل كان من أعز أصحاب الوالد في حياته، ولما توفي الوالد لم تنقطع صِلاته، وهداياه، وأسئلته عني وعن والدتي وإخوتي، وكان يفرح بكل ما يسمعه من خير عنا، وكان كثيراً ما يستضيفني وكان ذلك دأبه إلى أن فارق الدنيا؛ فاللهم ارحمه، وأجزل مثوبته، وارفع درجاته.

من وحي الصلاة

ـ الصلاة تشتمل على التوحيد، والذكر، والاستغفار، والدعاء، وقراءة القرآن، وأعمال القلوب والجوارح؛ فلا غرو أَنْ كانت أم العبادات، وأن سماها الله إيماناً، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ أي: صلاتكم.

ـ الصلوات الخمس تشتمل على أفضل وأوجب وأشرف الأفعال والأدعية والأذكار.

وأوقاتُها، وهيئاتها أعظم مظان رفعة الدرجات، وحط السيئات، وإجابة الدعوات.

ـ بركات الصلاة على صاحبها لا يكاد يحيط بها الحصر؛ فالوضوء لها، والخُطى إليها، وانتظارها، وإقامتها على التمام، وما جرى مجرى ذلك ـ أعمال عظيمة، ويترتب عليها بركات متنوعة تعود على الفرد والجماعة بسعادة الدنيا والآخرة.

ـ ينبغي أن تكون المساجد مهيأة للصلاةِ، والعبادةِ على أحسن ما يكون؛ حتى تُعِيْن المسلمَ على الشوق إلى المساجد، والرغبة في إطالة المكث فيها، وأداء ما يتيسر له من العبادات فيها؛ فتكون مصدر سعادة، واجتماع، وألفة.

ـ من العناية بالمساجد، والإعانة على إقامة الصلاة فيها على الوجه المطلوب ـ العناية بمرافق المساجد من مواقف، ودورات مياه، وما جرى مجرى ذلك.

ـ الصلاة مَفْزَع المؤمنين، وقرة عيون الموحدين، وأنس المستوحشين، والخائفين.

- الاستعداد للصلاة، واستشعار ما يقال فيها، وتكلف ذلك دوماً - مما يعين على إيقاعها على أحسن الوجوه.

- لا ينبغي أن تبرد معاني الصلاة في نفس المؤمن؛ لكونها تكرر عليه يومياً، بل ينبغي له أن يستدعي شرفها، وعظم ثوابها، وعميم بركاتها؛ حتى يكون ذلك معيناً له على إعطائها حقَّها من التكميل، والخشوع.

التهاون بأموال الناس

للمال ـ في شريعة الإسلام ـ منزلةٌ عظيمة؛ إذ يرتبط به أحكام، ويترتب عليه حقوق.

والكلام على منزلة المال، وأهميته في الشريعة يطول، ويكفي أن المال مرتبط بركنين من أركان الإسلام، وهما الزكاة والحج، وأن الكتاب والسنة حافلان بذكر المال، وما يتعلق به من أحكام، وحقوق.

بل إن أطول آية في القرآن الكريم آية الدَّين، وهي تدور ـ كما هو معلوم ـ حول بعض أحكام المال؛ إذ الدَّين متعلق بالمال.

ولا ريب أن حسنَ تدبير المال، والحذرَ من سوء استعماله، والاهتمامَ بحقوق الناس فيه ـ أمارة عقل، وبرهان إيمان، ودليل حزم.

والذي ينظر في أحوال الناس ـ من هذه الناحية ـ يرى عجباً، ولو فُصِّل القول فيه لطال الكلام.

وذلك الأمر يأخذ صوراً شتى، ومظاهر عدة؛ فمن ذلك التهاون بأخذ المال؛ فترى فئاماً من الناس لا يأبهون بشأن الدَّين؛ حيث يستدين عند أدنى حاجة، بل ربما استدان رغبةً في التوسع، والمباهاة، والسفر لغير حاجة.

أو ربما استدان وفي نيته عدم السداد، أو استدان ولم يحرص على قضاء الدين، وهكذا.

وما هي إلا أن تتراكم عليه الديون، ويطالبه أصحابُها بها؛ فتضيق عليه الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه التي بين جنبيه، فيبدأ بالتخفي، والهرب من أصحاب الحقوق، وتراه يلقي بنفسه على فلان وفلان من أهل الغنى واليسار، أو من أهل الجاه؛ ليشفعوا له في قضاء دَينه.

وربما عجز عن القيام بتأمين حاجاته الضرورية، وقد يودَع السجن جرَّاء الدين.

وهكذا يعرِّض نفسه لمصائب عِدَّة يجرُّها عليه الدين، فتنال نيلَها من صحته، وسعادته، وكرامته، وحريته، وإيمانه، وأخلاقه، وعلاقاته.

ولو أنه تصبَّر، وتعفف، واستغنى قدر المستطاع، وتدبر المآلات، ونظر في العواقب ـ لكان خيراً له، وأحسن تأويلاً.

لذا كان حريًّا بالعاقل أن ينأى بنفسه عن الدَّين، وأن يبادر إلى إعطاء ذوي الحقوق حقوقَهم بأسرع وقت؛ حتى لا تتراكم عليه الديون؛ فيثقل عليه سدادها.

وعليه ـأيضاًـ ألا يكلف نفسه ما لا تطيق من نحو الحَمَالات، أو المبادرات التي يترتب عليها ما يترتب من الدين الثقيل؛ إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

وعليه ـكذلكـ أن يَحْذر من المجاملات التي تجرُّ عليه الويلات من هذا القبيل؛ كحال من يكفل فلاناً أو فلاناً في مبالغ لا قِبَل له بها؛ فإذا عجز المكفول عن سداد الدين اكتوى الكفيل بالسداد، وتَحَمُّلِ التبعات.

ثم إن على الإنسان إذا بُلي بالدين أن يُوْقِفَ امتدادَه، وألا يغسل دمَ دينٍ بدمِ دينٍ آخر كحال كثيرين ممن تراكمت عليهم الديون لهذا السبب.

وإذا طالبه أصحاب الحقوق فعليه بالمواجهة، وتَحمُّل ما يترتب على الدين، وعليه أن يأخذ بأسباب السداد، وألا يجعل الهرب والتخفي سبيلاً يتَّقي به أصحاب الديون.

ومن التهاون بأموال الناس التهاون بمال الأوصياء، وبالأموال العامة، والترخص بالأخذ منها؛ فكل ذلك بلاءٌ عظيم، ومرتع صاحبه في الدارين وَخِيْم.

وكم في حنايا البيوت، وزوايا السجون من أناس خيَّم عليهم الحزن، واستولت عليهم الكآبة؛ بسبب ما جرَّه عليهم التهاون بأموال الآخرين.

وبالجملة فمن وقي شر فتنة المال، وسلم من حقوق الناس فيه ـ فقد وُفِّق لخير عظيم، وهدي إلى صراط مستقيم؛ فليشكر الله على هذه النعمة، وليثبتْ عليها، وليحذر من الشماتة بمن ابتلي بالتهاون بأموال الناس.

أثرة وإيثار

يحدثني أحد الأساتذة الفضلاء أنه إبان دراسته في الجامعة كان له زميل جادٌّ في الدراسة، والمتابعة، وتلخيص الدروس.

وقبيل الامتحانات طلب منه زملاؤه ما كتبه في إحدى المواد عند أحد الأساتذة؛ كي يستعينوا به على المذاكرة وفهم المادة؛ فرفض ذلك الزميلُ طلبَ زملائه، وقال لهم: كيف يكون ذلك؟ وأنا أُلَخِّص وأتعب وتأتيكم الثمرة هكذا؟!

فَأسِفَ زملاؤه لتلك الأثرة، وقاموا بما يستطيعون من تدارك ما يمكن تداركه.

يقول محدثي: «وبعد أسبوع مما دار بيننا وبين زميلنا سأل أستاذ المادة عمن يتابع معه في الدرس، ويدوّن ما يلقيه عليهم؛ فرفع ذلك الطالب يده، وقال: أنا، فطلب منه الأستاذ أن يريه ما كتبه، فلما رآه أعجبه، وقال: ما في هذه المذكرة مقرر عليكم، ثم أرسل أحد الطلاب بتلك المذكرة إلى مركز التصوير في الجامعة، وقال له: قل لعامل المركز يصور كذا وكذا على عدد الطلاب.

ثم ذهب الطلاب إلى مركز التصوير، واستلموا النسخ؛ فما كان من ذلك الطالب الذي ضن على زملائه بتلك المذكرة إلا أن طأطأ رأسه، وبدا عليه الوجوم والضيق من جراء ما حصل، ولسان حاله كما قال الأول:

شرُّ المواهب ما تجود به ... من غير محمدة ولا أجر

ولو أنه تكرم منذ البداية، وأسعف زملاءه ـ لكان خيراً له وأحسن تأويلاً.

ولكنه أبى إلا الأثرة؛ فكان حاله كما ترى».

يقول محدثي: «ولما أنهينا المرحلة الجامعية كان زميلنا المذكور من ضمن الطلاب الأوائل، وظننا أنه في طليعة من سَيُختارون للإعادة في الجامعة.

ولكن المفاجأة أن اسمه لم يكن من ضمن المختارين؛ فأصابه غمٌّ عظيم؛ لكونه واثقاً من اختياره للإعادة، ولكن الأمور جرت على خلاف ما يريد.

وكنا ـمعشر زملائهـ نظن أن ذلك بسبب ضيق نفسه، وشحه بالخير: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾» أ.هـ.

وفي مقابل ذلك أعرف نماذج كثيرة من ذوي الإيثار ومحبة نفع الزملاء، ولو فاقوهم في الدرجات.

فأعرف من ذلك القبيل مَن يدوِّن الدروس، ثم يرتبها أحسن ترتيب، ثم يسلمها إلى زملائه، ثم يختصرها بعد ذلك، ثم يعتصرها، ثم يعطيها إياهم مرة أخرى؛ حتى تترسخ في أذهانهم، ولكي يفيد منها الزملاء على اختلاف طبقاتهم.

وربما لاقى كنوداً من زملائه، ولكنه لم يقطع عنهم عادته الجميلة.

ولما سئل عن استمراره في ذلك الصنيع، وقيل له: كيف تفعل ذلك، وربما فاقوك في الدرجات؟

أجاب بقوله: «إنني أجد لذة لذلك العمل، ولا يعنيني شكرهم من عدمه، مع أنني لا أعدم شيئاً من ذلك.

ثم إن بعضهم مساكين يحتاجون إلى مساعدة، والله هو الرزاق الوهاب، وأنا أجد بركة ذلك في دراستي وغيرها؛ فكيف لا أستمر على ذلك العمل؟».

فانظر إلى **جمال الإيثار**، وحميد عاقبته، وانظر إلى **قبح الأثرة**، وسوء عاقبتها.

أبيات اشتهرت ونسبت لغير قائليها

كثيراً ما تُنسب أبيات، بل قصائد لغير قائليها، سواء كان ذلك في القديم، أو الحديث.

والأمثلة على ذلك كثيرة، والمقصود ههنا الإشارة فحسب.

ومن أجلى ذلك مثالان لأبيات تنسب لشاعرين من أشهر الشعراء، وأغزرهم إنتاجاً، وأكثرهم سيرورةً، وهما بشار بن برد، وأبو تمام، وإليك توضيح ذلك.

أولاً: قول الشاعر:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلُّها كفى المرءَ نبلاً أن تُعَدَّ معايبُه

فهذا البيت سار مسير الريح، وكثر الاستشهاد به في القديم والحديث.

وهو ليزيد بن خالد المهلبي، وقد نسبه إليه الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص٩٣، والنويري في نهاية الأرب ٣/٩٠.

ومع ذلك فكثيراً ما ينسب هذا البيت لبشار بن برد؛ إذ يُشتبه أنه من ضمن رائعته البائية في مدح مروان بن محمد بن مروان، ويمدح قيس عيلان، والتي يقول طالعها:

جفا ودُّه فازْوَرَّ أوْ مَلَّ صاحبُه وأزرى به ألا يزال يعاتبه

والتي منها:

إذا كنت في كل الذنوب معاتباً صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبه

فَعِش واحداً أو صِل أخاك فإنه مفارقُ ذنبٍ مرة ومجانبه

وروي: إذا كنت في كل الأمور...، و: مقارف ذنب... انظر ديوان بشار بن برد تقديم، وشرح، وتكميل: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ١/٣٠٥-٣٢٣.

وبيت المهلبي -في الحقيقة- متلائم منسجم مع أبيات بشار معنىً، وبحراً، وقافيةً، ورَوِيًّا؛ لذا يُنْسَبُ كثيراً لبشار، ولكنه ليس له، ولا يوجد في ديوانه، وإنما هو ليزيد المهلبي.

ثانياً: قول الشاعر:

من لي بصحبة من إذا أغضبته ... وسخطتُ كان الحلمُ ردَّ جوابِه
وتراه يصغي للحديث بسمعه ... وبقلبه ولعله أدرى به

فهذان البيتان مشهوران، ولهما ثالث بينهما، وهو:

وإذا طربت إلى المدام سكرتُ من ... أخلاقه وطربت من آدابه

وتروى هذه الأبيات روايات مختلفة، ولعل أقدم من ذكرها: موفق الدين أبو محمد بن عبدالرحمن الشارعي الشافعي (ت٦١٥) في كتابه (مرشد الزوار إلى قبور الأبرار) القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٥هـ، ٥٢٨/١، ونسبها إلى أبي الفضل جعفر بن الفرات.

وتروى هذه الأبيات:

من لي بإنسان إذا أغضبته ... وجهلت كان الحلم ردَّ جوابه
وإذا صبوت إلى المدام شربت من ... أخلاقه وسكرت في آدابه
وتراه يصغي للحديث بسمعه ... وبقلبه ولعله أدرى به

وقد اشْتُهِر أن هذه الأبيات لأبي تمام حتى ظُن أنها له؛ حيث نسب بعض المتأخرين هذه الأبيات لأبي تمام، ولعل مِنْ أشهرِ مَنْ نسبها إلى أبي تمام الإبشيهي في المستطرف من كل فن مستظرف، شرحه، ووضع فهارسه د. مفيد قميحة ص١٣١.

وتبع الإبشيهي على ذلك كثير من المتأخرين.

والحقيقة أن هذه الأبيات ليست لأبي تمام؛ حيث لا توجد في ديوانه في طبعاته وتحقيقاته المختلفة، لا في طبعة راجي الأسمر، ولا في النسخة الأندلسية من ديوان أبي تمام رواية أبي علي القالي الذي احتوى على ثمان وتسعين قصيدة منقولة من خط أبي تمام، دراسة وتحقيق د. عبدالله بن حمد المحارب.

وقد كنت أظن أنها لأبي تمام، ثم تبين لي أنها ليست له، وإنما هي لأبي الفضل جعفر بن الفرات.

وهذا الوهم في النسبة يكثر جداً، وكما يكثر في القديم، يكثر ـ كذلك ـ في الحديث، ومن آخر ما وقفتُ عليه في ذلك، بيتان جميلان، وهما:

قل للذي ملأ التشاؤم قلبه ومضى يُضيِّق حولنا الآفاقا

سرُّ السعادةِ حسنُ ظنِّك بالذي خلقَ الحياةَ وقسَّم الأرزاقا

وقد كثر في الآونة الأخيرة إيرادهما ـ خصوصاً في وسائل التواصل الاجتماعي ـ ونُسبا إلى غير واحد، بل نسبهما بعض الناس إلى بعض الشعراء القدامى.

والحقيقة أنهما لشاعرٍ معاصرٍ لم يأخذ حظَّه من الذيوع، والشهرة، ولم يَقُلْهُما إلا منذ فترة قريبة لا تتجاوز السنتين.

وهذا القائل هو زميلي، وصديقي الجار العزيز الأستاذ الأديب عبدالعزيز ابن عبدالرحمن الجاسر ـ حفظه الله ـ المعلم في المعهد العلمي في محافظة الزلفي.

بين أبي تمام والمتنبي

أبو تمام هو حبيب بن أوس الطائي المولود سنة ١٨٨هـ أو ١٩٠هـ، والمتوفى سنة ٢٣١هـ.

والمتنبي هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي المولود بعد وفاة أبي تمام باثنتين وسبعين سنة وذلك سنة ٣٠٣هـ، والمتوفى سنة ٣٥٤هـ.

هذان الشاعران من أكابر فحول الشعر العربي، ومن نوادر الزمان، وأعاجيب العصور؛ فهما شاعران عظيمان، حكيمان ملآ الدنيا، وشغلا الناس منذ بزوغ نجمهما إلى يومنا هذا.

وقد امتازا بالذكاء المفرط، والبديهة الحاضرة، وحسن السبك، وإصابة الغرض.

وتفردا -كذلك- بالعلم، وتنوع الثقافة، والقدرة على توظيف المعارف للغرض الذي يرميان إليه.

والشواهد على ما مضى ذكره كثيرة جداً.

وقد كفت الدراسات المتنوعة فيهما مؤنة التفصيل في ذلك.

وإن كان حضور المتنبي أطغى، وحظوته وحظه أكثر، وشهرته أوسع؛ حيث أخذ بألباب العامة والخاصة قديماً وحديثاً، واعتنى بشعره أكابر العلماء والأدباء في عصره وبعد عصره كابن جني، والمعري، والقاضي الجرجاني، والعكبري، والواحدي، والبرقوقي، وغيرهم.

والناس على مر الأيام يَتروَّون شعره، ويستشهدون بِحِكَمِه وحكمته التي جرت مجرى الأمثال.

وهذا ما حدا بكثيرين إلى تفضيله على أبي تمام.

غير أن ذلك لا يعني التسليم بذلك مطلقاً؛ فأبو تمام شاعر البديهة والروية، وإمام التجديد في أساليب الشعر، المبدع في افتراع المعاني، وابتكارها، والغوص في دقائقها.

ولئن عِيب عليه -في بعض قصائده- الغموض، والتعقيد، وصعوبة التراكيب، والولوع بالبديع والاستعارات - فلقد عيب على المتنبي ما عيب في شعره حتى قال بعض المتحاملين عليه أحياناً -كأبي هلال العسكري- : «ولا أعرف أحداً كان يتتبع العيوب فيأتيها غير مكترث إلا المتنبي؛ فإنه ضمَّن شعره جميع عيوب الكلام ما أعدمه شيئاً منها».

ثم استشهد بقول المتنبي:

ويسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد

وعلق عليه بقوله: «فأتى من الاستكراه بما لا يطار غرابة؛ فتدبر ما قلناه، وارتسمه تَظْفَرْ ببغيتك إن شاء الله».

ولا ريب أن ذلك تحامل من أبي هلال على جلالة قدره ورسوخ قدمه في الشعر، ونفاذ بصيرته في النقد.

وربما يكون حجاب المعاصرة، وما كان عليه المتنبي من التيه هو الحامل على ذلك.

ومهما قيل في المتنبي أو أبي تمام فإن لا يغض من شأنيهما، ولا ينزلهما من مدرجتهما الخالدة.

والحاصل أن هذين الشاعرين من أعظم شعراء العربية على مر العصور غير أن أبا تمام لم تكن له حظوة المتنبي وإن كان الاختلاف في تفضيل أحدهما على الآخر لا يزال قائماً، وإن كان الفضل للمتقدم ـإن كان لديه فضيلةـ.

وإن مما يحسن التنبيه عليه أن شعر أبي تمام يفوق شعر المتنبي من ناحية الكثرة مع أنه عاش عمراً أقل من المتنبي بثمان سنوات حيث لم يتعدَّ الثالثة والأربعين في حين أن المتنبي عاش إحدى وخمسين سنة.

ولا ريب أن سنوات العمر الأخيرة تكون أكثر نضجاً وشاعرية.

وأن السنوات الثمان التي فاق بها المتنبي أبا تمام كفيلة بأن يأتي بالجياد من قصائده.

هذا وإن مما يُغْفَل عنه ـأحياناًـ في ناحية المفاضلة بين هذين الشاعرين أن المتنبي ـعلى تيهه، وقلة إعجابه بأحدـ كان من أشد المعجبين بأبي تمام، وكان يصحب معه في أسفاره ديوان أبي تمام، بل كان معه على ظهور رواحله لما قتل.

ومما يغفل عنه ـأحياناًـ في المفاضلة بينهما سرعة البديهة لدى أبي تمام، وإتيانه في الحال بما يناسب المقام، وينسجم مع ما هو بصدد من الغرض، حتى إنه يجعل حاسديه في حيرة من أمرهم، ولا يملكون إلا التسليم له.

ومما يذكر في هذا السياق قصيدته السينية التي يقول طالعها:

ماذا وقوفُك ساعةً مِنْ باس ... نقضي ذِمَام الأربع الأدراس

فلعل عينك أن تعين بمائها ... والدمعُ منه خاذِلٌ ومواس

تلك القصيدة الباذخة التي ألقاها أمام ابن الخليفة المعتصم بمحضر الفيلسوف الكندي.

ولما وصل إلى قوله:

نـــور العـــرارة نـــورُه ونســـيمُه ... نشـرُ الخزامـى في اخضـرار الآسِ
أبليــتَ هــذا المجــد أبعــدَ غايــةٍ ... فيــه لأكــرمَ شِــيمةٍ ونِحــاسِ
إقــدامُ عمــروٍ في سماحــةِ حــاتمٍ ... في حلـمِ أحنـفَ في ذكـاءِ إيـاسِ

تحركت نوازع الغيرة والحسد في نفس الفيلسوف الكندي لهذا الإبداع؛ فقال متهكماً بأبي تمام: «ما صنعت يا ابن أوس؟

فقد شبهت ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب، أو قال: صعاليكها».

فأطرق أبو تمام لحظة، ثم قال على البديهة:

لا تنكـروا ضـربي لـه مـن دونـه ... مـثلاً شـروداً في النـدى والبـاس
فـالله قـد ضـرب الأقـل لنـوره ... مـثلاً مـن المشـكاة والنـبراس

فأُفْحِمَ الكنديُّ لهذا الإقناع العجيب الذي يدل على ذكاء خارق، وألمعية متوقدة، وإحساس سريع، ونظرة عميقة، وقال مقولته المشهورة: «هذا الفتى لا يعيش طويلاً؛ لأنه ينحت من قلبه».

ومما يُغْفَل عنه -أحياناً- حال المقارنة بينهما - المقارنة بين جياد كل واحد منهما، أو المعاني المتشابهة التي تطرقا لها.

وهذا ميدان فسيح، وموضع من المواضع التي تستحق الدراسة، وإطالة الوقوف.

والمقام ههنا لا يسمح بذلك، وإنما يُكْتفى بمثالين فحسب.

المثال الأول: ما جاء في إحدى جياد أبي الطيب في رائعته الدالية:

لكـل امـرئٍ مـن دهـره مـا تعـودا ... وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

حيث قال في أواخرها -على عادته- مفتخراً بشعره، معتداً بنفسه:

وما الدهر إلا من رواة قلائدي ... إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمراً ... وغنى به من لا يغني مغردا
أجزني إذا ما قلت شعراً فإنما ... بشعري أتاك المادحون مرددا

فتأمل هذا الافتخار -وهو مقبول في الشعر، ومما يتمايز به عن النثر-.

ثم انظر إلى طَرْق أبي تمام لهذا المعنى، وكيف أغار عليه أبو الطيب، وألبسه هذا الملبس الرائق المعجب، وقارن بينهما؛ فقد قال أبو تمام في رائعته القافيَّة التي يهجو بها عتبة بن أبي عُصيْم، والتي يقول طالعها:

الدار ناطقة وليست تنطقُ ... بدثورها إن الجديد سيخلُق
دِمَنٌ تفرقت النوى في رَبْعِها ... وتفرقت فيها السحاب الفُرَّق
فتفرقت عيني مآقيها إلى ... أن خِلْتَ مهجتيَ التي تترقرق

وبعد أن استرسل في هجاء المهجو قال:

سر أين شئت من البلاد فإن لي ... سوراً عليك من الرجال يُخندق
وقصائداً تسري إليك كأنها ... أحلام رُعْبرٍ أو خطوبٌ طُرَّقُ
من منهضاتك مقعداتك خائفاً ... مستوهلاً حتى كأنك تُطلِق

ثم ختمها مفتخراً بنفسه وبشعره، فقال:

من شاعر وقف الكلام ببابه ... واكتنَّ في كَنَفَيْ دُراه المنطق
قد ثقَّفت منه الشآم وسَهَّلت ... منه الحجازُ ورقَّقته المشرق

فالغرض بين الشاعرين مختلف؛ فغرض أبي الطيب مدحٌ، وغرض أبي تمام هجاء.

وكلاهما أثنى على نفسه في نهاية القصيدة، غير أن ثناء أبي تمام ألطف وأخف على النفس؛ فبينا جاءت عبارات أبي الطيب في معرض التَّكَلُّم على نحو قوله: (قلائدي) و(أجزني) و(شعري) ـ فقد جاءت عبارات أبي تمام في معرض الغَيْبَة على نحو قوله: (من شاعر) ولم يقل (مني) وقوله (ببابه) ولم يقل (ببابي) وقوله (في كنفي ذراه) ولم يقل (ذراي) وقال: (قد ثقَّفت) و(سهلت) و(رققته) ولم يقل (قد ثقَّفتني) و(سَهَّلتني) و(رَقَّقتني).

فههنا سبق أبو تمام لهذا المعنى، وتفوق من جهة الذوق في إيراده، وجعله أكثر قبولاً وإساغة لدى قارئه، وسامعه.

المثال الثاني: ما جاء في قصيدة أبي الطيب المشهورة التي يمدح فيها سيف الدولة، والتي يقول طالعها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

والتي من ضمنها بيتاه الشاردان اللذان يعدان من أعظم ما يمدح به إنسان، وهما قوله:

وقفت وما في الموت شكٌّ لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمةً ووجهك وضاحٌ وثغرك باسم

والمتأمل في هذين البيتين يرى أن أبا تمام قد سبق المتنبي إلى هذا المعنى، وربما فاقه في حسن سبكه، حيث قال في قصيدته التي مدح فيها نوح بن عمرو، والتي يقول طالعها:

يوم الفراق لقد خُلِقت طويلا لم تَبْق لي جلداً ولا معقولا
لو حاز مرتاد المنية لم يُرد إلا الفراق على النفوس دليلا

قالوا الرحيل فما شككت بأنها نفسي عن الدنيا تريد رحيلا

وهي من جياد أبي تمام، وإن لم يكن لها شهرة قصيدة (فتح عمورية) أو (كذا فليجلَّ الخطب).

والشاهد ههنا قوله في مدح نوح بن عمر:

لا تَدْعَون نوحَ بنَ عمرٍو دعوةً للخطب إلا أن يكون جليلا
يَقِظٍ إذا ما المشكلاتُ عَرَوْنَه ألفيته المتبسمَ البُهلولا
ما زال يُبْرِمُهُنَّ حتى إنه ليقال ما خلق الإله سحيلا
ثبتُ المقام يرى القبيلةَ واحداً ويُرى فَيَحْسَبُهُ القبيلُ قبيلا

ولا يبعد أن أبا الطيب قد أخذ هذا المعنى من أبي تمام، وخصوصاً أنه معجب بأبي تمام، وفي بيت من هذه القصيدة بالذات؛ حيث كان كثيراً ما يردده وهو قول أبي تمام:

مَنْ كان مرعى عزمِه وهمومِه روضَ الأماني لم يزل مهزولا

فهذان مثالان مما يسمح بهما المقام، ولو تتبع باحث أمثالهما لربما ظفر بمادة صالحة للدراسة.

والمحصل مما مضى أن أبا تمام علامة فارقة في الشعر العربي، وأن لتفضيله على المتنبي مساغاً.

إجابات طلابية طريفة

يحصل في كثير من الأحيان أن يسأل المعلمون طلابهم، فيفاجؤون بأجوبة طريفة لا تخطر بالبال؛ إذ يجيب الطالب عن السؤال إجابة خاطئة يظنها صحيحة، أو يجيب بما يبدو له من أول وهلة دون تفكير أو تأمل.

وفي جَعْبَة أكثر المعلمين والأساتذة الشيء الكثير من تلك الإجابات التي تحمل في طياتها الطرافة.

وفيما يلي نماذج من ذلك القبيل:

١ـ طلب أحد معلمي العربية في درسٍ في باب التصغير من أحد الطلاب أن يصغر كلمة (مستشفى) فأجاب الطالب على الفور: «(مستوصف)»!

٢ـ وسأل أستاذ في مادة الحديث طالباً عن معنى كلمة (لقيمات) الواردة في قول النبيﷺ: «بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه...».

فأجاب الطالب: «اللقيمات: هي التي نأكلها في رمضان!».

وهي أكلة معروفة تصنع من البر، وتعرف في بعض البلدان بـ (لقمة القاضي).

٣ـ وسأل أحد معلمي التفسير سؤالاً عن معنى كلمة: (**قِطَّنا**) الواردة في قوله ـتعالىـ: ﴿**وقالوا ربنا عَجِّل لنا قِطَّنا**﴾.

فأجاب أحد الطلاب قائلاً: «القِط: دُوَيْبَةٌ صغيرة يقال لها: الهرة!».

٤ـ وأورد أحد المعلمين سؤالاً في مادة التاريخ، قال فيه: «حفر الصحابة ـرضي الله عنهمـ الخندق، وعلى رأسهم.....» أكمل الفراغ.

وإكمال الفراغ أن يقول: «رسول الله ﷺ».

ولكن الطالب أجاب بقوله: «طاقية تقيهم الشمس!».

٥ـ وسئل طالب عن حكم القذف ـقذف المحصنات، والأبرياءـ مع ذكر الدليل.

فأجاب الطالب: «واجب؛ لقوله ـتعالىـ: ﴿أن اقذفيه في التابوت﴾»!!.

٦ـ وفي أسئلة لمادة التفسير للطالبات: «في خمس لا يعلمهن إلا الله» اذكري ثلاثاً منها.

فأجابت طالبة: «لا يعلمهن إلا الله، وتريدين أن أعرفها!».

٧ـ وسأل معلم طالباً عن جمع كلمة (نفساء) فأجاب الطالب: (والدات!).

٨ـ وسألت معلمةٌ طالباتٍ في الابتدائي في شهر رمضان ـوكن صغيرات صائماتـ عن سبب صومهن، فاختلفت أجوبتهن؛ فمنهن من قالت: رغبة في الأجر، ومنهن من قالت: لأن والداي حفزاني على الصوم.

ومن ضمنهن طالبة فلسطينية صغيرة كتبت في إجابتها: «هيك».

٩ـ وقبل أعوام وفي أحد الدروس مر اسمُ علمٍ يقال له (العبدري) نسبة إلى عبدالدار، فوضحتُ للطلاب أن هذه الكلمة من قبيل النحت، مثل كلمة (عبشمي) نسبة إلى عبد شمس.

والنحت في العربية معروف، ويبحث في علم فقه اللغة، وهو أن تَعْمَدَ إلى كلمتين فأكثر فتجعل منهما كلمة واحدة، كالمثالين السابقين، ويكون في الأفعال، والمصادر كالبسملة، ومنه قول الشاعر:

لقد بسملت ليلى غداة لقيتها ... فيا حبذا ذاك الحديث المبسمل

ومنه الحيعلة، وهي منحوتة من (حي على الفلاح)، وهكذا..

ثم سألت أسئلة عن كلمات منحوتة، واخترت كلمة، وهي (الحوقلة) فرفع الطلاب أصابعهم، ومن بينهم طالب لم يَعْتَدْ رفع إصبعه، وهو من المولعين

بالصيد؛ فعرفت أنه سيأتي بطرفة، ولن يجيب الإجابة الصحيحة، فأشرت إليه أن أجب، فقال: «الحوقلة: هي العصفور الصغير!» فضجت القاعة بالضحك من هذا الجواب.

والصحيح أن (الحوقلة) منحوتة من قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله).

ولكن الطالب قال: هي العصفور الصغير؛ لأن كلمة الحوقلة عندنا في بعض بيئات نجد تعني الشيء الصغير جداً، ومنه تسمية الصغير من الطيور بذلك.

١٠ ـ كانت الأسئلة لشهادة السادسة الابتدائية قبل سنوات ـ مركزية؛ تأتي من الوزارة، وتُصَحَّح في الوزارة، وتُعْلَن نتائجها في الإذاعة، وفي إحدى السنوات في تلك الفترة وفي عام ١٣٩١هـ تقريباً جاء سؤال في مادة التاريخ، مفاده: اكتب ما تعرفه عن الملك فيصل بن عبدالعزيز رحمه الله.

فأجاب أحد الطلاب من إحدى مدن نجد بقوله: «**مُوْقِف**» ولم يزد على هذه الكلمة.

ولما وردت الإجابة إلى اللجان المختصة بالتصحيح توقفوا عند هذه الإجابة، وشكلت لجنة؛ لمناقشة هذه الإجابةِ، والمقصودِ منها.

وكان من ضمن تلك اللجنة، معلمٌ من نجد، ويعرف معنى هذه الكلمة في العامية؛ فقال: أعطوا الطالب درجة النجاح.

فقالوا: وَلِمَ؟

فقالوا: لأنه أثنى على الملك بما لا مزيد عليه.

فقال: وكيف ذلك؟ قال: إنه يريد بكلمة «مُوقِف» ثناءً عاطراً على الملك؛ لأن كلمة موقف عندنا ـبنطق القاف بكلمة قريبة من السينـ تعني أن الكلام يقف عنده؛ فلا يستطاع التعبير عنه بمزيد كلام.

حينها سُرِّي عن أعضاء اللجنة، وفرحوا بذلك.

وأظن أنهم سألوا الطالب فيما بعد، فقال: نعم أنا أقصد ذلك.

١١ ـ ويحدثني أحد طلاب المرحلة الثانوية الليلية أن سؤالاً وردهم في امتحان مادة الأدب وفيه: اشرح معنى قول ابن زيدون:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقـــا والأفق طلقٌ ووجه الأرض قد راقا

يقول ذلك الطالب: «فكتبت: هذا الشاعر يريد أن يبين أنه يذكر محبوبته كلما طَرَّ عود عوداً».

وكلمة: (كلما طَرَّ عود عوداً) عامية، ومعناها: كلما حَرَّك شيءٌ شيئاً، وتعني أن الإنسان يتذكر هذا الأمر في كل مناسبة.

كما قال الأول:

أريـد لأنسـى ذكرهـا فكأنمـا تمثَّـلُ لـي ليلـى بكـل سـبيل

وكان المعلم يعرف مقصد الطالب، فأعطاه الدرجة على هذه الإجابة.

١٢ ـ ويحدثني أحد طلاب المتوسطة الليلة أنه جاء سؤال، وهو يعرف أن جوابه: (القرنفل).

يقول: «ولكنني لا أعرف كتابتها إملائياً، فناديت معلم المادة وكان يراقب علينا فقلت له: والله إنني أعرف جوابها، ولكن لا أستطيع كتابتها، هو المسمار، وأيضاً هو العويدي؛ فانفجر الأستاذ ضاحكاً، وقال: اكتب ما تريد».

والمسمار، والعويدي مرادفان للقرنفل في اللهجة العامية النجدية.

١٣ ـ ويحدثني أحد الطلاب في المرحلة الثانوية الليلية أن أحد الأساتذة أورد عليه سؤالاً في الامتحان من ضمن الأسئلة، وفيه: ما حكم الغش، مع ذكر الدليل؟

فأجاب الطالب: الغش حرام.

ولكنه نسي الدليل، فكتب: والدليل: الحديث المكتوب على باب ورشة فلان.

وكان مكتوباً على تلك الورشة: «من غش فليس منا!».

١٤ ـ وقال أحد المعلمين لطالب: أعرب الجملة الآتية: «الحمامة آمنة».

فقال الطالب: «الحمامة: مبتدأ، وآمنة: أم الرسول ﷺ!».

١٥ ـ ويحدثني الأستاذ الفاضل الصديق إبراهيم بن أحمد المنصور ـ وله باعٌ طويلٌ في تدريس طلاب محو الأمية ـ عن مواقف كثيرة تحصل له.

ومنها أنه كان يدرس طلاباً كباراً تتجاوز أعمارهم الخمسين والستين سنة، وكانوا في السنة الأولى الابتدائية مكافحة.

وفي يوم من الأيام كان يدرسهم حرف الراء، فكتب الحرف على السبورة، وكرره مراراً، وصار الطلاب يرددون معه، فحفظوه إلا طالباً كان بطيء الفهم سريع النسيان، فكان الأستاذ إبراهيم يكرر عليه الحرف؛ فإذا غفل عنه لحظة يسيرة، ثم سأله نسي ما قيل له.

فلما كرر عليه الحرف، وقال: هل ضبطته تماماً؟ قال: نعم.

ثم التفت عنه التفاته يسيرة، ثم أعاد عليه السؤال قائلاً: ما هذا الحرف، فصار الطالب يصوِّب بصره ويصعِّده، والطلاب ينتظرون الجواب بفارغ الصبر حتى ينتقلوا إلى حرف آخر، ثم قال: «هذه فيها من ذنيب الحصني».

يعني أن حرف الراء الذي نسيه كأنه ذنب الثعلب.

يقول الأستاذ إبراهيم فسقطت على الأرض من شدة الضحك، والطلاب كذلك يضحكون.

فالتفت إلى الطلاب، وقال: «يضحكون، ومعلمهم أردأ منهم».

١٦ ـ ويحدث الأستاذ إبراهيم ـأيضاًـ عن بعض مواقفه في ذلك فيقول: كتبت على السبورة عدة كلمات ليقرأها الطلاب، ومن ضمنها كلمة (حَسَن).

وطلبت من أحد الطلاب الكبار أن يقرأها، وكان ذلك الطالب بطيء الفهم، فصار ينظر إلى الكلمة، دون أن يستطيع قراءتها، وكان بجانبه زميل له غير أنه أفهم منه، فوضع ذلك الزميل الكتاب على وجهه؛ كي لا أراه، وصار يقول لزميله بصوت منخفض: أخوك الذي في الرياض ما اسمه؟ وصار يكررها مرة بعد أخرى عسى أن يفهم الطالب الجواب؛ لأن له أخاً في الرياض اسمه حَسَن، وزميله يريد منه أن يقول: حَسَن، حتى يكون قد أجاب على السؤال.

يقول الأستاذ إبراهيم: وأنا أسمع ذلك، وأنتظر ما يسفر عنه ذلك الإسعاف من ذلك الطالب لزميله.

ولكنه لم يفطن لتلك الحيلة، ولم يجب على ذلك السؤال.

١٧ ـ ويحدث أحد الطلاب الذين درسوا عن كبر أنه أول ما دخل الجامعة قال له الأستاذ: اقرأ، وكان في المقروء نص منقول، وفي آخر النقل إشارة إلى نهايته، وهما الحرفان ا.هـ، يعني: انتهى، فقال ذلك: أه.

١٨ ـ ويحدث ـأيضاًـ أنه قد قُرِّرَ عليهم في مادة التفسير كتاب فتح القدير للشوكاني، وقد طلب منهم الأستاذ أن يقرؤوا موضعاً منه، وكان في بداية ذلك المقروء كلمة (نكتة).

وهذه الكلمة لم تمر على ذلك الطالب من قبل إلا في سياق الإضحاك؛ فظنها نكتة ـ أَيْ كلمة مضحكة ـ.

يقول: فصرت مستعداً للضحك، متحفزاً لما تسفر عنه تلك النكتة؛ فقرأت عدة أسطر، ثم أكملت الصفحة، إلى أن قرأت خمس صفحات ولم أجد ما يضحك؛ فسألت الزملاء: أين النكتة التي يقول الأستاذ؛ لم أجد شيئاً يضحك؟

فما كان من الطلاب إلا أن صار بعضهم ينظر إلى بعض وهم يضحكون.

فسألت عن السبب، فقالوا: هي نكتة علمية، وليست النكتة التي في بالك.

والنكتة العلمية: هي المشتملة على معنىً بديع، أو استنباط لطيف، ونحو ذلك.

١٩ ـ ويحدث أحد الأساتذة أنه سأل طالباً عن إعراب الجملة الآتية: (إن زيداً قائمٌ) فقال الطالب: إن: خبر كان! فقال له المعلم: يكفي! لا يأتينا شيء آخر.

٢٠ ـ وسأل أحد المعلمين طالباً عن الفتنة الدهيماء الواردة في بعض الأحاديث والتي تكون في آخر الزمان، فلا تدع بيتاً إلا دخلته.

فقال الطالب: الجرذان!!

في البحث العلمي

١ ـ البحث العلمي يختلف عن التأليف العام؛ من جهة المنهجية، والاطراد، والدقة، والتحديد.

٢ ـ مما يميز البحث أن تكون أبوابه مرتبطة بعنوان البحث، والفصول بالأبواب، والمباحث بالفصول، والمطالب بالمباحث، والمسائل بالمطالب، وهكذا.

٣ ـ من ميزات عنوان البحث أن يكون مختصراً مفصحاً عن موضوعه مبيناً لحدوده موحياً بأفكاره الرئيسة غير متضمن ما ليس داخلاً فيه.

٤ ـ احترام التخصص في أي جانب من جوانب العلم والمعرفة ـ مطلب مهم، ولكن ذلك لا يعني أن يتعالى المتخصص، ويظن أنه الناطق الرسمي باسم ذلك التخصص.

٥ ـ من أعظم ما يعين على البحث: التحلي بروح الصبر، والمثابرة، والجد، والحذر من التأجيل، والقدرة على الاستمتاع بالبحث.

٦ ـ للنفوس حال البحث إقبال وإدبار؛ فإذا أقْبَلَت نفسُك على البحث فاغتنم ذلك الإقبال، وخذها بالعزائم.

وإذا أدبرت فلا تستسلم لإدبارها، وقم ـ ولو باليسير ـ من أعمال البحث.

إذا هَبَّتْ رياحُكَ فاغْتَنِمْها ... فعقبى كلِّ عاصفةٍ سُكونُ

٧ ـ لياقة البحث كلياقة البدن؛ إهمال يوم يفقدك شيئاً من لياقة البحث، وإحساسك فيه.

٨ـ مساعدة الباحثين، وإعانتهم بما تستطيع ـ مما يمنحك بركةً في الوقت، والجهد، (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه).

٩ـ الدعاء، وسؤال الله الإعانة، والتماس البركة منه ـ سببٌ عظيمٌ لبركة الوقت، وإنجاز الأعمال؛ مصطلح البركة يكاد يكون غائباً عن كتب البحث العلمي.

١٠ـ لذوق الباحث، وسلامة لغته من الاستفزاز، أو الانهزام ـ أثرٌ في صحة نتائجه، وقبولها.

١١ـ تعاور البحث بالتعاهد، والتشذيب، والحذف، والإضافة مما يضفي عليه قوةً، ورونقاً، وجمالاً.

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾

البركة مصطلحٌ شرعيٌّ يعني الزيادة في الخير، والأجر، وكلِّ ما يحتاجه العبد في دينه ودنياه؛ بسبب ذات مباركة، أو زمان مبارك، أو مكان مبارك.

وتكون هذه البركة قد ثبتت ثبوتاً شرعيًّا، وثبتت الكيفية التي تنال بها عن النبيﷺ.

والبركة كلها من الله، كما أن الرزق، والنصر، والعافية منه ـ عز وجل ـ.

وما ورد شرعاً أن فيه بركةً من الأعيان، أو الأقوال، أو الأفعال، أو الأزمنة، أو الأمكنة إنما هو سبب للبركة، وليس هو مصدرَها.

والكلام في تفصيلات البركة، والتبرك، والممنوع، والمشروع منه ـ ليس هذا موضعه، إنما يبتغى في كتب الاعتقاد التي فصلت القول فيه.

وإنما المقصود ههنا الوقوف حول معنى المبارك في قوله ـ تعالى ـ عن المسيح ـعليه السلام ـ: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ وما يدخل تحت قوله: ﴿ **مُبَارَكاً** ﴾ من أفراد المعاني مما يصعب حصره.

ولقد اختلفت عبارات السلف في تفسير المبارك اختلافَ تنوعٍ، لا اختلافَ تضادٍّ، فقيل: بركته: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان.

وقيل: إن المبارك هو معلم الناس الخير؛ فإن بركة الرجل تعليمه للخير حيث حل، ونصحه لكل من اجتمع به ـ كما يقول ابن القيم ـ.

وبهذا قال جمع من السلف، ومنهم المفسر الكبير مجاهد بن جبر، الذي قيل في شأنه: «إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به».

ومن الفتوحات على مجاهد رحمه الله في التفسير: انفرادُه بتفسير **المبارك**: بأنه (**النَّفَّاع**).

وهذا التفسير شامل لجميع ضروب النفع في الدين والدنيا.

وهكذا كان حال المسيح - عليه السلام - الذي أخبر عن نفسه أَنَّ الله جعله **مباركاً أينما كان**؛ فإنه يُعَلِّم الناس الخير، ويأمرهم به، ويبين لهم الشر، وينهاهم عنه.

وهو -كذلك- ينفعهم في دنياهم، فيبرأ الأكمه، والأبرص، ويحيي الموتى - بإذن الله - وذلك كمال النفع.

ويدخل تحت هذا التفسير من ضروب النفع ما لا يتناهى، ولو فُصِّل الكلام في أفراده، وذكرت أدلته لطال إطالة شديدة.

والمقام لا يحتمل إلا مجرد إلماحات تشير إلى الموضوع، وتدل عليه.

فمما يدخل في قبيل المباركينَ: معلمُ الناسِ أمرَ دينهم، وما فيه صلاحُ دنياهم.

ويدخل فيهم من يدلهم على الخير، ويحذرهم من الشر، ويحرص على اجتماعهم، وتآلفهم، وإسعادهم، وإعزازهم، وإعطائهم حقوقهم، ورفع الظلم عنهم.

فالعالم الذي يعلم الناس العلمَ النافعَ **مبارك**.

والحاكم الذي يسوس الناس بشرع الله **مبارك**.

والقاضي العادل الذي ينتصف لذوي الحقوق، ويرد المظالم **مبارك**.

والمنبري لإصلاح ذات البين، ورأب الصدع، وجمع الكلمة **مبارك**.

والتاجر المسلم المنفق ماله في سبيل الخير ذات اليمين، وذات الشمال **مبارك**.

والولد الرضي، البار بوالديه **مبارك**.

والوالد المحسن تربية ولده، وتنشئته على الفضائل **مبارك**.

والزوجة القائمة بحقوق زوجها **مباركة**.

والموظف المخلص في عمله، الحريص على القيام بما أسند إليه، المحسن معاملة مراجعيه **مبارك**.

والخادم الأمين، الراعي لحقوق صاحب العمل **مبارك**.

والصديق المواتي، الحريص على نفع صديقه **مبارك**.

والجليس المسعد لجلسائه، البعيد عن تكديرهم، والإساءة إليهم **مبارك**.

والبسام، البشوش، الذي يقابل الناس بوجه طلق، وجبين وضاح، ويحييهم بتحية طيبة مباركة، ويصافحهم براحة كريمة **مبارك**.

والذي يعلم القرآن، أو يسهم في ذلك أياً كان نوع ذلك الإسهام **مبارك**.

بل إن هؤلاء يدخلون في معنى المبارك دخولاً أولياً؛ ذلك أن من معاني المبارك مُعَلِّمَ الناس الخير، وأعظمُ تعليمِ الخيرِ تعليمُ القرآنِ الكريم، بنص الحديث: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**».

والطبيب الساعي إلى علاج مرضاه بكل أمانة، وإخلاص، وحسن خلق **مبارك**.

بل إن دخوله في ذلك المعنى آكد من كثير مما مضى ذكره؛ إذ كان علاج المرضى من جملة ما كان يقوم به المسيح -عليه السلام-.

كيف لا يكون مباركاً وهو يسعد الناس، ويسعى في علاجهم، وإزالة الآلام عنهم؟!

وكيف لا يكون مباركاً وهو يتسبب في إعادة البصر إلى هذا، والسمع إلى ذاك؟

وقس على هذه النبذة وما يترتب عليها من الخير ما يخطر ببالك من ضروب المنافع.

والمشير الناصح الذي يدل الناس على الخير باقتراحاته الطيبة، وآرائه المسددة **مبارك.**

وهذا الأخير باب يُغْفل عنه، ويَحتاج إلى مزيد بسط، وكم نتج عنه من خير عظيم، ونفع عميم.

وما صحيح البخاري إلا فَتَحٌ من الله، ثم بركة اقتراح مبارك من إسحاق بن راهويه أشار به على الإمام البخاري، فكان ذلك الكتاب العظيم.

وما تَوَجُّهُ الإمام الشافعي للعلم والفقه إلا بتوفيق من الله، ثم مشورة مباركة من رجل من الحجبة.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: «كنت امرءًا أكتب الشعر، وآتي البوادي؛ فأسمع منهم، وقدمت مكة وأنا أتمثل بشعر للبيد، وأضرب وحشي قدمي بالسوط، فضربني رجل من ورائي من الحجبة فقال: رجل من قريش، ثم ابن المطلب رضي من دينه ودنياه أن يكون مُعَلِّماً ما الشعر؟

الشعر إذا استحكمت فيه قعدت معلماً، تَفَقَّهْ يُعْلِكَ الله.

قال: فنفعني الله بكلام ذلك الحجبي، ورجعت إلى مكة، وكتبت عن ابن عيينة ما شاء الله أن أكتب، ثم كنت أجالس مسلم بن خالد بن عبدالله الزنجي، ثم قدمت على مالك في المدينة، فكتبت موطأه».

وبالجملة فإن مفهوم **المبارك** شاملٌ عامٌّ، والناس متفاوتون فيه تفاوتَهم بالإيمان، والعقل، والمروءة؛ فمنهم من هو قليل البركة، أو هو إلى الضرِّ أقرب من النفع.

ومنهم الفذ النفَّاع، ومنهم الجامع لأكثر خصال الخير البالغ في المباركية شأواً لا يبارى فيه، يصدق عليه قول أبي الطيب:

كالبدر من حيث التفتَّ رأيته ... يهدي إلى عينيك نوراً ثاقبا

كالبحر يقذف للقريب جواهراً ... جوداً ويقذف للبعيد سحائبا

كالشمس في كبد السماء وضوؤها ... يغشى البلاد مشارقاً ومغاربا

وبين هؤلاء وأولئك برازخ.

ولو استثار كلُّ مسلمٍ ما وهبه الله ـ عز وجل ـ واستثمره في جلب الخير، ودرء الشر ـ لكان **مباركاً** على نفسه وعلى غيره.

ومن جميل الدعاء ـ وكثيراً ما كنتُ أسمع شيخنا الإمام ابن باز يدعو به ـ: (اللهم اجعلنا مباركين).

ومن ذلك قول: اللهم اجعلنا مفاتيح للخير، مغاليق للشر، مباركين أينما كنا.

المقارنات

المقارنات دأبُ كثير من الناس في أفرادهم، ومؤسساتهم، ودولهم.

ومنها ما هو نافع مُجْدٍ، ومنها ما هو ضارٌّ غير مُجْدٍ؛ فالمقارنة المجدية النافعة ما روعي فيها عوامل الزمان، والمكان، والأحوال، والأشخاص، والإمكانات؛ فهذه مقارنات نافعة من شأنها أن ترفع الهمة، وتبعث إلى مزيدٍ من الجد، والاجتهاد.

وعكسها **المقارنات الظالمة**، وهي التي لا يُراعي فيها عوامل الزمان، والمكان، والأحوال، والأشخاص، والإمكانات؛ فتلك **المقارنات** تحدث شرخاً في التربية، وتورث جوراً في الحكم على الآخرين.

فمن صورة **المقارنات** الـمُجدية أن تخاطب أيَّ أحدٍ سواء كان طالباً، أو ولداً، أو مرؤوساً، أو زميلاً، وأنت تريد منه أن يرتقي بهمَّته، وأدائه، فتقول له **مقارناً**: إن زميلك الفلاني، أو أخاك يَمْلِكُ ما تملك من المواهب والإمكانات، وملائمةِ الأحوال، ومع ذلك نراك دونه في الأداء بمراحل؛ فما الذي يمنعك أن تكون مثله، أو أحسن منه؛ فتلك **مقارنة** في محلِّها، وقد تؤتي أُكلَها.

وعكس ذلك أن تعمدَ إلى إنسان، فتطالبَه أن يكونَ مثل فلان من الناس مع وجود فوارق بينهما في الهمة، والإمكانات، ومساعفة الأحوال، ثم تلومه، وتزري به ألا يكون مثل ذاك الذي فاقه من أقرانه.

ويدخل تحت هذه النبذة أفراد كثيرة من الأمثلة سواء في شأن الطلاب، أو الأزواج، أو الرؤساء، أو المرؤسين، أو الأصدقاء، ونحوهم.

وكم حصل من جراء مراعاة ذلك الأمر من خير كثير، وكم حصل من التفريط في شأنه من خلل، وفساد عريض.

وصفوة المقال أن المقارنات بابٌ يحصل فيه الخلط، والظلم؛ وأن التعامل الأمثل، والأنفع في ذلك الباب ـ ما كان ناشئاً عن عدل، وحسن نظر، وحكمة، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

تفاوت الناس في التعامل مع السخرية

قد يبتلى الإنسان في بداياته في العلم، أو التجارة، أو الوظيفة، أو نحو ذلك مما يسعى الناس إليه - بمن يسخر منه، ويرى أنه غير جديرٍ بما يرومه، أو يؤمله.

وقد تكون تلك السخرية من صديق، أو قريب، أو زميل، أو أستاذ، أو محبٍّ، أو شانئ.

ثم تمضي الأيام، فَيَصِل ذلك المسخور به إلى ما يصبو إليه؛ فَيُؤْثِرُهُ الله، فيعلو شأنه، ويتبوأ مكانةً في العلم، أو الجاه، أو المنصب، أو المال.

فمثل تلك الأحوال تقع كثيراً، بل لا يكاد يسلم منها أحد، وفيها مضطرب واسع لردود الأفعال، وميدانٌ فسيحٌ لامتحان الأخلاق، والمروءة، ومَحَكٌّ لتمايز الناس في طيب المعدن، وشرف النفس.

فإذا وقعت لك مثل تلك، فعلا شأنك، وتبوأت مكانةً عَلِيَّةً؛ فلقيت علماً بعد جهالة، ونباهة شأن بعد حِطَّة، وبسطة مالٍ بعد عَيْلةٍ - فما موقفك ممن كان يسخر منك، ويزري بك بعد أن آثرك الله عليه؟.

هل تأخذ بالتشفي، والتعالي، والسخرية به، والزراية عليه؟.

أو تأخذ بالتكرم، والتواضع، والتغاضي، والإحسان؟.

لا ريب أن ذلك راجعٌ إلى تربية الإنسان، ومنبته، وعنصره، وإيمانه، وعقله؛ فإن كان صغير النفس، خفيف العقل، مهزول المروءة - أخذ بالأُولى؛ فصار يتعالى، ويتشفَّى، ويسخر بمن سخر به، ويوحي بأنه وصل إلى ما وصل إليه بكدِّه، وجهده، وانتصاره على من وقفوا في طريقه.

وإذا كان ممن شَرُف وجدانُه، وكَمُل عقله، وطاب عنصره ـ أخذ بالثانية؛ فآثر التكرم، ولزم التواضع، ولم يقابل السخرية بمثلها، بل ربما أحسن إلى من سخر به، وعدَّه من أسباب رقيِّه؛ إذ كان كالوقود الذي يدفعه إلى المعالي؛ ويبثُّ فيه روح الجد، والمثابرة، والتحدي.

وهذا صنيع النفوس الزاكية التي تترفع عن الأضغان، وتقابل الإساءة بالإحسان.

بخلاف بعض النفوس الصغيرة التي لا تزال تُقَلِّب المواجع، وتنبش ما أكل عليه الدهر، وشرب.

والنتيجة أن الأول يتقلب من نعمة إلى نعمة، ومن عزٍّ إلى عز؛ فيكثر محبوه، وعارفو فضله، وتلهج الألسنة بالثناء عليه، والدعاء له، والاعتراف بفضله؛ فيزداد سروره واغتباطه، ويكون كلمة إجماع عند من يَقْدُرون المكارم قدرها.

ولو هوى بعد عثرة، ونزل من شموخه؛ لعارضٍ من العوارض لوجد مُتَّكَئاً.

وأما الثاني فبعكس ذلك تماماً.

الشجاعة صبر ساعة

قيل للقائد الشجاع أبي محمد عبدالله البطال: ما الشجاعة؟ قال: **صبر ساعة**.

وتلك كلمة حكيمة، تحتاج إلى شيء من البسط؛ إذ كثير من المواقف التي تستدعي الوقوف عندها، ويكون لها أثر في الحاضر أو المستقبل، وتتطلب من الإنسان أن يتخذ حيالها موقفاً معيناً ـ تحتاج إلى **شجاعة، وإلى صبر ساعة**، سواء كان ذلك في ميادين الوغى، أو البحث العلمي، أو في حال الغضب، أو الحوار، أو عند التطلع لشهوات محرمة، أو الرغبة في الوقوف مواقف الشهامة والمروءة.

والصبر ـ في حقيقته ـ هو حبس النفس عن شيء تحبه، أو حبسها على شيء تكرهه.

فإذا صبرَ الإنسان عن أشياء تُفْضِي به إلى شقاء وذلٍّ وهوان، وصَبَرَ على أشياء تؤول به إلى سعادة، وعز، وشرف ـ كان ذلك أرفع لمقامه، وأحمد في عاقبته.

وكثير من ذلك لا يحتاج إلى صبر طويل، قال عنترة مصوِّراً ذلك المعنى:

وصبرت عارفة لذلك حُرَّةً ... ترسو إذا نفس الجبان تَطَلَّعُ

وعلى هذا المعنى تتابعت وصايا الحكماء، قال أحدهم:

ليس الشجاعُ الذي يحمي مطيَّته ... يومَ النزالِ ونارُ الحربِ تشتعل

لكنْ فتىً غضَّ طرفاً أو ثنى بصراً ... عن الحرام فذاك الفارسُ البطل

وقال آخر:

إنـــــي إذا ذلَّ الجبـــــان عـَـــزَزْتُ في ظـــــل القـنـــاعـــــةْ

وأقـــول للـــــنفس احملـــــيني فالشـــجاعة صــــبر ســـــاعةْ

وقال الحسن البصري: «وجدنا خير الدنيا والآخرة في **صبر ساعة**».

وقال آخر:

وإن عــلاج مــن قــد ضــاق ذرعــاً بـــأدوار المكـــاره صـــبر ســـاعة

وهذا النوع من الصبر يحتاج إلى بصيرة نافذة، وتدبر للعواقب، وتدرب على تلقي المكاره.

فإذا أحكم الإنسان هذا النوع من الصبر كان حريًّا بحسن التصرف إذا بَدَهَه أمر مخوف، أو حَلَّ به فجاءة نقمة، أو تحوّل عافية؛ فيفضي به ذلك الصبر إلى رَوْحٍ، وسكينة، وحسن عاقبة.

معرفةُ القَدْر

كثيراً ما يشتكي الفضلاء من تجاهل من حولهم لهم، وقلة معرفتهم بأقدارهم.

وهذا الشكوى قديمة، وقد عبَّر عنها أحد العلماء بقوله:

وما أنا إلا المسك في كل بلدةٍ يضوع وأما عندهم فيضيع

ومعنى يضوع: الأول: ينتشر، من قولهم: ضاع المسك، أو تضوَّع: أي فاحت رائحته، وانتشر عبيره.

وهذا الكنود معروف يتوارد عليه الناس في كل عصر ومصر.

وينشأ ـ أحياناً ـ من الغيرة والحسد، وأحياناً من قلة اهتمام الناس بما لدى بعضهم من النبوغ والألمعية.

وينشأ ـ أحياناً ـ من الإلف؛ وكثرة المشاهدة، وقديماً قالوا: كثرة مشاهدة الأسد تفقده هيبته.

وغالب ما تنشأ من جهل الناس بما لدى الإنسان من المواهب وتفرده ببعض المناقب التي لا يعرفها إلا من هم على شاكلته وميوله.

ولهذا لا يعرف قدر العالم إلا عالم، ولا الأديب إلا الأديب، ولا الشاعر المُفْلِق إلا من هو كذلك، ولا الخطيب المِصْقَع إلا مثله.

وقل ذلك في غالب المجالات.

بل لقد لاحظت أن بعض الحمقى، والمجانين يعرفون قيمة بعض؛ فلا يكسر شوكة أحد منهم إلا من هو فوقه في الحمق والجنون.

ولقد قُدِّر لي في زمانٍ ما ، ومكانٍ ما أن اجتمع فيه أكثر من شخص ممن على تلك الشاكلة؛ فكان الواحد منهم يؤذي؛ فإذا جاء من يزيد عليه في الحمق والجنون أخمله ، وأراح من شره ، حتى لقد اجتمع في ذلك المكان ستة من أولئك ، وكان الناس يتبرمون منهم؛ فجاء مجنونٌ آخر وألقى نظرة واحدة على أولئك دون أن ينبس ببنت شفة؛ فأدبروا مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين؛ فأراح منهم جميعاً.

والمقصود مما مضى أن يمضي الإنسان الناجح في سبيله ولا يكبر عليه جهل من جهل مقداره؛ فجمال الشيء كامنٌ فيه ، ولا يضير الإنسان عدم معرفة الناس قدره.

الرأي الدَّبَرِيُّ

يتمايز الناس في عقولهم، وأذواقهم، وأخلاقهم بحسب ما أعطاهم الله من ذلك.

ومما يظهر به هذا التمايز ما يصدر عنهم من آراء سواء كانت مبادراتٍ منهم، أو نتيجةً لاستشارتهم في أي شأن من الشؤون.

وأهل السير والأخلاق يقسمون الآراء باعتبارات.

ومن ذلك تقسيمهم لها إلى ثلاثة: **الرأي الخمير، والرأي الفطير، والرأي الدبير** - ويقال له: الدَّبَرِي -.

فأما **الرأي الخمير** فهو الرأي الأصيل السديد الذي يصدر عن رزانة، وحصافة، ونصح، وشهامة خاطر، وجزالة مروءة.

وهو الرأي الناضج الذي تخمَّر في عقل صاحبه، فقلَّبه ظهراً لبطن، وصار فيه حُوَّلاً قُلَّباً يديره من جميع النواحي، وينظر من خلاله إلى كافة الاحتمالات؛ فيسد منافس الخلل، ويرفأ منافذ المحاذير؛ فيأتي مستوياً تماماً على الذي أحسن، موافقاً للصواب، مجانباً للزلل[1].

وأما **الرأي الفطير** فهو الذي ينقدح في ذهن صاحبه بادي الرأي من غير تدبر، ولا روية، ولا سابق تجربة، أو قياسِ أشباه إلى أشباه؛ فيأتي سريعاً غير ناضج.

وسُمِّيَ فطيراً لأنه كالخبز الذي يؤكل قبل أن يتخمر وينضج؛ فيكون مسبباً للعواقب الوخيمة، وربما يُوْدِي بصاحبه إلى الهلاك.

---

(١) وقد أشرت إلى ذلك بشيء من البسط في مقالة عنوانها (أصالة الرأي) ضمن كتابي (ارتسامات).

ولهذا قيل: «لا خير في الكلام القضيب، ولا الرأي الفطير».

وقيل: «خمير الرأي خير من فطيره».

وأما **الرأي الدبير** -وهو ما يسمى كذلك **بالرأي الدَّبَرِي**- فهو الذي يأتي بعد فوات الأوان؛ إذ هو مأخوذ من دبر الشيء.

والدبر هو آخر كل شيء منه، وما بعد آخره.

وهذا الرأي هو محل الكلام في هذا المقام؛ فالرأيُ الدَّبريُّ رأيٌ يأتي بعد فوات الحاجة إليه بغض النظر عن كونه فطيراً أو خميراً.

وإن كان إلى الفطير أقرب؛ إذ لا يكون من ورائه إلا الحسرة، والضيق، وشدة الأسف.

ولا يصدر -في الغالب- إلا من ذي نفس قلقة، أو مريضة، أو مترددة خائفة.

وهذا النوع من الآراء مذموم ممقوت، ولهذا قالت العرب في أمثالها: «شَرُّ الرأيِ **الدَّبَريُّ**».

وبعض الناس مولعٌ بهذا النوع؛ فتراه من أهل هذا القبيل؛ فإذا وجد فرصةً لإبداء رأيه الدبري بادر إليها سواء طُلب منه ذلك، أو لم يطلب منه.

وهذا الأمر الواقع يأخذ صوراً شتى؛ فمن ذلك أن يقوم إنسان بشراء سلعةٍ ما، أرضاً كانت، أو سيارة، أو ملبوساً، أو مأكولاً، أو ما جرى مجرى ذلك، ثم يقابله بعض أصحابه من ذوي **الرأي الدبري**؛ فيشرع بإبداء الآراء، ويظهر أن صاحبه لم يُصِبْ في شرائه، وأنه لو بَكَّر، أو تأخر مدة من الزمن لكان خيراً له، وربما وجد هذه السلعة بسعر أقل، أو بجودة أعلى، فَيُشْعِرُ صاحبه بقلة الفهم، وسوء التدبير، ويُمْطر عليه وابلاً من اللوم والتقريع، ويجلب عليه ما يجلب مما يوقعه في الغم، ويلقيه في بئر من الحسرات.

وقد يكون صاحبه استشار، واستخار، ورأى ملاءمة الأمر له، ولكنَّ ذا **الرأي الدبري** لا يترك عادته.

ومن أصحاب **الرأي الدبري** من لو استشرته في أمرٍ ما، وأنت تريد رأياً يتلاءم مع زمانك، ومكانك ـ لقال: لو أتيتني قبل يوم أو أسبوع لكان أحسن.

مع أنك لو أتيته في الوقت الذي حَدَّدَه لأجابك بنفس الجواب.

ومن صنيع أهل هذا الصنف ـأيضاًـ أن بعضهم لو استشير في أمر من الأمور قبل الشروع فيه ـ لأجاب إجابة مجملة محتملة دون أن يحدد لك رأيه بكل وضوح، وصراحة، أو أن يعتذر لك من كونه لم يحط بذلك الأمر خبراً.

وإنما يجيب بنحو ما ذُكِر؛ لكي يجعل لنفسه مخرجاً، ولأجل ألا يتحمل مغبة الرأي.

فإذا أسفر الأمر عما يسفر عنه؛ فكان السداد في الإقدام، أو الإحجام ـ صار يقول: هذا رأيي، وأنا الذي أشرت به سالفاً.

وإن كانت الأخرى؛ فلم يحالفِ المستشيرَ الصوابُ ـ صار ذلك المستشارُ زارياً، أو عائباً للمستشير، مبدياً له أنه لم يَمِل كل الميل إلى ذلك الرأي، وأن إخفاقه إنما كان بسبب مخالفته لرأيه؛ فتراه يُضْجِر صاحبه بقوله: لقد قلت لك كذا وكذا، ولو أنك أطعتني لما وقعت فيما وقعت فيه.

والشواهد والأمثلة من هذا القبيل كثيرة، وإنما المقصود ههنا الإشارة إلى أن أصحاب الرأي الدبري كثير، وأنهم من سارقي السعادة، وجالبي الهموم، ومُجْتَرِّي المآسي والأحزان.

وفي هؤلاء شبه ممن ذمهم الله ـ عز وجل ـ لقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ آل عمران: ١٥٤ .

والذي حذرنا الله من صنيعهم بقوله ـ جل ثناؤه ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ ﴾ آل عمران: ١٥٦ .

ولقد حذَّرنا النبيﷺ من قول (لو) على سبيل الاعتراض على ما مضى، مما لا يمكن تداركه، وأخبر ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن (لو) تفتح عمل الشيطان؛ لما تجلبه من الهم والغم.

قال الحكيم العربي:

ليت شعري وأين مني ليتُ إن ليتاً وإن لوًّا عناء

والذي تقتضيه الحكمة، والأمانة، والنظر في المآلات ـ أن إذا استشير الإنسان أن يبدي الرأي بكل وضوح إذا كان عنده دراية بما استشير به، أو أن يحيل إلى من هو أَسَدُّ منه، أو أن يعتذر إذا لم يكن هذا ولا ذاك.

وإذا لم يُسْتَشَرْ فليلزم السكينة، والوقار، ولْيَحْتَفِظْ برأيه لنفسه.

وإذا أشار فلا يجوز له أن يُدِلَّ برأيه، أو يَمُنَّ على من استشارة.

وإذا أخبره، أو أطلعه أحد من الناس على أمر من أموره التي اختارها أو صنعها من نحو شراء سلعة، أو بناء منزل، أو نحو ذلك ـ فعليه أن يُظهر الفرح لصاحبه، ويدعو له بالخير، والبركة، وحسن العاقبة.

وعليه ـأيضاًـ أن يَكُفَّ عن المقترحات التي تضر ولا تنفع، وأن ينأى بنفسه عن إيقاع صاحبه في الحسرة، والندامة؛ ففرق بين رأي تبديه قبل الشروع في أمرٍ ما، وبين أن تبديه بعد الفراغ منه.

ثم إن من تمام مروءة الإنسان، وأصالة رأيه، وسعة صدره ـ أنه ربما أشار برأيٍ ما، ثم خالف المستشيرُ ذلك الرأيَ؛ فجاءت الأمور على غير ما أريد لها،

فوقعت الخسارة، أو لم يحصل النُّجحُ في المقاصد؛ فههنا يأتي دور مكارم الأخلاق؛ فإذا كان المشير راسخاً في الفضيلة ـ لم يُثَرِّب على صاحبه ـ خصوصاً إذا لم يكن أحمق الطبع، أخرق التدبير.

وإنما يأخذه بيده، ويذكره بخفاء الخِيْرَةِ؛ فلا يجمع عليه بين الهم والغم، والخيبة وصفر العَيْبة.

بل قد يفتح له وجوهاً مُنْسَدَّةً من الرأي، وأبواباً مغلقة من الصواب؛ فينتج عن ذلك مزيدُ علمٍ، ورجاحةُ عقل، وتحوُّط لما يكون في قابل الأيام.

وهؤلاء العقلاء من ذوي الآراء السديدة، والقلوب الكبيرة، طِرَافٌ سامي الذرا، وكهف يأوي إليه من أصابته لفحة الضيم، أو حسرة الخسارة.

ورحلت يا أبا ناصر

في يوم الأربعاء الموافق ٢٧ /٢ /١٤٢١هـ ودعت محافظة الزلفي كريماً من كرمائها، وسريًّاً من سَرَاتها، وعلماً من أعلامها[١].

وَدَّعَتْ رجلاً أحبه الكبير والصغير، والقريب والبعيد، وأجمع على فضله كل من رآه، أو جالسه، أو سمع به.

وَدَّعَتْ أبا ناصر الشيخ الوجيه عبدالمحسن بن محمد المسعر الذي وافاه أجله المحتوم يوم الثلاثاء ٢٦ /٢ /١٤٢١هـ عن عمر يناهز المائة وثلاثة أعوام، حيث ولد عام ١٣١٨هـ.

ولقد عرفت هذا الرجل منذ نعومة أظفاري؛ حيث التحمت بينه وبين والدي -رحمهما الله- علاقة وطيدة، وصداقة حميمة لا يزيدها تقادم الأيام إلا رسوخاً وثباتاً.

ولقد كان رحمه الله يرتاد مجلس والدي بصورة يومية تقريباً، بل وربما التقيا في اليوم الواحد أكثر من مرة، ويدور بينهما أحاديث كثيرة، وأغلبها يدور حول مصلحة الزلفي وما تحتاج إليه.

ولا زلت أتذكر كلماته التي كان يرددها كثيراً إذا دخل على والدي المتوفى ١٤٠٤/١٢/٣٠هـ حيث كان يقول: «آه! ليت الأعمار تُهدى أو تشترى يا أبا أحمد، لو كانت كذلك لأعطيناك من أعمارنا، ليتنا نستطيع أن نعطيك ولو عشرين سنة، ليتك ترجع شاباً».

١ـ وقد كتبت هذه الكلمة بعد وفاته رحمه الله بيومين.

وإنك لتعجب من سيرة هذا الرجل أشد العجب، وتحار عندما تريد الكتابة والحديث عنه أشد الحيرة؛ فمن أين تبدأ ومن أين تنتهي، وذلك لما جمع الله له من حميد الخلال، وكريم الخصال التي لا تكاد تجتمع إلا في القليل النادر من الرجال.

كل ذلك مع أنه عامي لا يقرأ ولا يكتب، ويصدق عليه قول ابن حزم رحمه الله: «وقد رأيت من غمار العامة من يجري في الاعتدال، وحميد الأخلاق، إلى ما لا يتقدمه فيه حكيم عالم رائض لنفسه، ولكنه قليل جداً».

وإنَّ من أعجب ما يُلحظ في سيرة هذا الرجل خُلُقَه العظيمَ، وكرمَه المتناهي الذي جبل عليه دون أن يتكلفه، بل كان يجري معه مجرى الدم، ويتخلل منه مسلك الروح؛ فلا تراه إلا هاشًّا باشًّا، متلطفاً، متهللاً، ينطبق عليه قول البحتري:

خُلُقٌ أُتيت بفضله وسنائه ... طبعاً فجاء كأنه مصنوع

وحديثُ مجدٍ منك أفرط حسنُه ... حتى ظننا أنه موضوع

لا يبلغ العلياء غير متيم ... يبلوغها يعصي لها ويطيع

لقد حباه الله أدباً جمًّا، ولساناً عفًّا، وراحةً كريمةً، ونفساً طاهرة زكية؛ فلا تراه يذكر أحداً بسوء، ولا تجده يحمل الحقد أو الحسد، ولا تُلْفِيْهِ يسيء لأحدٍ من جلاسه بكلمة أو إشارة.

وكان أنسه وسروره يزيد إذا قدم عليه الضيوف والزائرون؛ حيث ترى مظاهر البشر والسرور، والتلطف تلوح من على جبينه، وترى تحاياه تتسابق مرحبة بالقادمين إلى مجلسه.

وإذا أردت أن تحسن إليه، أو تدخل السرور على قلبه فقم بزيارته، أو عِدْهُ بذلك.

وله في ذلك أخبار يقضي منها العجب.

ومنها أنه كان في يومٍ من الأيام مريضاً في المستشفى، فزاره أحد الوجهاء، فسأله عن صحته، فقال: إنني بخير، ولو أعطيتني موعداً قريباً لشفيت -بإذن الله-.

فقال له ذلك الوجيه: غداً موعدنا، فما كان من أبي ناصر إلا أن تَحَفَّز، وقويت نفسه، وخرج من المستشفى كأن لم يكن به بأس، فزاره ضيفه، فأكرمه، وسُرَّ به.

ولا يخطر ببالك -أيها القارئ- أن كرمه مقتصر على الوجهاء فحسب، بل كان هذا دأبه مع كل أحد، ولو لم يكن يعرفه، حتى إنك إذا دخلت عليه للزيارة أو رأيته في أي مكان ظننت أنه لا يعرف سواك من حسن استقباله، وتلطفه وحلاوة منطقه حتى ولو كان يعاني ما يعاني من شدة المرض؛ فإذا دخل عليه غيرك قلت: لا يعرف سواه من حسن استقباله.

وهكذا كان ديدنه مع الناس جميعاً، بل كان هذا ديدنه مع العمال والأطفال الذين لا يأبه بهم كثير من الناس.

ومن غريب رحمته بالعمال والضعفاء وإكرامه لهم - أنه إذا صلى في المسجد، وصلى معه أحد من هؤلاء أخذ أحذيتهم بعد الصلاة، وقال له: «من أراد حذاءه فليأت إلى البيت».

فإذا دخلوا عليه أكرمهم، ووصلهم بما تيسر ثم رد عليهم أحذيتهم!

وكان من عادته -خصوصاً- في الأعياد أنه يضع بجانبه ربطة كبيرة من النقود الورقية، فإذا دخل عليه أحد من الصغار أو الفقراء تناول منها ما شاء الله، وأعطاها إياهم.

سمح اليدين إذا احتبى في مجلس كان الندى صفة لذاك النادي
انظر إليه إذا تلفت معطياً نيلاً وقل في البحر والوراد

وكان رحمه الله زاهداً في الدنيا، عزيز النفس، عف اليدين، مترفعاً عن مسألة الناس، راضياً بعيشه الكفاف، حتى إنه لم يكن يسأل أحداً من أبنائه شيئاً من متاع الدنيا -كما حدثني بذلك ابنه عبدالله- بل لم يكن يسألهم إلا عن صلاتهم، ومروءتهم، وصحبتهم، وأمور دينهم، ونقاء سيرتهم.

وكان رحمه الله شديد المحافظة على الصلاة حريصاً على التبكير إليها، وكان يسأل عن وقت الصلاة قبل دخوله حتى في أوقات مرضه الشديد مع أنه لم يكن يحمل الساعة، حتى إنه في آخر أيامه لم يكن يسأل إلا عن الصلاة.

وكان رحمه الله ذا نفس مطمئنة، واثقة بالله، مؤمنة بقضائه وقدره، حتى إنك لتعجب من حاله وهو في شدة المرض التي تعاوده في فترات عمره، إذ تراه ساكن الجوارح، مطمئن البال، منشرح الصدر، لا يتبرم ولا يشكو ولا تسمع منه إلا كلمات الحمد، والشكر والثناء على مولاه -عز وجل-.

وهذا سرٌّ من أسرار تمتعه بطول البقاء، فلم يكن يعرف الجزع، ولا الهلع، ولا كثرة الشكوى.

وكان رحمه الله ذا بديهة حاضرة، وتصرف حسن، فلا يكاد يضيع عنه الجواب، ولا يكاد يوضع في موقف محرج إلا أحسن التخلص منه.

وله في ذلك الشأن قصص كثيرة جداً يعرفها أولاده، وأقرباؤه، وجلاسه.

ولقد وهبه الله أبناءً بررة، وهم ابنه الأكبر ناصر رحمه الله الذي توفي في حياة والده، وعبدالله، ومحمد، وشايع، وعلي، وأولادهم.

ولقد كان أبناء الشيخ عبدالمحسن من أبر الناس؛ فكانوا يحبونه حبًّا جمًّا، ويؤثرونه على أنفسهم، ولا يستطيعون فراقه في ليل أو نهار، بل كانوا يأنسون أشد الأنس بخدمته، وملاحظته، وفهم إشاراته، ومعرفة ما يحب.

وإنك -والله- تستفيد منهم دروساً عملية في البر إذا رأيتهم حوله، وهم يتلذذون ببره، فلا تشعر أنهم يؤدون واجباً فحسب، بل تراهم يقومون بعمل يشعرون فيه بالمتعة والسعادة.

ولقد كان رحمه الله نعم المعين لأولاده على بره، فلم يكن يكهرهم، أو ينهرهم، أو يزجرهم، أو يكثر عتابهم.

بل كان يعاملهم معاملة الصديق لصديقه، والأخ الشفيق لأخيه؛ فتراه يسأل عنهم، ويمازحهم، وينادیهم بكناهم، ويكثر الدعاء لهم.

حتى إن أحفاده وأقاربه وصغار الأسرة يحبونه، ويكثرون التردد عليه، بل إن بعضهم يحرص على حضور مجلسه بصورة يومية.

يحدثني الشيخ عبدالله بن حمود المسعر قبل مدة أنه بنى بيتاً جديداً بعيداً عن بيته الأول المجاور لعمه أبي ناصر، ولكن لم تطب نفسه بفراق عمه؛ فآثر جوار عمه، ولم يسكن منزله الجديد إلا بعد انتقال عمه من منزله الأول إلى منزله الجديد.

وبهذا الأدب الجم، والأخلاق العالية، والكرم المتناهي، والبديهة الحاضرة، والعفة والزهادة هوت إليه الأفئدة، وأجمعت على محبته القلوب؛ فصار الناس

يقصدونه بالزيارة، ويأنسون كل الأنس به وبمجالسته، حتى لقد أصبح علماً من أعلام البلد، بل ومثلاً يحتذى به بكرم الأخلاق وحسن المعاملة.

ولقد كان من فضل الله علي أن عرفته وأنا في الخامسة من عمري تقريباً؛ لكثرة ما أراه في مجلس الوالد، ولما ألقاه من لطفه، وحسن تعامله، وكثرة تحفيزه، ورفعه من شأن الصغار.

ولي معه مواقف كثيرة لا أزال أذكرها إلى اليوم، وهي تدل على تلك النفس الكريمة.

ولعلي في هذا المقام أقتصر على واحد منها.

وهو أنني لما كنتُ في السابعة من عمري أرسلني والدي ﷺ إلى صديقه الوجيه عبدالمحسن المسعر في ضحى أحد الأيام، وقال: اذهب إليه في مزرعته، وقل له: لا بد أن يأتي الآن، وكانت مزرعة أبي ناصر -وهي موجودة إلى الآن- تبعد عن منزلنا قرابة ثلاثة كيلو مترات، وكانت الطريق آنذاك موحشة؛ لقلة من يمشي بها، فذهبت إليه راجلاً، فوجدته مشمراً عن ساعديه؛ يعمل في سقي النخل، والزرع، وبيده مسحاة يَعْدِل بها الماء، فسلمت عليه، وقلت له: إن أبي يدعوك لتأتي إليه، فقال: الآن؟ فقلت: نعم، يقول: لا بد أن تأتي الآن.

فما كان من العم عبدالمحسن إلا أن ألقى المسحاة، وترك العمل، ثم نادى بصوت مرتفع أَحَدَ من كانوا في المزرعة؛ ليقوم مقامه، ولم أدرِ من المنادى آنذاك، وإنما رفع العم عبدالمحسن صوته، وقال: أبا حمود، أبا حمود؛ فظننتُ أن المنادى كبير السن؛ إذ لم أكن أسمع بمن يُكَنَّى إلا من شابت لحاهم؛ فما هي إلا لحظات، ثم أقبل شابٌّ لم يطرَّ شاربه بَعْدُ، فقال: سم يا عم، فقال: واصل

العمل، وقم بسقي النخل، والزرع، وأتمم عملي فيه، فقال ذلك الشاب: أبشر يا عم، ثم بدأ بمباشرة المهمة.

فقلت للعم عبدالمحسن: يا أبا ناصر! هل هذا أبو حمود الذي كنت تناديه؟ فقال: نعم.

ثم رآني مستغرباً، فقال: ما لك يا محمد؟ فقلت: كنت أظن أن المنادى رجلٌ كبيرٌ في السن، وإذا به هذا الذي أمامي - وكان من عادات أبي ناصر الجميلة أنه كان يكني أبناءه، وأبناء إخوانه، حتى الصغار منهم - فما كان من أبي ناصر رحمه الله إلا أن ضحك كثيراً، وقال: نعم هذا أبو حمود.

وأبو حمود هذا هو الصديق الشيخ عبدالله بن حمود المسعر، والشيخ عبدالمحسن عم لوالده.

ثم أتى الشيخ عبدالمحسن إلى والدي، ودار بينهما حديثٌ إلى أذان الظهر.

ولما صلينا الظهر ناداني والدي، وقال: «ماذا قلت اليوم لأبي ناصر؟».

فأصابني خوفٌ شديد؛ خشيةَ أن أكون أخطأتُ في حقِّ أبي ناصر، ولكنني أعلم يقيناً أن أبا ناصر لن يصدر منه إلا الخير، وزادت طمأنينتي لما رأيتُ والدي يتبسم تبسم الراضي، فقلت: لا أدري؛ عسى ألا أكون أخطأت، فقال: «هل أنت محتقر لولدهم؟ وهل تكاثرت عليه أن يكنى؟».

فقلت: لا، ولكنني ظننت أن المكنى رجل كبير مثلك، أو مثل أبي حمين، أو حمد الذويخ، فتبسم، ثم قال: «أبو ناصر مسرور منك، وأعجبه ذلك الموقف».

وكان ذلك الموقف في حدود ١٣٩١هـ أو ١٣٩٢هـ، ولم يزل العم عبدالمحسن المسعر يردده عليَّ في كل مناسبةٍ؛ فكل ما زرته وكان عنده ابن أخيه الشيخ عبدالله المسعر، قال وهو يبتسم: يا أبا إبراهيم! هذا أبو حمود، هذا أبو حمود.

وفي آخر مرة زرته، وهو في العناية المركزة، وكنت أظن أنه لا يشعر بأحد، فأشار بطرفه إلى ناحية عبدالله المسعر، وقال: هذا أبو حمود.

ولا يزال الصديق الشيخ عبدالله المسعر يقول: الحمد لله هذا شهادة على أنني شاب صغير، ولست من الكبار.

ولقد كان رحمه الله يعاني من مرض منذ زمن بعيد، ولكن المرض اشتد عليه قبل أن يفارق الدنيا بيومين، وبعد ظهر الثلاثاء رأى أبناؤه وجمع من أقاربه ممن كانوا حوله آنذاك -كما يحدث ابنه عبدالله- رأوا نوراً يشع من وجهه، ورأوا أصبعه السبابة مرفوعة إلى السماء ولاحظوه وكأنه يتمتم بكلمات لا يكاد يبين بها، ولاحظوا رشحاً يعلو جبينه، وبعد المغرب فاضت روحه إلى بارئها، ولعل هذا من حسن الخاتمة.

وما هي إلا فترة وجيزة حتى انتشر الخبر، وعم الناس الأسى والحزن، وحدد موعد الصلاة عليه ظهر الأربعاء ٢٧ /٢ /١٤٢١هـ وتوجه الناس إلى المسجد الجامع للصلاة عليه، ثم إلى المقبرة لدفنه، وألسنتهم تلهج بالدعاء له، والثناء عليه، وعيونهم تبكي فراقه، وقلوبهم تعتصر لفقده.

حقاً إن المصاب به لعظيم، وإن الخطب به لجلل، وإن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنا على فراقك يا والدنا لمحزونون، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا.

رحمك الله يا أبا ناصر، وأسكنك الفردوس الأعلى، وأنزل على محبيك الصبر والرضا، والسكينة واليقين، وعوضهم بفقدك خيراً وإيماناً وصلاحاً للأعقاب.

الشجاعة بوصفها قيمة أخلاقية
عُبيد النتيفي نموذجاً
شذرات من سيرته وأخباره

الشجاعة فضيلة عظيمة، وخصلة من خصال الخير عالية؛ فهي أحد المرتكزات الأخلاقية، وهي من أعظم ما يُمدح به الإنسان.

بل هي مما اتفقت على حسنه الشرائع السماوية والفطر السوية، وهي محل إجماع عند سائر الأمم؛ فالشجاع يخاف من العار الذي يلحقه من احتمال الضيم، أو يرغب في أن يدرك مجداً شامخاً، فيقوده ذلك إلى أن يلقي بنفسه في مواقع الشرف، لا يلوي جبينه عن طعان أو نضال.

والأمة لا تحوز مكانة يهابها خصومها، وتقر بها عين حلفائها ـ إلاَّ أن تكون عزيزة الجانب، صلبة القناة.

وعزة الجانب، وصلابة القناة لا ينزلان إلاَّ حيث تكون قوة الجأش، والاستهانة بملاقاة المكاره، وذلك ما يسمى شجاعة.

وحد الشجاعة ـكما يقول ابن حزمـ بذل النفس للموت عن الدين، والحريم، وعن الجار المضطهد، وعن المستجير المظلوم، وعن الهضيمة ظلماً في المال، والعرض، وفي سائر سبل الحق.

والشجاعة لا تقتصر على الإقدام في ميادين الوغى، بل هي أعم من ذلك، فتشمل الشجاعة الأدبية في إبداء الرأي، وكبح جماح الهوى إذا طغى، وقول الحق ولو على النفس، وبالاعتراف بالخطأ، وبالرجوع إلى الصواب إذا تبين،

ونحو ذلك من ضروب الشجاعة، مما يراعى به الحكمة، ومعرفة مقادير الأمور، وتدبر المآلات.

وليس من شرط الشجاعة ألا يجد الرجل في نفسه الخوف جملة من الهلاك، أو الإقدام، أو نحو ذلك، فذاك شعور يجده كل أحد من نفسه إذا هو همَّ بعمل كبير أو جديد.

بل يكفي في شجاعة الرجل ألا يعظم الخوف في نفسه حتى يمنعه من الإقدام، أو يرجع به إلى الانهزام.

قال هشام بن عبد الملك لأخيه مسلمة: يا أبا سعيد، هل دخلك ذعر قط لحرب أو عدو؟

قال مسلمة: ما سلمت في ذلك من ذعر ينبه على حيلة، ولم يغشني فيها ذعر سلبني رأيي.

قال هشام: هذه هي البسالة.

والشجاعة إذا اقترنت بالتدين، والعقل، والحكمة، والكرم بلغ صاحبها من العلياء كل مكان؛ إذ لا مثل الشجاعة في الحكيم، ولا أجمل من مرأى الشجاع الكريم؛ فلا يتم صلاح للناس في دينهم ودنياهم إلا بالشجاعة والكرم -كما يقول ابن تيمية-.

قال أبو الطيب المتنبي:

وكل شجاعة في المرء تُغني ولا مثل الشجاعة في الحكيم

وقال منبهاً على أن الشجاعة الحقة لا تستقل عن أصالة الرأي:

الــرأي قبــل شــجاعة الشــجعان … الــرأي قبــل شــجاعة الشــجعان

فــإذا همــا اجتمعــا لــنفسٍ مِــرَّةٍ … بلغــت مــن العليــاء كُــلَّ مكــان

ولقد جاءت نصوص الشرع مثيرة للشجاعة في نفوس المؤمنين، مجتثة جراثيم الخور والجبن؛ إذ الإيمان مصدر الشجاعة، والأَمَنَةِ، والطمأنينة.

قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ آل عمران.

وقال: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ الأنعام.

وصوَّر حال المنافقين، وما هم عليه من الخور، والريبة، وحُسْبَانِهِمْ كُلَّ صيحة عليهم ـ بما لا مزيد عليه مما تنطوي عليه أفئدتهم من فقدان الشجاعة.

ومن تفقَّه في التقوى أدرك أنها الوسيلة العظمى لتحقيق الشجاعة الصادقة؛ فالتقوى هي العُدَّة في الشدائد، والعون في الملمات، وهي متنزل السكينة، ومَهْبِطُ الرَّوح والطمأنينة، وهي التي تثبت الأقدام في المزالق، وتربط على القلوب حال الفتن.

ثم ما يستتبع التقوى من الإيمان بالقدر، والأخذ بالأسباب، والنظر في العواقب، ومعرفة قدر النفس، وتوطينها على وقوع المكروه، ونحو ذلك مما تستجلب به الشجاعة.

ثم إن الكلام عن الشجعان -حقيقة- مما تنشرح له الصدور، وترتقي به الهمم، وتُعْمَر به المجالس.

وقد نقل أبو العباس الميورُقي عن بعض من يثق بعلمه ودينه أنه قال: «الاشتغال بنشر أخبار فضلاء العصر - ولو بتواريخهم - من علامات سعادة الدنيا والآخرة».

إذ في ذلك فوائد جمة؛ حيث يحصل به إحياء الذكر، وحصول الأجر، وتسلسل الثواب، وزيادة العقل، ومعرفة الأمور على وجوهها، والوقوف على ما يُصْلِح أمر المعاد والمعاش، والنظر في تقلب الأيام وتصاريف الأحوال.

وقد ذكر السخاوي في كتابه الماتع (الإعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ التاريخ) أطرافاً كثيرة من هذا القبيل، وبيَّن ما تنطوي عليه الكتابة عن أمثال أولئك؛ فذكر أن من أعظم الفائدة، وأكثر النفع لذوي الهمم العالية، والقرائح الصافية ما كان فيه ذكر لذوي المروءات، والأجواد المتصفين بالوفاء ومحاسن الأخلاق، والمعروفين بالشجاعة.

ثم علل لذلك، فقال: «لما جُبِل عليه طباعُهم من الارتياح عند سماع هذه الأخبار إلى التشبه والاقتداء بأربابها؛ ليصير لهم نصيب من حسن الثناء وطيب الذكر الذي حرص عليه خلاصة البشر».

وثمرة ذلك -كما يجمله السخاوي-: «الترغيب، والترهيب، والتنشيط، والتغبيط، والإنذار، والاعتبار، والتسلي، والتأسي، والنصح، والنُّجح».

والعلماء كابن حزم، والماوردي، وابن تيمية، وابن القيم، وغيرهم إذا تكلموا على مكارم الأخلاق، ومقومات المروءة - عُنُوا بالشجاعة، وأولوها اهتماماً بالغاً.

بل إن بعض العلماء -كالشيخ محمد الخضر حسين- أفرد الشجاعة بالبحث والتحليل.

وفي ذلك بيانٌ لمعالم الشجاعة، وحدودها، ورسومها، وأسبابها، وتوجيه ما قيل في مدحها من الشعر، وتنزيل ذلك على أحوال الشجعان وأخبارهم، وتحليل ما يسوغ من ذلك وما لا يسوغ مما يراعى به اختلاف الأحوال والأشخاص[1].

وبعد فهذه شذرات من سيرة رمز من رموز الشجاعة في عصرنا الحاضر، وممن له شهرة في ذلك الشأن في بلدنا الزلفي.

ألا وهو الشجاع القوي الأمين النزيه عبدالله بن أحمد بن إبراهيم بن علي النتيفي المشهور بـ (عُبيد النتيفي) حيث سَيُسلط الضوء على هذه الشخصية، وينظر في القيمة الأخلاقية لشجاعته، وهل هي من الشجاعة المحمودة؟ وهل صاحبها داخل في قبيل الشجعان حقاً، ومنتظم في سلكهم صدقاً؟

وقبل الدخول في تفصيل الكلام عنه يحسن القول بأن هناك أقراناً معاصرين له في بلدنا الزلفي، كالشجاع عبدالعزيز بن محمد العصيمي المعروف بـ (العفاش) والشجاع المعروف صالح الجويعي وغيرهما.

ولكن تيسر لي من سيرة عبيد النتيفي ما لم يتيسر لغيره من أولئك، ولعل الله ييسر شيئاً من سيرة أولئك في قابل الأيام.

فهؤلاء الشجعان عاشوا أوجهم في القرن الرابع عشر الهجري؛ فالجويعي لا أعرف ولادته ولا وفاته بالتحديد، وعبدالعزيز العصيمي ولد عام ١٢٩٨هـ

---

(١) وقد يسر الله تفصيل الكلام في ذلك الشأن في كتابي (الهمة العالية).

وتوفي عام ١٤٠٨ هـ عن مائة وعشر سنوات -حسب إفادة الشيخ محمد بن سليمان الخزعل العصيمي-.

وقد أدركت عبدالعزيز العصيمي، ورأيت من عجيب خلقه ما يطول منه العجب، وهو وأخباره مما يستحق أن يفرد بالتأليف.

وأما عبيد النتيفي فقد ولد عام ١٣١٦هـ وتوفي عام ١٣٦٢هـ على المشهور؛ ففارق الحياة وهو في أوج نشاطه، ووفور صحته، وقوة بدنه.

والجامع المشترك بين هؤلاء: قوة البدن، وشجاعة القلب، والتدين، والعقل، والبعد عن الخطأ.

وهؤلاء الثلاثة قَلَّ أن يُتَحَدَّث عن شجاعة المعاصرين في بلدنا الزلفي إلا ويأتي ذكرهم.

وقد تيسر لي ما تيسر من سيرة عبيد النتيفي بحكم العلاقة المتينة بين أُسْرَتِيْ -أسرة الحمد- وأسرة النتيفي من أهل الزلفي، وذلك بحكم الجوار في الحي، وفي أملاك الأسرتين في ضاحية عريعرة؛ إذ كان جد عبيد: إبراهيم بن علي النتيفي من وجهاء ضاحية عريعرة، ومن أهل الحل والعقد، ومن ذوي الصلاح والعبادة والتقى.

وكان من أعز الأصدقاء لجد الوالد: حمد بن عبدالعزيز الحمد -رحمهم الله-.

ووالد عبيد: أحمد بن إبراهيم بن علي كان صديقاً للوالد: إبراهيم بن أحمد الحمد؛ فوالدي ولد عام ١٣١١هـ وتوفي في ١٤٠٤/١٢/٣٠هـ.

ويشهد لتلك العلاقة: الكثيرُ من الوثائق الموجودة لدينا، وقد أوردت العديد منها في كتابي عن الوالد المعنون بـ (إبراهيم بن أحمد الحمد أمير الزلفي من عام ١٣٦١-١٣٧٠هـ).

وبعض تلك الوثائق التي فيها ذكر لإبراهيم بن علي النتيفي وشهاداته على بعض البيعات ترجع إلى عام ١٢٧٧هـ، و١٢٨٨هـ.

وكذلك وصية جدة والدي فضة بنت محمد الفهيد زوجة جد والدي: حمد بن عبدالعزيز الحمد، وقد كتبت في ١٢٩٩/٧/٢هـ، وهذا نصها بخط الشيخ عبدالرزاق المطوع، وشهادته، وشهادة الوجيه إبراهيم بن علي النتيفي:

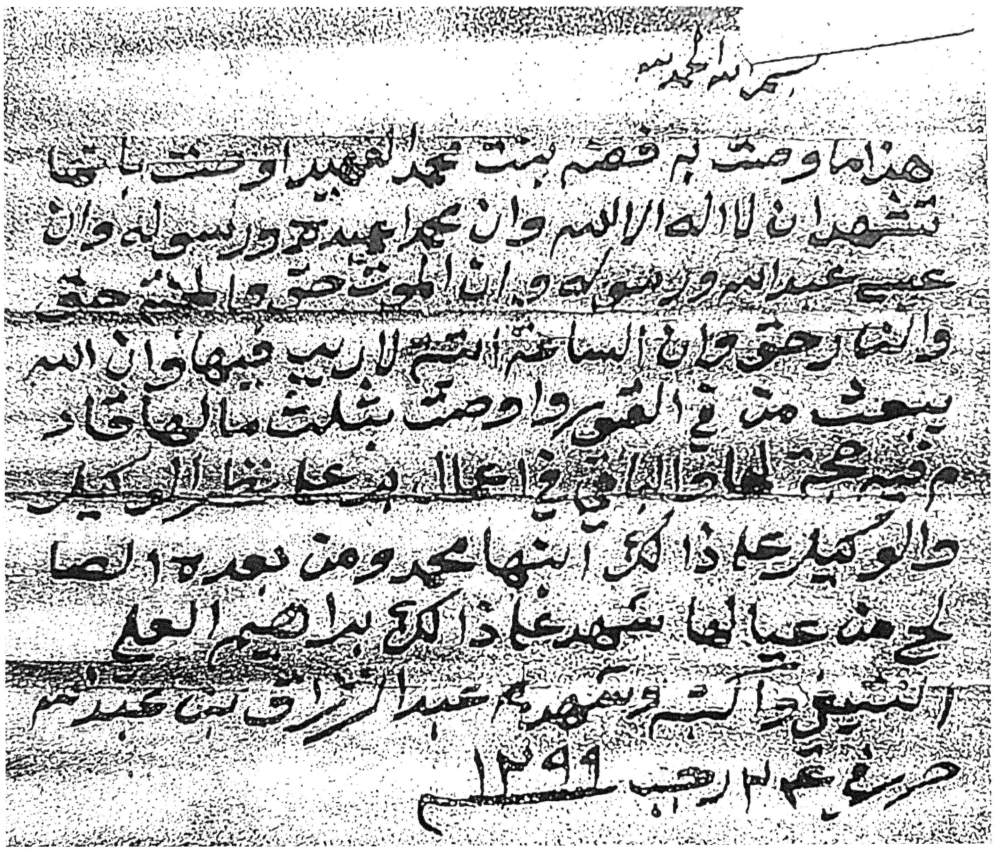

وهناك وثائق تتضمن شهادات لأحمد بن إبراهيم النتيفي وترجع إلى تواريخ ١٣٥٠/٥/٢٦هـ، و١٣٥١/٥/٢هـ، و١٣٥٨/٩/١٦هـ.

وكذلك كان عبيد النتيفي صديقاً للوالد، وبينهما أخبار سيرد ذكر لبعضها.

وكذلك كان ابنا عبيد -إبراهيم وسليمان- صديقين وفيين للوالد، وكانا يعاملان الوالد معاملة الأب، وكان يعاملهما معاملة الأبناء؛ إذ كان ارتباطهما قويًّا به مذ كانا صغيرين بعد وفاة أبيهما.

وقد حفظا ذلك الود؛ فكانا من أوفى الناس، وأبرهما بالوالد[1].

والآن آن أوان الشروع بتفصيل ما تيسر من سيرة عبيد النتيفي وأخباره.

مولده وبيئته: ولد عبيد النتيفي في ضاحية عريعرة في الزلفي عام ١٣١٦هـ؛ فهذا هو المشهور، والأقرب.

وقد يكون ولد بعد ذلك؛ إذ إن شقيقه محمداً رحمه الله أكبر منه بسنتين.

ومحمد ولد كما هو مثبت في تابعيته عام ١٣١٨هـ.

---

(١) ولما غادر الوجيه إبراهيم العبيد رحمه الله الزلفي، واستقر في الرياض للعمل هناك، وغادر أخوه العميد سليمان رحمه الله الزلفي، وعمل في أماكن شتى في السلك العسكري - لم ينقطعا عن الوالد حتى وفاته.

وبينهما وبين الوالد أخبار يطول ذكرها من الدالّة، والمودة.

ولما توفي الوالد رحمه الله لم تنقطع صلتهما بالأسرة حتى توفيا -رحمهما الله- وقد أخبرني الصديق الأستاذ عبدالحكيم بن بكر بن عبدالله البكر -حفظه الله- أن العميد سليمان كان يُرسل لهم كل سنة حتى مات أضحيتين: الأولى عن الوالد إبراهيم الحمد، والثانية عن زوج أمهما بعد وفاة أبيهما الشيخ عبدالله البكر -رحمهم الله جميعاً-.

ثم حدثني -بعد ذلك- الأخ نايف بن عبدالعزيز العراجة -وهو قريب جداً من العميد سليمان في الزلفي أواخر حياته- بقريب مما حدثني به الأستاذ عبدالحكيم.

يقول الأخ نايف -حفظه الله-: «إن سليمان العبيد يضحي لوالدك كل سنة بأضحيتين الأولى يرسلني بها إلى البكر، والثانية تُذبح في منزله، ويوزعها بنفسه، وقد استمر على ذلك حتى توفي رحمه الله وأنا الذي كنت أتولى ذلك».

وعلى هذا يكون ميلاد عبيد عام ١٣٢٠هـ.

ولكن ذلك ليس دقيقاً بكل حال؛ إذ الناس لا يضبطون تاريخ الولادة على وجه التحديد، وإنما يذكرونه حال إخراج التابعية على وجه التقريب؛ إذ إن إخراجهم للتابعية يكون متأخراً عن ولادتهم؛ فقد أخرجها محمد ﷺ بعد أن تعدى الستين من عمره تقريباً.

والحاصل أن عبيد النتيفي ولد على الأرجح عام ١٣١٦هـ وإن كان لا يبعد أنه ولد عام ١٣٢٠هـ، وعاش حياته في مدينة الزلفي، وفي ضاحية عريعرة التي هي موطن أبيه وأجداده.

ويطلق على هذه الضاحية عدة ألقاب، فتارة يقال: **شعيب عريعرة**؛ إذ يجري في وسطها الماء المتحدر من سائر تلاعها المنحدرة من جبال طويق، فيسير في واديها، ويتفرع إلى أن يصل إلى السيح وعلقة وغيرها.

وتارة يقال: **قرية عريعرة**؛ لأنها كانت في فترة من الفترات آهلة بالسكان.

وتارة يقال: **ضاحية عريعرة**؛ لأنها إحدى ضواحي الزلفي، ومنازهها، وأماكن ارتياد الناس لها.

وقد كانت إلى زمنٍ ليس بالبعيد مصدر رزق لكثيرٍ من الناس سواء مزارعها، أو مراعيها، أو أماكن وجود الماء فيها.

وتقع ضاحية عريعرة شرقي محافظة الزلفي على خط طول (٥٣×٤٨) وعرض (٥٧×٢٥) داخل جبل طويق؛ حيث يحيط بها الجبل من جهتها الشرقية، والشمالية والجنوبية، وتبعد عن الزلفي مسافة أربعة كيلو مترات،

وتكاد الآن تلتحم بالمحافظة، حيث إن العمران قد وصلها؛ فصار بعض أجزائها وما يقرب منها آهلاً بالسكان.

وتمتد شمالاً وجنوباً مسافة ثلاثة كيلو مترات تقريباً، وغرباً وشرقاً مسافة خمسة كيلو مترات تقريباً بما في ذلك أعلاها، وأسفلها، وفروعها البعيدة.

ويجري في وسطها وادٍ كبيرٌ مشهورٌ وهو المعروف بـ(شعيب عريعرة) ويتجه من الشرق إلى الغرب بانحدار شديد مارًّا بجميع مزارع عريعرة التي تكون عن شماله وجنوبه، مُتَّجهًا غرباً إلى ضاحية السيح، ومنها إلى مزارع ونخيل مركز علقة من جهة الشمال.

وعريعرة منطقة صخرية جبلية؛ فهي تقع بين جبال تحيط بها من جميع الجهات ما عدا الجهة الغربية.

وأرضها تتكون من الصخور الكبيرة والمتوسطة والصغيرة، خصوصاً مجرى الوادي.

أما المزارع التي تقع شمالي الوادي وجنوبية، فتتخللها الأتربة والصخور.

وجبالها ليست بتلك الجبال المرتفعة، ويتكون بعضها من الحصى، والحجارة، والتربة الطينية، وتنبت فيها الأعشاب، والنباتات المتنوعة.

ومزارعها محاطة بسياج من الصخور التي تحميها، وتميز بعضها عن بعض، وتعرف عند العامة بـ (الجماريش) جمع جمراش، حيث توضع الصخور فوق بعض، ويوضع خلالها الطين والتراب والحجارة الصغيرة، ثم يبنى أعلاها بالطين؛ فتظل متماسكة رغم الأمطار والرياح، بل إن أكثر تلك (الجماريش)

باقية كما هي منذ ما يزيد على مائة سنة.

وبعض المزارع تحاط بالطين واللبن، وبعضها ـ وخصوصاً في الأزمان المتأخرة ـ تحاط بالحصى، والإسمنت.

وتربة عريعرة جيدة صالحة للزراعة، وغرس النخيل، وهذه التربة منحدرة من الجبال التي تحيط بالأملاك الزراعية أثناء نزول المطر الشديد، وهذه الجبال تكسوها الأعشاب الخضراء المتنوعة عند نزول المطر في الربيع.

وفي الجبال أشجار دائمة تعتمد عليها المواشي طوال العام.

وكذلك يوجد فيها المراعي الممرعة الممتدة على ظهور الجبال بمساحات واسعة ترعى فيها مواشي أهالي عريعرة، وكذلك بعض مواشي البلد.

بل إن تربتها من أخصب التربِ، والنخيلُ التي تغرس فيها من أجود أنواع النخيل؛ وقد أفاد بهذه الفائدة خبير التمور وأصنافها الأخ الأستاذ مساعد بن محمد العبدالمنعم؛ حيث أوضح أن تربة سمنان وعريعرة، وما شابههما من المناطق الجبلية تنتج أجود أنواع التمور.

والنخيل فيها لا يحتاج إلى سقي مستمر، بل يكفيها مياه الأمطار.

وفي أعالي الجبال تلاع كثيرة تحيط بعريعرة من جميع جهاتها ما عدا الجهة الغربية.

وإذا هطلت الأمطار نزل الماء من تلك التلاع إلى المزارع وسقاها، وما فاض منه وفَضُل نزل في وادي عريعرة الذي مر ذكره.

وهذه التلاع يعرف أكثرها بأسماء أصحاب الأملاك.

وعريعرة معروفة منذ القدم، وقد ذكَرَتْها كتب المعاجم.

قال ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان) ١١٤/٤ : «عُرَيْعِرة: تصغير عرعرة، بتكرير العين والراء.

وعرعرة الجبل: غِلْظَةُ مُعْظَمِه، وهو ماء لبني ربيعة».

وجاء في كتاب (النخل) لأبي حاتم السجستاني (ت٢٥٠) ص١٠٥ ما نصه: «اختصم ذوّاد بن نهشل ومنير بن رباح الرَّبعيِّان إلى عامل اليمامة في نخل بعريعرة غرسه ذوَّاد في أرض لمنير، فعقر منير النخل..» الخ.

وقال الشيخ عبدالله بن خميس رحمه الله: «ونقل عن الحفصي: عريعرة ماء لبني ربيعة بـ: اليمامة.

وقال الأصمعي: وهي بين الجبلين والرمل»[1].

وقالت امرأة من بني مرة يقال لها أسماء المُرِّيَّة:

أيا جَبَلي نُعمانَ بِاللهِ خَلِّيا ... نَسيمَ الصَبا يَخلُص إلَيَّ نَسيمُها

فَإنَّ الصَبا ريحٌ إذا ما تَنَفَّسَت ... عَلى قَلبِ مَحزونٍ تَجَلَّت همومُها

أجِد بَردَها أو تشفِ مِنّي حَرارَةً ... على كَبِدٍ لم يَبقَ إلا صَميمُها

أيا جَبَلَي وادي عُرَيعِرَةَ التي ... نَأَت عَن نَوى قَومي وَحقَّ قُدومُها

أَلا خَلِّيا مَجرى الجَنوبِ لَعَلَّهُ ... يُداوي فُؤادي مِن جَواهُ نَسيمُها

وكيف تداوي الريح شوقاً مماطلاً ... وعيناً طويلاً بالدموع سجومُها

وَقولاً لِركبانٍ تَميمِيَّةٍ غَدَت ... إلى البَيتِ تَرجو أن تُحَطَّ جُرومُها

---

(١) المجاز بين اليمامة والحجاز ص١٥٦، وانظر معجم البلدان ١١٤/٤.

بَـــأَنّ بِأَكنـــانِ الرُّغـــامِ غَريـــبَةً مُوَلَّهَـــةً ثَكلـــى طَـــويلاً نَئيمُهـــا
مُقَطَّعَةً أَحشاؤُها مِن جَوى الهَوى وَتَـبريحِ شَـوقٍ عـاكِفٍ مـا يَريمُهـا

وتقصد بمجرى الجنوب: الهواء الذي يهب من جهة الجنوب، وهو معروف إلى الآن بطيبه ونقائه؛ حتى إن أهل عريعرة يعلمون أن طيب هوائها يعين على هضم الطعام.

وكان والدي رحمه الله كثيراً ما يقول: «لو أكلت هرشاً بعد الظهر في عريعرة لما جاء العصر إلا وأنت جائع».

والهرش: هو الجمل المسن الغليظ اللحم، الذي لا يهضم لحمه إلا بكل كلفة.

ويشير بذلك إلى أن عريعرة مريئة ينهضم فيها الطعام.

وفي عريعرة مجمعات سيول، وما يسمى بـ: المداريج، وفيها عدة دروب ومقصورات.

وحالة سكان أهلها جيدة نسبياً، وإن كانت إلى الفقر أقرب خصوصاً في السابق.

وقد كان في الماضي ـ أي قبل ستين سنة تقريباً ـ يسكنون فيها، ولهم فيها منازل، وبعضهم يسكن في وسط الزلفي، ويذهب إلى ملكه في عريعرة يوميًّا، أو بعض الأيام؛ ليتعاهده.

أما منذ ما يقرب من خمسين عاماً فلم يكن يسكن فيها إلا أسرة واحدة، أو أسرتان.

ثم صار لا يسكن فيها أحد، وإنما هي مجرد أملاك.

وفي السنوات العشر الأخيرة وصلها العمران، والتحمت بالبلد، وصار الناس يبنون حولها، وصار بعضهم يعتني بملكه فيها.

وإلا فبعضها قد أُهمِل، وبقي أطلالاً.

وقد عاش عبيد النتيفي في هذه الضاحية التي مَرَّ وصفها، والتي **يتصف سكانها** بصفات عديدة، أبرزها: قوة الدين، والإقبال على العبادة، والحرص على الفرائض، والنوافل، وقيام الليل، وكثرة الذكر، وقراءة القرآن، مع عفة الألسن، وطهارة القلوب.

ومن صفاتهم: التعاون، والتآلف، والتزاور، والتراحم، والنجدة؛ فإذا احتاج واحد منهم إلى مساعدة في بناء بيت، أو طيِّ بئر، أو مدرج، أو إصلاح نخل، أو حصاد بُرٍّ - هَبُّوا لمساعدته بنفوس طيبة، وكانت المودة والشورى شائعة بينهم.

وربما اختصموا حول بعض الأملاك، أو مجاري السيول؛ فلا يغير ذلك ما في نفوسهم، بل إنهم -في الأغلب- يرتضون من يفصل بينهم، أو يقومون بذلك من تلقاء أنفسهم؛ فينتهي ما بينهم بالتراضي، متمثلين شرف الخصومة دون فجور أو تعدٍّ، ويشهد لهم بذلك كثير من الوثائق.

ومما اشتهر به أهل عريعرة قوة الأبدان، وشدة البأس، وقوة التحمل، حتى إن هناك مقولة شائعة عند أهل الزلفي وهي قولهم: «جَلْد عريعرة».

وهو الجلد على البطن لا على الظهر، كناية عن شدة بأسهم وقوة تحملهم؛ إذ إن الجلد على الظهر لا يؤثر فيهم كثيراً؛ لذا اشتهر منهم من اشتهر بالقوة والشجاعة.

وكان **عمل عبيد**، وكسبه كسائر أهل عريعرة؛ حيث كان من دأبهم في ذلك العناية بالنخيل، والزرع، وكذلك يقومون بالاحتطاب، وحش الأعشاب من

عريعرة أو من خارجها كالسبلة، أو نفود الضويحي.

وبعضهم يعمل بالبناء، والأشداء منهم يقومون بقطع الحجارة من الجبال؛ حيث تطوى بالحجارةِ المقطوعةِ الآبارُ، والمدارج، وتبنى البيوت، والمساجد، والأحواض التي تستخدم لحفظ الماء المعروفة بـ (القراوة) جمع (قرو) وهو حوض الماء.

وصناعته شاقَّة جداً تحتاج إلى قوةٍ ودِقَّةٍ وبصيرة أشبه ما تكون بالعمل الهندسي، ولا يقوم به كل أحد؛ بل يقوم به أفراد معروفون مثل أحمد العتيق، وعبيد النتيفي، وابن عمه عبدالله بن عبدالرحمن النتيفي؛ فكانوا ممن يحسن تلك الصنعة الشاقة.

وطريقتها: أن يَعْمَدَ صانعها إلى صخرة كبيرة من صخر الجبل قد يصل عرضها وطولها إلى ما يزيد على متر أو مترين أو أكثر، وارتفاعها يصل إلى متر، أو أقل، أو أكثر؛ فيقوم بِقَدِّها، وتنقيرها من الأطراف ثم ينقِّرها من الداخل؛ حتى تكون حوضاً ووعاءًا يحفظ الماء؛ فلا يتسرب منه قطرة واحدة.

وهذه (القراوة) موجودة إلى اليوم، وتشهد لصانعيها بالدقة، والقوة، والحذق.

وميزتها تكمن في تماسكها، وفي ثقلها؛ فلا يستطاع تحريكها بكل حال ولا ينقلها من مكان إلى مكان إلا العصبة أولو القوة.

ويذكر عبدالرحمن بن علي العتيق أن والده صنع قَرْواً، فلم يستطيعوا حمله، فصاروا يقلّبونه حتى أوصلوه إلى المكان الذي يريدون وضعه فيه.

صورة لما يعرف بـ: (القَرو) المنحوت من الصخر

ومن أعمالهم التي يقومون بها ـ أيضاً ـ صنع ما يعرف بـ: (المنحاز) وهو ما يوضع فيه العيش، ويُدَقُّ بعصا غليظة.

صورة لـ: (المنحاز) المنحوت من الصخر

ويعملون ـ كذلك ـ في البنيان، وطي الآبار بالحجارة.

ويصنعون الرحى التي يُطحن بها العيش، والبهارات، ونحو ذلك.

وكذا كانوا ينحتون من الحجارة ما يعرف بـ: (الخرز) وهي حجارة مدورة توضع سَوَارِيَ للبيوت، وتقوم مقام الحديد والإسمنت الذي يصنع منه السواري الآن.

أما الخرزات من الحصى فكانوا يضعون بعضها فوق بعض، فتكون كالعمود الذي يمسك المبنى المسقوف.

وأعمال النساء لا تقل عن أعمال الرجال؛ إذ يقمن على تربية الأولاد، والعناية بالأزواج، وأهل البيت عموماً.

ويَقُمْنَ -كذلك- بحش النباتات؛ كي تُعلف بها الدواب، ويقمن بالاحتطاب، والخياطة، والطبخ.

ولهن قصص كثيرة، ومواقف مشهودة.

وبعضهم يقوم برعي الإبل والغنم، وتربيتها والقيام على المتاجرة بها، ومنهم من يطلب الرزق خارج عريعرة.

ومنهم من يقوم بعمل الأدوات الزراعية كالحبال، والغروب، ثم يبيعها على الحاضرة، أو البادية.

ومنهم من يقوم بالصيد، ومن الوسائل التي كانوا يصيدون بها الطيور ما يسمونه بـ: (المشاريع) وهي أشبه ما تكون بـ: الحِبَالة؛ فكانوا يضعونها في رؤوس الجبال بعيدة عن المزارع، ويجلبون لها الماء من الآبار، ويجلس الصياد مختفياً عن الطيور، فإذا أتت لتشرب تمكن من صيدها.

ومن الطيور التي كانت تَرِد: القطا، والقميري، والدّخَّل، وغيرها.

وقد استمروا على تلك الحال إلى ما قبل خمسين سنة.

فهذه نبذة عن البيئة التي عاش فيها عبيد النتيفي رحمه الله[1].

---

(١) وقد فصلت الحديث عن ضاحية عريعرة في ملحق خاص من كتاب (إبراهيم بن أحمد الحمد).

والداه: والد عبيد هو أحمد بن إبراهيم بن علي النتيفي، وكان رجلاً صالحاً كريماً شجاعاً.

وأما والدة عبيد فهي فاطمة بنت مطير المسعود، فقد تزوجها والده أحمد، ورزق منها بـ محمد، وعبيد، ثم تزوج بنورة بنت محمد العراجة، ورزق منها بدخيل، وعلي، ولطيفة.

وكانت نورة قد تزوجت قبل ذلك بصالح بن إبراهيم المرشود.

ويفيد الشيخ المقرئ عبدالله بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النتيفي -حفظه الله- أنه يذكر جده أحمد -والد عبيد-، ويذكر أنه كان يلبس عمامة، وأنه كان إمام مسجد عريعرة، ويذكر أنه توفي قبل ابنه عبيد بشهرين تقريباً في آخر عام ١٣٦١هـ تقريباً.

ويذكر -كذلك- سبب وفاته، وهو أنه صعد سطح البيت في عريعرة، وسقط وتوفي على إثر ذلك.

ويذكر أنه رأى جده وهو مسجىً بعد ما مات، وأن وجهه كان يفيض نوراً ﷺ.

وهذا يعني أن عبيداً عاش حياته في حياة والده -رحمهما الله؛ إذ إن عبيداً توفي في أوائل عام ١٣٦٢هـ، أو أواخر ١٣٦١هـ تقريباً -على ما سيأتي بيانه-.

فهذه نبذة عن أسرة عبيد النتيفي وبيئته.

صفاته وأخباره: اتصف عبيد النتيفي بصفات كثيرة تعد من مقومات المروءة الصادقة، ومن علامات الرجولة الحقة.

ولقد امتاز بصفات فِطْرِيَّةٍ جِبِلِّيَّةٍ، وصفات اكتسابية من جراء تربيته، وبيئته التي بطانتها الدين الحق، وظهارتها مكارم الأخلاق، وتفاريق المروءات.

ومن أهم ما اتصف به عبيد، وشُهِرَ به، وتميز به عن غيره: قوة البدن، وشجاعة القلب؛ فعلى الرغم من كونه يعيش في بيئة تَغْلِبُ عليها تلك الصفات - فإنه قد فاق أقرانه فيها؛ فكان محلَّ إجماع وتسليم وتَفَرُّد بذلك؛ إذ كانت مجالسهم، ومجالس من بعدهم عامرة بذكر الشجعان، ومآثرهم، وما اتصفوا به؛ فإذا جاء ذكر عبيد النتيفي أجمعوا عليه، وسلموا له.

ومما ذكر من صفاته الخِلْقية أنه كان قَويَّ البدن جداً، مفتول العضلات، شديد الأسر، صلب القناة.

وإذا وصفه معاصروه ومن عرفوه أوضحوا عجيب خَلْقِه، وتركيب بدنه، وما كان عليه من القوة.

ومن أخباره في ذلك ما ذكره لي عبدالرحمن بن علي العتيق -حفظه الله- عن عمه موسى بن عبدالرحمن العتيق، وأنه كان من أشداء شجعان الرجال، ومن ذوي البنية القوية الشديدة وقد توفي في حدود عام ١٤١٩هـ تقريباً؛ فيذكر عبدالرحمن العتيق أن عمه موسى رحمه الله كان يتحدث عن عبيد، وأنه تصارع معه، وأنهم لم يكونوا يدانونه في القوة.

ويذكر أن عمه موسى كان يصف عضلات ظهر عبيد، ويشبهها بالحبال الغليظة من شدة بروزها.

ويذكر لي الأستاذ الشاعر الصديق إبراهيم بن أحمد المنصور -حفظه الله- قصة جرت لموسى العتيق[1] مع عبيد النتيفي؛ يقول الأستاذ إبراهيم: «إن موسى العتيق كان شجاعاً قوي البدن.

---

(١) موسى العتيق زوج صفية بنت عبدالرحمن الصعيب - رحمهما الله - وهي خالة إبراهيم المنصور.

وفي يومٍ من الأيام قال موسى العتيق على سبيل المزاح -وكان معروفاً بالظرف، وطيب القلب-: (مجرورة لكم يا أهل عريعرة).

ويقصد بذلك أنني أتحدى أي واحد منكم أن يطارحني -ينازلني-.

وقد وصل خبر ذلك التحدي إلى عبيد، وقد علم موسى بذلك؛ فصار يختبئ عن عبيد؛ حتى لا يطلب منه المنازلة.

وفي يوم من الأيام تواجها في شارع ضيق؛ فلم يعد لموسى مَفَرٌّ؛ فقال له عبيد: (تعال يا مويس! تعال يا مويس ما الذي بلغني عنك؟).

فقال له موسى -وهو يعرف شجاعة عبيد وقوة بدنه تماماً: (لقد استثنيتك يا أبا إبراهيم).

فقال له عبيد: (لا، لم تستثن أحداً، ولكن تعال؛ لنرى ما تصنع)».

يقول الأستاذ إبراهيم المنصور: «إن موسى يحدثني بذلك، ويقول: (لما رأيت حبال ظهر عبيد، وما هي عليه من الغلظ، وشدة الفتل، وكأنها الكوال -وهي جمع كالَّة، وهي الحدود التي تفصل بين أشراب الزروع- قلت: لن أعاسره؛ حتى ينتهي النزال بأيسر كلفة، وإن كنت أستطيع أن أقاومه بعض المقاومة، ولكني أعلم أنه في النهاية سيغلبني؛ فأرخيت نفسي له؛ خشية الضرر؛ فرماني بعيداً، وقال: لا تعد لمثل هذا، فقلت له: أبشر».

ويذكر الأستاذ إبراهيم المنصور -أيضاً- قصة قريبة من هذه جرت لعلي بن عبدالعزيز الفحام من أهل الزلفي المولود عام ١٣٣٠هـ تقريباً والمتوفى في ١٤٣٢/٨/٣هـ وكان شجاعاً قوي البدن مشهوراً بذلك، وله قصص معروفة، ووقائع مشهورة.

يقول الأستاذ إبراهيم المنصور: «كنا في مجلس قراءة عند الشيخ صالح بن سالم العمر، وكان علي الفحام حاضراً، وفي أواخر عمره ﷺ وكان يتكلم عن عبيد النتيفي، ويذكر ما كان بينه وبينه من الصداقة، والمودة؛ فسأله الشيخ صالح، وقال: يا أبا أحمد أيهما أقوى أنت أو عبيد النتيفي؟

فقال الفحام: أتريد الحقيقة؟ فقال له صالح: نعم.

فقال الفحام ﷺ: والله إنني في يوم من الأيام أمسكت عبيد النتيفي بيدي جميعاً، وهو بيد واحدة؛ فرفعني عن الأرض، وصار يهزني بيد واحدة، وينفضني كما تصنع الكهرباء بالإنسان».

ويذكر الأستاذ إبراهيم المنصور -أيضاً- عن شيخنا الشيخ عبدالعزيز المسلم ﷺ أن الشجاع المعروف عبدالعزيز بن محمد العصيمي -العفاش- كان يذكر عبيد النتيفي ويبدي شدة إعجابه بشجاعته وقوة بدنه.

وهذه شهادة كبرى من قرن لِقرنه، وإن دلت على شيء فإنما تدل على شجاعة عبيد النتيفي، وقوته.

وتدل -كذلك- على شهامة عبدالعزيز العصيمي، وزكاء عنصره، وطهارة نفسه، وإنصافه، وتواضعه؛ إذ هو من طبقة عبيد في الشجاعة والقوة، وهو يكبر عبيداً بنحو ثماني عشرة سنة، وعاش بعد وفاة عبيد ستاً وأربعين سنة.

وهكذا يكون الشجعان الشرفاء؛ إذ لا يجدون في أنفسهم غضاضة من الاعتراف لِلداتهم، وأقرانهم.

ويذكر لي الشيخ علي بن حمد العتيق ﷺ أن مقدار خلطة الطين لعبيد النتيفي إذا أراد البنيان كانت خمسين متراً.

ويذكر -أيضاً- أن عبيداً قال لوالدي إبراهيم الحمد لما كان أميراً على الزلفي: «يا أبا أحمد اجعلني من رجال الهيئة -الحسبة-».

وأن والدي قال له على سبيل المزاح: «يا أبا إبراهيم أخشى أن إذا ارتكب أحد من الناس خطأ أن تضربه ضربة من إحدى ضرباتك المميتة، ثم لا يكون عملنا إلا جمع الدية».

ويَذْكُرُ -أيضاً- أن عبيداً إذا مشى رآه مَنْ خَلْفَهُ وعضلات ساقيه تكاد تمس فخذيه من شدة بروزهما.

ويذكر الأخ الأستاذ علي بن موسى العمير -حفظه الله- عن والده الشيخ المعلم موسى العمير رحمه الله أن عبيداً إذا استهاش[1] تشقق ثوبه من شدة شكيمته وانتهاض عضلاته.

ويذكرون أن بعض شجعان البادية إذا دخلوا البلد ذهبوا إلى دكان عبيد في السوق -الذي يبيع به بعض الأشياء اليسيرة التي يحتاجها الناس- لا لأجل الشراء، وإنما للنظر في عجيب خلق عبيد.

ويحدثني معالي الشيخ سليمان بن عثمان الفالح -حفظه الله- في معرض كلام له عن عبيد النتيفي وما يتمتع به من القوة الهائلة؛ فيقول: «لما أرادوا تجديد بناء جامع الزلفي -جامع الملك عبدالعزيز حالياً- وذلك كان في حدود عام ١٣٦١هـ تقريباً - كان يشرف على العمل المعلم البنَّاء: عبدالله التركي المليفي رحمه الله.

وكانت طريقة البِنَاء -كما هو معروف- بالطين، واللبن، وكان الطين يُخْلَطُ في

---

(١) يعني إذا غضب، واستعد للنزال.

الأرض واللبن، ثم يعطى للمعلم؛ كي يَضَعَه في مكانه، ويَبْنِيَ عليه الطين الذي يكون له وطاءً، ثم يُشْبِعُه بالطين حتى يتماسك، وهكذا».

يقول الشيخ سليمان الفالح: «وقد ارتفع ذلك البناء بما يقرب من ثلاثة أمتار، وهذا يعني أنهم سيحتاجون إلى سُلَّم؛ فيكون المعلم في الأعلى، وفي الأرض أحد العمال يمد اللبن إلى عامل آخر في وسط السلم يستقبل اللبن إذا رماها إليه من تحته، ثم هو يرميها إلى من هو في أعلى السلم، ثم تعطى إلى المعلم؛ فيضعها في مكانها، ويواصل البناء، وهكذا..

وفي يوم من الأيام كان عبيد النتيفي عندهم؛ فرمى أحد العمال بِلَبِنَةٍ إلى من هو أعلى منه؛ فلم يستطع إيصالها؛ فسقطت اللَّبِنَة؛ فقال عبيد النتيفي للعامل مستنكراً: اخسأ، أما تستطيع إيصالها؟ فقال له: يا أبا إبراهيم: اللبنة ثقيلة -وهي ثقيلة فعلاً-.

فقال له عبيد: سأرفعها من الأرض إلى المعلم مباشرة دون أن تُمَدَّ إلى أحد، ولا والله أرفعها إلا بيدي اليسرى فقط؛ فَأَعْطَوْهُ لِبنةً، فقال ضعوا ثانية، فوضعوا اللبنة الثانية على اللبنة الأولى بيده اليسرى؛ فصار عبيد يحركهما وكأنهما ريشتان بيده، ثم رمى بهما إلى المعلم على ارتفاع ثلاثة أمتار تقريباً فمرت عند أذن المعلم؛ فتعجب الناس من هذه القوة الهائلة».

ويذكر الأستاذ إبراهيم بن أحمد المنصور -حفظه الله- عن أحد أصحاب عبيد وهو زيد بن عبدالله بن عبدالرحمن الزنيدي رحمه الله أن عبيداً أصيب بما يعرف عند العامة بالبعج، وهو الفتاق -أيضاً- وهو داء يصيب الإنسان من جراء حمل الإنسان ما هو فوق طاقته، وأنهم ذهبوا به إلى طبيب في بريدة، فلما استلقى

عبيد جعل الطبيب يتفكر في خلقه، وينظر في مفاصله، وعضلاته، وأنه ضرب على بدنه، وقال: هذا جمل الزلفي.

والكلام في هذا السياق يطول، والشواهد عليه كثيرة، وكل ذلك مما يذكر بأحوال الشجعان الأوائل كعمر بن مَعْد يكرب الزبيدي ﷺ الذي كان يكنى بأبي ثور، وهو الذي كان يصف نفسه بقوله:

إني أبو ثور وسيفي ذو النونْ أضربهم ضرب غلامٍ مجنونْ
يا لَزُبيدٍ إنهم يموتون

والذي يذكر عنه أنه يجلس على الجذع من الإبل، فينتقيه عظماً عظماً -أي يأكله برمَّته-.

وهو الذي وصف نفسه في ميدان المعركة بقوله:

ولقد أجمعُ رِجْلَيَّ بها حَذَرَ الموتِ وإني لفرورْ
ولقد أَعْطِفُها كارهةً حين للنفس من الموت هريرْ
كلُّ ما ذلك مني خلقٌ وبكلٌ أنا بالروع جديرْ

وهو من أحسن من وصف الحرب بقوله:

الحرب أول ما تكون فُتَيَّةً تسعى بزينتها لكل جهول
حتى إذا حميت وشب ضرامُها عادت عجوزاً غير ذات حليل
شمطاء جَزَّت رأسها وتَنَكَّرت مكروهةً للشَّمِّ والتقبيل

ولقد كان عمر بن الخطاب ﷺ على طوله وقوة بدنه إذا رأى عمرو بن معد يكرب يتعجب، ويقول: «الحمد لله الذي خلقنا وخلقه».

ولقد كان لعبيد النتيفي -مع قوة البدن على نحو ما ذكر- قوةُ القلب، والخطار بالنفس؛ فقد كان شجاعاً مقداماً مغواراً جسوراً لا يهاب الموت، ولا يخشى ملاقاة الجموع مهما كثروا؛ فقد شهد له كل معاصريه بتلك الخصلة التي لا يكاد يجاريه أحدٌ فيها.

وقد عاش في وقت خوف، وسلب، وغارات خصوصاً قبل توحيد المملكة على يد الملك عبدالعزيز رحمه الله.

فكان الناس يحتاجون إلى أمثال عبيد النتيفي ممن يحمي حرماتهم، وأموالهم، وأرزاقهم، وزروعهم، ومواشيهم، ونحو ذلك مما يحتاج إلى حمايته؛ فكان عبيد في المقدمة دائماً.

وكان متصفاً -مع قوته الباهرة، وشجاعته النادرة- بالشهامة، والنجدة، وإباءة الضيم، ونصرة المظلوم، وحماية الجار، والمستجير، وما جرى مجرى ذلك.

ولم تكن قوة بدنه، وشجاعة قلبه، وشهرته في ذلك داعية إلى الكبر، والظلم، والتعجرف؛ فقد اشتهر عنه بُعْدُه عن الخطأ، وحذره الشديد من التعدي؛ إذ كان معروفاً بالتدين الحق، والعفة، والنزاهة، وطهارة الساحة، وحسن الأحدوثة، والكراهية لمشهد الظلم.

بل لقد كان طالب علم، يحسن قراءة القرآن، وربما كان يحفظ القرآن، أو أكثره؛ فقد ذكر ابن عمي أحمد بن سليمان الحمد رحمه الله أن عبيد النتيفي يصلي بهم في عريعرة، وأنه يقرأ بهم قراءة طويلة، وذكر أنه قرأ بهم مرة سورة (ق).

وكان له دكان يبيع فيه بعض ما يحتاجه الناس آنذاك، وكان إذا اجتمع عنده

أحد في دكانه أخرج بعض كتب أهل العلم، وحَدَّثهم، وذكَّرهم بالله -عز وجل-.

وكان -كحال الناس- آنذاك حريصاً كل الحرص على الصلاةِ فرضِها ونفلِها، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان أحرص ما يكون على أولاده.

بل ربما اشتد عليهم في ذلك، وله أخبار طريفة في هذا الأمر؛ فقد ذكر لي حفيده الأستاذ خليل أن والده إبراهيم بن عبيد ذكر أنهم ينامون في سطح منزلهم، وأن والدهم يوقظهم لصلاة الفجر، فإذا تباطؤوا سحبهم من أرجلهم وأنزلهم؛ فلا تسمع إلا صوت رأس إبراهيم وأخيه سليمان وهي تطقطق على الدرج.

لذا كان أولاده يهابونه مهابة عظيمة، وقد ذكر لي ابنه العميد سليمان -وهو من أشد الناس بأساً- أنه لما كان صغيراً كان يهريق الماء على والده عبيد إذا أراد الوضوء، يقول: «وإذا تنحنح والدي أو عطس سقط الإبريق من يدي؛ فَرَقاً منه».

ومع هذه القوة النادرة، والشجاعة الباهرة كان يخاف الله في الناس؛ فلم يتعدَّ حدوده، ولم يؤثر عنه طيلة عمره أنه أخطأ على أحد من الناس أو فاخر بشجاعته، أو أنه اتخذها وسيلة لإرهاب الناس، أو ترويعهم، أو إحداث خلل في نظام حياتهم.

ومن صفات عبيد التي ربما تخفى على بعض الناس أنه كان كريماً مضيافاً على قلة ما عند الناس في وقته.

ومما ذكره لي ابن عمه عبدالله بن عبدالرحمن النتيفي -وهو من أتراب عبيد

ومن لداته- أن ابن عمه عبيداً كان يخرج وقت الربيع إلى روضة السبلة، ويكون له بيت من الشَّعر يسكن فيه هو وأهله.

ويذكر عبدالله بن عبدالرحمن النتيفي رحمه الله أنه إذا انتصف الضحى، وتعب من حش النباتات التي يدخرونها علفاً لمواشيهم ذهب إلى عبيد ابن عمه؛ فوجد عنده التمر، والقهوة، واللبن، وكان ذلك دأبه كل يوم.

ومن الطرائف في ذلك أن أحد أصدقاء عبيد كان يأتيه كل يوم لما كان في روضة السبلة في الربيع؛ فيجد عنده ما لذ وطاب من القهوة والتمر والطعام الذي تعده زوجة عبيد أم إبراهيم سارة بنت إبراهيم الذييب أخت كاتب الزلفي المشهور حمود الذييب، وعمة الكاتب الشهير الشيخ محمد بن سليمان الذييب مدير أول مدرسة في الزلفي وقد تأسست عام ١٣٦٨هـ، ورئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقاضي والعالم المعروف -رحمهم الله جميعاً-.

وكانت سارة الذييب زوجة عبيد -رحمهما الله- من عقليات النساء[١].

يحدث ذلك الرجل رحمه الله أنه كان يأتي صديقه عبيداً كل يوم على العادة، ويقول: «كنت رجلاً صموتاً، وقد استحييت من كثرة مجيئي إلى عبيد بصفة يومية؛ فأتناول ما يتيسر من الطعام دون أن أتكلم.

وفي يوم من الأيام قررت أن أتجاذب أطراف الحديث مع صديقي عبيد، ولكنني لم أوفق، ولم أتكلم إلا بموضوع جَلَب علي حرماني من ذلك المجلس، وما فيه من الراحة والطعام.

---

(١) وقد ذكر لي الدكتور سليمان بن عبدالله بن محمد النتيفي عن والده الشيخ المقرئ عبدالله -حفظهما الله- أن سارة الذييب كانت تعلّم زوجها عبيداً القرآن؛ إذ هي من بيت عِلْمٍ وقَلَم.

ومفاد ذلك أنني قلت لصديقي عبيد -وصوتي مرتفع-: يا أبا إبراهيم ألا ترغب في الزواج من ثانية؟

وما إن قلت ذلك إلا وتحرك كِسْرُ الخيمة الذي يستر البيت عما في داخل المجلس؛ وإذا بها أم إبراهيم تخاطب زوجها عبيداً، وتقول له: يا أبا إبراهيم إما أن أغادر أنا هذا المكان، أو يغادره فلان؛ فنظر إلي عبيد وهو في حيرة من أمره، ولم يتكلم، فقلت: يا أبا إبراهيم أنا أغادر هذا المكان، ولا أعود إليه مرة أخرى».

يقول ذلك الرجل -وكان ظريفاً طيب القلب-: «فخرجت وأنا أخاطب نفسي بعد أن فرطت في نعمة كنت أتقلب فيها: ما الذي دفعني لأن أقول ما قلت، أتحسن إليَّ هذه المرأة كل يوم بما لذ وطاب، ثم أقترح على زوجها أن يتزوج عليها؟».

ومن صفات عبيد النتيفي رحمه الله أنه كان ذا نفس مرحة، وذا دعابة ومزاح يُسْعِدُ به مَنْ حوله.

بل إن هذه الصفة غالبة على ولديه إبراهيم وسليمان؛ فكانا لا يحضران مجلساً إلا أشاعا فيه تلك الروح، ولهما في ذلك أخبار يطول ذكرها.

ومن أخبار عبيد في ذلك ما حدثني به الأستاذ أحمد بن عبد العزيز الملا -حفظه الله- حيث قال راوياً عن والده رحمه الله: «كان والدي عبدالعزيز بن عبدالله بن محمد الملا صاحباً لعبيد النتيفي منذ أن شبَّا عن الطوق، وكان بينهما صداقة، وتقارب في العمر.

ولما كانا دون العشرين كانا يعملان معاً بعض الأعمال كحش الأعشاب ونحو ذلك.

وكان إبراهيم الحمد وهو أكبر من عبيد بخمس سنوات لديه إبل وغنم، وكان يحتاج إلى من يساعده في حش الأعشاب التي تكون علفاً لدوابه، وكان يستعين بأبي، وبعبيد النتيفي وكان يعطيهما حقهما قبل أن ينتهيا من العمل.

وفي يوم من الأيام خرج الثلاثة إلى أحد المراعي التي تقع شرق روضة السبلة؛ لِحَشِّ الأعشاب، والنباتات، ولما جَنَّ عليهم الليل، وأرادوا النوم -وكان عبيد في عنفوان شبابه وفتوته- نام في الوسط بين والدي وبين إبراهيم الحمد، فقال له إبراهيم الحمد: يا عبيد ما الذي يدفعك لأن تنام في الوسط، وأنت الشجاع القوي؟.

فقال له عبيد -على سبيل المزاح-: أخاف على نفسي من الذئب؛ فالذئب لا يعرف عبيد النتيفي».

ولعله بذلك يتمثل بما يروى عن عنترة لما فَرَّ من ثور، وقيل له: كيف تفر وأنت عنترة؟

قال: وما يدري الثور عن عنترة.

ومما كان يقوم به عبيد النتيفي رحمه الله التطبب.

ومن ذلك أنه كان يقوم بخلع الأضراس لمن احتاج إلى ذلك.

وقد حدثني الراوية سليمان بن أحمد الدريويش رحمه الله قائلاً: «اشتد عَلَيَّ ألمٌ في أحد الأضراس في شهر رمضان؛ فذهبت إلى عبيد النتيفي في دكّانه؛ كي يقلع ذلك الضرس، ويريحني من آلامه.

فلما جئت إليه قال: لقد أفتاني أحد المشايخ بجواز خلع الضرس للصائم.

وكان حوله عبدالكريم المرشود، وسليمان بن حمد العتيق ـ رحمهما الله ـ فطلب من كل واحدٍ منهما أن يمسك بي من جهة؛ كي لا أتحرك، ثم طلب منهما بعد ذلك أن يتركاني، ثم وضع رأسي بين ركبتيه، وقال: سأعض لساني؛ كي تزداد قوتي، ثم لمَّ رأسي بين ركبتيه، وعضّ لسانه، ووضع الآلة التي يُخلع بها الأسنان والأضراس، فما زال يحرك الضرس حتى خلعه».

فقلت لسليمان الدريويش ـعلى سبيل المزاحـ: وكيف فرطت يا أبا أحمد أن تضع رأسك وفكيك بين ركبتي عبيد النتيفي؟

أما خشيت أن يهشم رأسك وفَكَّيْكَ؟

فقال: «هذا الذي حصل».

ويحدثني معالي الشيخ سليمان الفالح ـحفظه اللهـ قائلاً: «جاء فلان من الناس ـوسماهـ إلى السوق، ومعه طاقية ـوهي غطاء للرأس من قطن أو غيرهـ يريد يبعها؛ فجاء إلى والدي الشيخ عثمان بن الشيخ القاضي فالح الصغير ـرحمهم اللهـ فاشتراها منه والدي بقرش ـثلث ريالـ وأعطاها أخي الأكبر أحمد، وأنا صغير، فصحت بهم، وألححت بأن يعطوني الطاقية؛ فأعطانيها أخي أحمد.

ولما لبستها جئت إلى والدتي، فقالت: ممن هذه الطاقية؟ فقلت: اشتراها والدي من فلان، فقالت: إن فلاناً ـتعني الذي باع الطاقيةـ مصاب بمرض الصيني[1]؛ فاترك الطاقية؛ حتى لا يصيبك الصيني.

---

(١) وقد سألت عميد أطباء الزلفي الدكتور محمد بن عبدالله المفرح عن هذا المرض المعروف بـ: (الصيني) فأجاب ـحفظه اللهـ بما يلي: «هي تصيب الأطفال والشباب في الغالب؛ لتعرضهم للعدوى عن طريق المزاح بتبادل الطواقي، أو ـاستلافهاـ للحظات أو دقائق، وينطبق ذلك على غيرها =

ثم أخذت الطاقية، وقالت: دعني أغسلها لك.

فلما جن الليل وإذا بالصيني قد انتشر برأسي، فصار رأسي كله قروحاً وجروحاً؛ فجعلت أمي تضع عليه الودك، وتحاول معالجتي بما تستطيع؛ فلم أستفد، وطاولني المرض.

وفي يومٍ من الأيام أخبر والدي عبيد النتيفي بما حصل لي؛ فحضر عبيد إلى منزلنا، فسلمني والدي له؛ فأمسك بجبهتي بيده اليسرى، وشرع يكشط رأسي بيده اليمنى بموسى حلاقة أحضرها -وكانت غير حادة-.

ولما شرع عبيد بكشط رأسي؛ لكي يزول منه آثار الصيني أصابني ألم شديد

= كالغترة لمن يملكها، أو وسائل النوم المشتركة؛ حيث كان ينام عدد كبير من الأطفال بجانب بعض في غرفة واحدة، أو العدوى عن طريق موسى الحلاقة».

وأضاف -حفظه الله-: «وأقرب ما تكون أنها فطريات تصيب فروة الرأس والشعر، وتظهر على شكل بقع مقشرة صلعاء وبقع حمراء، وتسبب ألما في فروة الرأس، وحكةً، وتساقطاً للشعر، وما إلى ذلك.

وتسمى سعفة الرأس(Tinea capitis) والملفت للنظر أن كثيراً من أطباء الجلدية الشباب لا يعرفونها كما كانت ترى سابقاً؛ حيث إن وجدت فهي بشكل خفيف؛ نظراً لتوافر العلاجات المناسبة عكس الماضي».

وذكر الأستاذ الزميل فرهود بن صالح الفرهود -حفظه الله- في كتابه (التطبب والتداوي في محافظة الزلفي ص٣٠) ما نصه: «القراح: ويسمونه (الصيني).

وهو مرض يقترح فيه الرأس، ويسقط الشعر، مَرَضٌ مُعْدٍ خصوصاً بين الأطفال بسبب ارتداء بعض طواقي بعض، وقلة النظافة».

ثم ذكر كيفية علاجه عند الناس سابقاً، فقال: «والعلاج له غالباً لدى الحلاق الذي يكشط المنطقة المتقرحة بالرأس حتى العمق، ثم يملأ الحفرة ببعض الأدوية الخطيرة المحتوية على الزرنيخ أو الكبيريت».

جداً، فصرت أبكي، وأحاول التخلص منه، ولكنني لا أستطيع الحراك، وأبي يقول: يا أبا إبراهيم ارفق بالولد؛ وعبيد لا يتوقف عن قشر رأسي، ويقول لأبي: لا تكثر علي، لا تزعجني وإلا فَخُذْ ولدك.

وبعد أن انتهى من قشر رأسي قال عبيد لأبي: أحضر ما عندك، وقد أعد والدي دلواً فيه ماء مخلوط بالملح، فأراقه عبيد على رأسي، وقال: اذهب إلى أمك.

ثم مكثت ثلاثة أيام أبكي من الألم، وبعدها شفيت تماماً.

وبعد ما كبرت قلت للذي باع والدي الطاقية: أعديتني يا فلان بالصيني، فقال: بل أعديتك بالذكاء.

فقلت له -على سبيل المزاح- وماذا عندك من الذكاء؟».

والشاهد من ذلك أن عبيداً كان يمارس الطب على ما هو متيسر في وقته، وينفع الناس بما يستطيع.

ويضيف الشيخ سليمان -حفظه الله- قائلاً: «وكان عبيد النتيفي رحمه الله يقوم بكثير من الأعمال الشاقة التي لا يستطيعها كل أحد؛ كإصلاح بعض الآبار التي يحتاج إصلاحها إلى قوة، ومخاطرة، ونحو ذلك مما لا يقوم به كل أحد».

فهذه بعض صفات عبيد النتيفي التي كان عليها، تلك الصفات التي زرعت محبته بين الناس، وجعلت له ذكراً حسناً.

ولكن صفته البارزة التي شهر بها، وفاق بها غيره - شجاعتُه النادرةُ المقرونةُ بقوة بدنه، تلك الشجاعة التي تَبْرُزُ إذا جاء وقتها؛ فلا تراه يتباطؤ أو يتأخر عند الحاجة إليه، ولسان حاله كما قال عمرو بن مقروم الضبي:

فدعوا نَزَالِ فكنت أول نازلٍ ... وعلامَ أركَبُه إذا لم أَنْزِلِ

إذ لا يبالي بمن أمامه، ولا تثني عزمته مهما كان خصومه عدداً وعدةً، خصوصاً إذا أخطئ عليه، أو استنصره جيرانه وأهل بلده؛ لظلم، أو تعدٍّ عليهم وحاول درء الأمر بأيسر ما يكون، ولم يفلح في ذلك؛ فههنا يأخذ بالتي هي أحزم، ويكون منه ما يكون من الفعل والسطوة التي تنهي الإشكال؛ إذ هو رجل تلك المهمة وواحدها.

وله في هذا المجال أخبار يطول ذكرها، ومن ذلك ما حدثني به حفيده الأستاذ خليل عن إبراهيم بن عبيد النتيفي قائلاً: «يقول أبي إبراهيم رحمه الله: إنه كان صغيراً عند والده عبيد في روضة السبلة، وجاء أناس من خارج البلد، وعددهم عشرة، ووقفوا عند والدي عبيد، وصاروا يستثيرونه بعبارات لا تليق، وهو يحاول صرفهم، ويقول لهم: ابتعدوا، تعوَّذوا بالله من الشيطان.

ولكنهم استمروا على هذا الكلام، وكنت أنا وأمي من داخل الخيمة، فناداني والدي وقال: أحضر المسحاة[1]، ولكنني تباطأت؛ خشية أن يضرب أحدٌ منهم بها؛ فيموت.

وبعد قليل خرجت وإذا بوالدي قد انقض عليهم، وصار يضرب هذا وهذا حتى أسقطهم جميعاً، وأصيبوا بإصابات متنوعة، ثم انصرفوا إلى أمير الزلفي آنذاك إبراهيم بن أحمد الحمد، وقدموا شكوى على والدي عبيد النتيفي، وأفادوا بأنه فعل كذا وكذا، وهذه آثاره علينا.

فسألهم الأمير إبراهيم قائلاً: (كيف يتعدى عليكم وأنتم بهذا العدد وهو

---

(١) هي آلة معروفة يُزال بها التراب، والطين، ونحو ذلك، وهي آلة لها عصا، وفي آخرها حديدة مربعة تقدر بشبر وزيادة طولاً وعرضاً، وفي جزئها الأسفل شيءٌ من الحِدَّة.

وحده؟.

أخشى أن تكونوا قد بدأتم بالاعتداء والخطأ).

وقال لهم -أيضاً-: (الذي نعرفه أن عبيد النتيفي لا يخطئ؛ فهل تريدون أن نحيلكم على الشرع، ونحضر عُبَيْداً؟.

ثم إذا أحضرناه، وتبين أنكم بادرتم بالخطأ فلا بد أن تتحملوا ما سيصيبكم من جراء ذلك).

فما كان من أولئك إلا أن قالوا: لعلنا ننصرف، وتنتهي المشكلة بِرُمَّتها».

والشاهد من ذلك أن عبيداً رحمه الله لم يبالِ بهؤلاء مع أنهم عشرة، وهو واحد؛ فكأنه المعنيُّ بقول أبي تمام في نوح بن عمرو:

ثبتُ المقامِ يرى القبيلة واحداً ويُرى فيحسبه القبيلُ قبيلا

وحدثني معالي الشيخ سليمان الفالح -حفظه الله- بقصة قريبة من هذه، وهي أن اثنين حاولا الاعتداء عليه، وأنه حاول ثنيهما، ثم ظن أنهما ذهبا، فلما غفل أمسك به أحدهما من رأسه، والآخر من رجليه؛ فالتفت عليهما ومال ميلة واحدة، وإذا كل منهما في جهة، وقد أصابتهما بعض الإصابات.

وكان ذلك في وقت إمارة الأمير عبداللطيف الحمين رحمه الله ما بين ١٣٥٥-١٣٦٠هـ، فذهبا يشكوان عبيداً إلى الأمير، وكان رحمه الله يعرف عبيداً تماماً، ويعرف الرجلين كذلك، وله عليهما دالَّةٌ.

فلما مثُلا أمامه، واشتكيا عبيداً نهرهما نهراً شديداً، وقال: (إن عبيداً لا يخطئ على أحد، ولا أظن إلا أنكما قد أخطأتما عليه).

فاعترفا بعد ذلك بالخطأ، واعتذرا عما بدر منهما».

وكان ذلك دأبه في كثير من أحواله كما يحدثني بذلك حفيده الأستاذ خليل بن إبراهيم بن عبيد النتيفي -حفظه الله- إذ يذكر عن جدته سارة الذييب زوجة عبيد أنها تقول: «كثيراً ما يدخل عبيد بيته وثيابه مُخضبةً بالدماء».

وسبب ذلك إما لنصرة المظلوم، أو لفضِّ نزاع، أو نحو ذلك مما يقوم به في ذلك الشأن.

وهذه العزمات، والمبادرات الشجاعة منه ناتجة عن إبائة للضيم.

والضيم: الظلم والاضطهاد، وإباءته: كراهته والنفور منه.

والنفور الصادق من الضيم يستلزم الغضب عند وقوعه كما قال مهيار الديلمي:

نَفَى الضيمَ عنه أنفُ غضبانَ ثائرٍ يَخِفُّ وَقِسْطُ الحادثات ثقيل

وإذا شاهد الضيم غضب غضبة ملتهبة؛ فبذل وسعه في التخلص منه، أو التوقي منه قبل وقوعه.

وذلك الإباء ناتج عن مروءة صادقة؛ فمن لم يغضب لوقوع الضيم، أو لم يبذل وسعه في التخلص منه، أو الحذر منه - فهو محروم من هذا الخلق المجيد.

ولهذا الخلق عنده صلة محكمة بخلقين عظيمين وهما: عزة النفس، والبطولة؛ إذ كان متصفاً بهما تمام الاتصاف.

فمن لم يكن عزيز النفس لم يتألم من أن يضام، ومن لم يكن بطلاً احتمل الضيم؛ رهبةً أو حرصاً على الحياة.

ومن طالع تاريخ العرب في عهد جاهليتهم عرف أنهم كانوا يأبون الضيم في

حماسة وصلابة، ويعدون ذلك من أول ما يفتخرون به من مكارم الأخلاق.

وقد أخذ هذا الخلق من أشعارهم ومفاخرهم مكاناً واسعاً؛ فنبهوا على أن احتمال الضيم عجز، والعاجز لا يرجى لدفع ملمة، ولا للنهوض بمهمة؛ قال المتلمس:

ولا تَقْبَلَن ضيماً مخافةَ ميتةٍ ومُوتَنْ بها حُرًّا وجِلْدُك أملس

وضربوا لاحتمال الضيم أبشع الأمثال، وأشدها تنفيراً، قال المتلمس:

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان عير الحيِّ والوتدُ
هذا على الخسف مربوطٌ بِرُمَّتِهِ وذا يُشَجُّ فلا يرثي له أحدُ

ونبهوا على أن حرية النفس والإقامة على ضيم لا يجتمعان؛ فقال الشنفرى:

ولكنَّ نفساً حرةً لا تقيم بي على الضيم إلا ريثما أتحول

وأشاروا إلى أن ذوي النفوس الزكية يتجافون عن مواطن الضيم، وينأون عنها ولو إلى مواقع الخطوب الدامية، قال معن بن أوس:

إذا أنت لم تنصف أخاك وجَدْتَهُ على طرف الهجران إن كان يعْقِل
ويركب حد السيف من أن تُضِيْمَهُ إذا لم يكن عن شفرة السيف مَزْحَلُ

وإباءة الضيم أيام جاهليتهم ملأت أعين الدول المجاورة مهابة لهم.

وقد نَصَّ علماء الشريعة على أن العدو إذا أقبل مهاجماً كان فرضاً على كل شخص حتى النساء أن يخرجوا للدفاع بما استطاعوا.

ومن الحكمة أن يعمل الإنسان للتخلص من الضيم شيء من التدبير وإحكام الرأي؛ حتى لا تفضي مكافحة الضيم الصغير إلى ضيم أفظع منه، أو تُفَوِّت على الجماعة مصلحة، أو مصالح كبيرة لا يعد ذلك في جانبها شيئاً مذكوراً.

وهكذا كان حال عبيد مع أهله، وجيرانه، وأهل بلده؛ إذ كان حاكماً على نفسه متقيداً بالشرع، وما تقتضيه مكارم الأخلاق، وشرف الخصومات، مستحضراً أنْ ليس كل إقدام على الموت شجاعة، وإنما الشجاعة: الإقدام على المواطن التي ينبغي فيها الإقدام كمواقف الدفاع عن النفس أو العرض أو الدين أو المستضعفين من الناس؛ فليس بالشجاع الذي يحمل السلاح، ويلبس ظلام الليل؛ ليسفك دماً معصوماً، أو ينهب مالاً بغير حق، أو يفسد في الأرض، ويرهب الآمنين، وإنما ذلك سفه الرأي، وقسوة القلب؛ فيلدان بغياً وفساداً في الأرض.

وعلماء الأخلاق يسمون مثل هذا الإقدام تهوراً.

ولم يكن عبيد النتيفي متهوراً، ولا متقوياً على الضعفاء، أو متسلطاً على أقاربه، أو جيرانه، أو أهل بلده، بل كان يعاشرهم كأحسن ما تكون المعاشرة؛ فذلك مقتضى الحكمة، وما تمليه الشجاعة الحقة؛ حتى ولو أسيء إليه؛ حيث يبدو له أن لذة الانتقام عرض زائل، وأن في الإقدام على حرب أولئك توسيعاً لثلمة العداوة، وتقليلاً لعدد أنصاره وإضاعةً لخصلة من أعظم خصال الشرف، وهي الحلم؛ فههنا يؤثر الإحجام على الإقدام؛ لذا لم يكن له عدوات أو خصومات مع جيرانه، أو أقاربه.

بل لم يكن يتعدى حتى على البعيدين ممن لا تربطه بهم علاقة قرابة، أو صداقة، أو جوار؛ فكان إباؤه للضيم -على نحو ما ذكر- جارياً مجرى الحكمة، والتدبر للعواقب.

ثم إن الشجعان في وقت عبيد النتيفي كثير، ولكنه كان يَفْضُلُ أكثرهم في التقدم إلى مواطن الخطر؛ فيخوض عبابها ثابت الجنان، ينطبق عليه قول السري الرَّفَّاء في سيف الدولة:

وأَغَرُّ يأنف أن يَصُدَّ عن الوغى حتى يُذِلَّ معاطِساً وأنوفا

وكان من ثقته بشجاعته أنه يقارع خصومه مجابهة لا مخاتلة، وربما أعطاهم فرصة للتراجع؛ فإذا أبوا إلا المركب الصعب تقدم غير هياب.

يحدثني الأستاذ إبراهيم المنصور عن أبي محمد: جروان بن أحمد السلطان رحمه الله قائلاً: «قال لي جروان السلطان: كنا شباباً في مقتبل أعمارنا نلعب في السوق، وكان أَكْبَرَنَا فلانٌ من الناس.

وكان في السوق رجل قدم من البادية، وكان ذا هيئة، وتبدو عليه آثار القوة والشجاعة، وكان معه خروف تصل قيمته من ثمانية إلى عشرة ريالات؛ فأتى أكبرنا وقال له: بعني إياه بثلاثة ريالات، فكأن صاحب الخروف غضب لهذا الطلب؛ فقال: اذهب وإلا ضربتك، وأشبعتك ضرباً، فقال له صاحبنا: لا تستطيع؛ أنت في سوق الزلفي.

فقال له الرجل: كلاماً معناه لا أنت، ولا أحد من أهل الزلفي يقف في وجهي».

يقول جروان رحمه الله: «فأخذتنا الحمية -وكان الوقت ظهراً- ولم نجد في السوق من أصحاب الدكاكين إلا الشجاعين: صالح الجويعي، وعبيد النتيفي، فذهبنا إلى صالح وكان متعباً، وعليه آثار النوم؛ فأخبره صاحبنا بالأمر، فقال اذهب هذا مجنون مثلك، لو كان عاقلاً ما قال هذا الكلام.

ثم ذهبنا إلى عبيد في دكانه، وأخبرناه بالأمر، فقال: لماذا لم تذهبوا إلى الجويعي؟ فقلنا: ذهبنا إليه وقال لنا: كذا وكذا.

فقال عبيد: ما أظن أن صاحب الخروف يقول ما قال: فأكّدنا له الخبر، فقال: قولوا له يأتِ إلي؛ فأتى إليه الرجل، فسلم عليه عبيد، وقال: هل ستبيع هذا الخروف، وما قيمته؟ فقال: نعم سأبيعه بالقيمة الفلانية.

فقال له عبيد: هؤلاء الشباب أخبروني أنك قلت كذا وكذا، وأنا أستبعد أن تقول مثل هذا الكلام.

فقال الرجل: بل قلت ذلك، وأكرره الآن؛ فقال له عبيد: تقول ذلك؟ قال نعم.

فقال له عبيد: إذاً خروفك سيكون بعشرة ريالات، ولكن أين أهلك؟ وفي أي ناحية يسكنون؟ فقال: في عريعرة، فقال له عبيد: سأتطارح -أتصارع- أنا وإياك، فإن غلبتك فنحن وإياك نأكل خروفك، وإن غلبتني فنحن نأكله وإياك، ونعطيك ثمنه.

فقال الرجل: حسناً، ثم ذهب الرجل إلى جهة أهله - وكانوا طارئين على البلد يتتبعون الكلأ، ومواضع القطر، مقيمين في ضاحية عريعرة- فأخبر قومه الخبر، وذُبح الخروف، وشُرِع في طبخه».

يقول جروان رحمه الله: «ولما صلينا العصر لبس عبيد النتيفي بشته، وتوجه إلى مكان الرجل -وكان يبعد قريباً من خمسة كيلو مترات- ونحن نسير على إثره، وكان كبيرنا يتقدمه أحياناً حتى وصلنا القوم؛ فشممنا رائحة الطبخ، ووجدنا القوم مجتمعين حول أمير لهم.

وكان أميرهم يعرف عبيد النتيفي، ولكن لم يكن يعلم أنه صاحب صاحبهم.

ولما رأى أميرهم عبيداً - تغير وجهه، ثم صار يقول لصاحبهم -ونحن نسمع-: (هل أنت مجنون تطارح -تصارع- النتيفي الذي يُصَرِّم الرضم)[1]؟

فقال له صاحبه: (إذا كان يصرم الرضم فنحن نطرِّح أولاد الإبل).

يقول جروان: وأنا أسمع عبيد يقول: الله يكفينا شَرَّه، الله يكفينا شَرَّه.

فظن الرجل أن عبيداً قد ذل.

وبعد أن تناولنا القهوة قال أميرهم: ابدؤوا بما جئتم من أجله، فقام عبيد والرجل، وبدأ النزال، وكان الرجل قوياً، ولكنه كل ما أراد أن يطرح عبيداً على الأرض ثَبَّتَ عبيدٌ رجليه، وهكذا استمر على هذا المنوال مدة ربع ساعة.

وبعدها طرحه عبيد أرضاً، وألقاه في جهة من الجهات.

فقام ذلك الرجل، وقال: (نريد جولة أخرى) فقال عبيد: (حسناً).

وفور بداية الجولة طرحه عبيد أرضاً دون أن يمهله.

ثم قام الرجل وقال: (نريد ثالثة) فأخذ عبيد بثوب نفسه، وصار يرفعه إلى أن بلغ فخذيه، ثم شرعا في النزال؛ فرماه عبيد مباشرة بعيداً، وإذا به قد انكشفت عورته في جهة فيها نساء، فصارت النساء تلقي عليه التراب».

يقول جروان: «ثم غاب الرجل عنا لحظات، ثم أقبل متوشحاً سلاحه، وقد أعدَّه للرمي، فلما رآه الأمير -وكان عاقلاً- قام إليه، وأخذ منه البندقية، وقال له: أما تستحيي؟ تأتي إلى الناس في سوقهم، وتتحداهم، ثم إذا غلبوك

---

(١) ومعنى يصرم الرضم: أي يقطع الحصى، وينحت من الصخور ما ينحت، ويصنع منها ما يصنع من نحو أحواض الماء (القراوة) وغيرها.

تأخذ سلاحك عليهم؟

ثم طرده، ثم وُضِعَ العشاء، فتعشينا، وشبعنا من اللحم ورجعنا».

ويضيف جروان السلطان رحمه الله قائلاً: «وفي طريق رجوعنا قال لنا عبيد رحمه الله: كنت أستطيع طرح الرجل أرضاً من أول الأمر، ولكنني آثرت أن يتراجع منذ البداية؛ فأردت إشعاره بأنه لن يستطيع طرحي، وأنني أستطيع طرحه بكل يسر؛ إذ هو يحس بذلك من تلقاء نفسه.

ولكنه أصر؛ فلما رأيت أنه لن يتنازل طرحته.

ولما طلب المنازلة في المرة الثانية والثالثة لم أرغب في إطالة الوقت معه؛ فطرحته مباشرة».

ويضيف الشيخ المقرئ عبدالله بن محمد النتيفي -حفظه الله- أنه لما تماسك عمه عبيد مع الرجل الآخر، وطال بينهما العراك في الجولة الأولى -وكانا حافيين- ساخت أرجُلُهما شبراً في الأرض من شدة تثبيت كل واحد منهما رجليه فيها.

ويحدثني -أيضاً- الأستاذ إبراهيم المنصور بقصة أخرى عن الراوية أبي سعود عبدالله بن عبدالعزيز العبيدي[1] رحمه الله فيقول: «إن عبدالله العبيدي يقول: كنا نعمل في البناء في أحد قصور الرياض، وكان معنا رجل من إحدى المدن، وكان قوي البدن شجاعاً، وكان تياهاً معجباً بنفسه؛ فكلما جلسنا قال: أتحداكم يا أهل الزلفي، أتحدى أي أحد منكم أن يطارحني -يصارعني- فكان ذلك دأبه حتى أضْجَرَنا من كثرة ما يردده من ذلك.

---

(١) والده شاعر الزلفي الكبير عبدالعزيز العبيدي رحمه الله وعبدالعزيز هذا ابن عمة عبيد النتيفي؛ إذ أم عبدالعزيز هي منيرة بنت إبراهيم بن علي النتيفي؛ فهي أخت أحمد والد عبيد.

وكان عبيد النتيفي يعمل بالطين والبناء في أحد القصور في الرياض، فأتيت إليه يوماً من الأيام وقلت: يا أبا إبراهيم القصة كذا وكذا، والرجل أشغلنا بكثرة تحديه لنا؛ فلعلك تتكرم، وتأتي إليه؛ لننظر كيف يصنع.

فما كان من عبيد إلا أن مسح الطين الذي بيديه بثوبه ثم أقبل معي، وسأل: أين الرجل؟ فأشرنا إليه، فقال عبيد: لا فخر لي إن طرحته بيديَّ، ثم وضع يديه خلف رقبته، ودعونا الرجل للنزال، فصار الرجل يمسك بعبيد من كل جهة، ويحاول إسقاطه، وعبيد ثابت، ولا يحرك يديه أبداً، بل استمر على وضعهما خلف رقبته.

ولما رأى عبيدٌ أن الرجل لن يستطيع أن يعمل شيئاً معه مال عليه بجسمه ميلة واحدة؛ فطرحه بعيداً فاستسلم الرجل، ولم يقل بعدها شيئاً».

وربما عرض عبيد نفسه للخطر والموت إذا رأى أن الأمر يستدعي ذلك؛ فتراه يُقْدِم مخاطراً دون أن يقي بدنه بدرع أو نحوه، وذلك من أبلغ ما يكون في الشجاعة كما في قول أبي تمام في مدح محمد بن حميد:

فأثبت في مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت أخمصك الحشر

وكما قال المعتمد بن عباد:

ما سرتُ قطُّ إلى القتا ... لِ وكان من أَمَلِيْ الرجوعْ

وبرزت ليس سوى القميـ ... ـص على الحشا شيءٌ دفوعْ

ومن الأمثلة على ذلك حادثة يرويها الدكتور سليمان بن عبدالله بن محمد النتيفي، ويروي -كذلك- الأستاذ إبراهيم المنصور عن أبي فراج: سليمان بن أحمد الفراج رحمه الله على اختلاف يسير بين الروايتين.

ومفادها أن قوماً نزلوا رملة نفود الزلفي ، ومعهم أمير لهم؛ فضايقوا أهل الزلفي في مراعيهم؛ فَكُلِّم أمير الزلفي آنذاك عبدالرحمن بن عطاالله ، وكان رحمه الله رجلاً عاقلاً حكيماً؛ فأرسل إليهم رسولاً يأمرهم بأن ينقلوا عن المكان إلى مكان آخر؛ فما كان من زعيم أولئك القوم إلا أن صار يسخر برسول الأمير وبالأمير، فقام الأمير، وقال لجماعة من أهل الزلفي سيروا بنا إليهم ، فساروا ملبين دعوة الأمير ومن ضمنهم عبيد النتيفي.

ولما كانوا على مقربة منهم أرسل الأمير ابن عطاالله رسولاً ، وقال : لعل الله يهدي القوم ، فلا نضطر للنزاع معهم ، فذهب الرسول إليهم ، ولكنه لم يجد إلا كالرد الأول المتضمن سخرية بألفاظ بذيئة ، فقال الأمير: إذاً نسير إليهم ، فلما أقبلوا عليهم وإذا بابن زعيم القوم جالس تحت شجرة ، ومعه سلاحه ، وصار يطلق عبارات النخوة قائلاً : أنا أخو فلانة.

وقد جاء الأمير ابن عطا الله ومن معه وليس معهم سلاح؛ لأنهم لا يرغبون في إراقة الدماء ، وإنما يريدون أن ينتهي الأمر بالتفاوض ، وبأيسر ما يكون.

ولما رأوا الرجل ، ومعه سلاحه ، وهو محضر للفتنة توقفوا ، فقال عبيد للأمير: ماذا تنتظرون؟ فقال له الأمير: الأمر كما ترى؛ فتقدم عبيد دون أن يتقي بشيء إلى الرجل الذي يردد قوله : أنا أخو فلانة ، فقال : بل أنا أخو فلانة ، ثم أقبل على ذلك الرجل المتسلح إقبال الشجاع على وادي السباع؛ فما كان من ذلك الرجل إلا أن أطلق النار من بندقيته على عبيد ، فمر الرصاص عند أُذُن عبيد ، وحاول أن يضع الرصاصة الثانية ، وإذا بعبيد النتيفي يصل إليه قبل أن يتمكن من وضعها ، فضرب الرجل بقفا يده ، وإذا به في جهة ، وسلاحه بجهة

أخرى، ثم أقبل الناس إليهم، وأزالوا عمد خيام القوم، وألقوها في الأرض؛ فجاء كبيرهم معتذراً، وقال: أمهلونا يومين أو ثلاثة، فقالوا: لا نمهلك ولو ساعة؛ لقد حاولنا معك بما فيه الكفاية.

فهذه قصة مشهورة، وتُذكَرُ كثيراً، وكان بطلها عبيد النتيفي الذي غامر تلك المغامرة، ولم يكن بينه وبين الموت شيء، ولسانه يقول:

لابـــد أن أركبهـــا صـــعبةً وقاحـــةً تحـــت غـــلام وقـــاحْ
أُجْهِـــدُها أو تنـــثنيْ دونـــه دون الـــذي أمَّلـــت أو بالنجـــاحْ
إمـــا فتـــىً نـــال المنـــى فاشـــتفى أو بطـــل ذاق الـــردى فاســـتراحْ

وكان وقت تلك الحادثة ما بين ١٣٣٩-١٣٥٥هـ وهو وقت إمارة عبدالرحمن بن عطاالله، مما يعني أن عبيداً كان في أوائل شبابه.

فهذه لمع من أخبار عبيد النتيفي رحمه الله وهي تعطي صورة واضحة لما كان عليه من الخلق، وشرف النفس، والقوة، والشجاعة المنقطعة النظير.

وهي ليست كل ما يذكر عنه؛ إذ في جعبة معاصريه وعارفي أخباره الكثيرُ من ذلك.

وهي تعطي صورة للشجاعة الحقة، وللرجل الشجاع الشريف العاقل الذي وُهِبَ الشجاعة، وقوة البدن؛ فوظَّف ذلك أحسن توظيف، وسار بها على مقتضى الحكمة؛ فصارت نعمة عليه وعلى قومه، ولم يَسِر بها سيرة السَّفَه، والطيش، والتيه، فَكُتِبَ لصاحبها الخلود، وصار له لسان صدق في الناس، وأضحى ممن ينطبق عليه معنى الصُّرَعة حقًّا بشقيها العُرفي، والشرعي؛ فالصُّرَعة في عرف الناس هو الذي يصرع الناس، والصُّرَعَة المحمودة شرعاً هو من يملك

نفسه عند الغضب.

وفاته: كثير من الناس يظن أن عبيد النتيفي عُمِّر طويلاً، وذلك أنهم يسمعون عن أخباره، وبطولته، وشجاعته.

والحقيقة أنه توفي بعد حياة قصيرة، قِوامُها ـفي الكثيرـ ستٌّ وأربعون سنة، وذلك بعد وفاة والده أحمد بن إبراهيم النتيفي بشهرين تقريباً حسب إفادة ابن أخيه الشيخ عبدالله بن محمد بن أحمد النتيفي، فدفن عبيد قريباً من قبر والده في مقبرة الزلفي، وقبراهما معروفان إلى الآن في المقبرة الشمالية في الزلفي.

وقد وقفت على هذين القبرين عصر يوم الأحد ١٤٤١/١٠/١٥هـ بصحبة شيخنا معلم القرآن الشيخ عبدالله بن محمد بن أحمد النتيفي، ونجله الدكتور سليمان ـحفظهما اللهـ حيث أرشدني الشيخ عبدالله إلى القبرين، وكان قبر عبيد مُعَلَّماً بحصاة رحى، وكأن ذلك التعليم الذي جاء من غير قصد يشير إلى شجاعة مَن في ذلك القبر.

أما وفاة والده فكانت في عام ١٣٦١هـ وربما تكون في شهر رمضان من ذلك العام.

ويظهر ـوالله أعلمـ أن عبيداً رحمه الله قد أحس بدنو أجله بعد وفاة والده؛ لذا بادر إلى كتابة وصيته.

وهذه الوصية تحتاج إلى أن يوقف عندها من خلال ما يلي:

١ـ أن الذي كتب الوصية هو الشيخ العالم الكاتب المعروف محمد بن سليمان الذييب ١٣٢٧ـ١٣٧٩هـ وهو ابن أخي سارة بنت إبراهيم الذييب زوجة عبيد

النتيفي ، فهي عمته ، وأخت والده سليمان بن إبراهيم الذييب.

٢ـ أن الوصية كتبت في ٧ شوال ١٣٦١هـ أي بعد وفاة والد عبيد بمدة يسيرة.

٣ـ أنه أوصى بثلث ماله؛ تقرباً إلى الله؛ بحيث يحج عنه حجة ، ويضحى عنه بأضحيتين على الدوام ، واحدة له ولوالديه ، وواحدة لجدته لأمه سلطانة[1] ، ولابنها : خاله عبدالعزيز المطير المسعود.

٤ـ أنه أوصى بنصيبه من نخل أبيه في عريعرة أن يجعل من ثلثه.

٥ـ أنه أوكل ابنه الأكبر إبراهيم على ذلك حال بلوغه وصلاحه.

وقبل ذلك تكون الوصية لأم إبراهيم ـزوجة عبيد سارة الذييبـ.

٦ـ أنه جعل عبدالله بن سليمان الرومي وصيًّا على الجميع ، ووكيلاً على قضاء الدين.

وقد أشكل ذلك عليَّ في بداية الأمر؛ إذ لا أعرف من يكون بالضبط ، ولم يَدُر في بالي إلا الشيخ عبدالله بن سليمان بن علي الرومي أخو الشيخ القاضي علي الرومي ـرحمهم اللهـ.

ولكنني توقفت بحكم فارق السن بين الاثنين؛ فعبيد ولد عام ١٣١٦هـ ، والشيخ عبدالله ولد عام ١٣٣٨هـ تقريباً؛ فيكون عمر عبيد حال كتابة الوصية خمساً وأربعين سنة ، وعمر الشيخ عبدالله ثلاثاً وعشرين سنة.

ولما سألت اللواء صالح بن عبدالله بن سليمان الرومي عن هذه الوصية

---

(١) هي سلطانة بنت موسى الغيث من الشماسية.

وقد ذكر لي الشاعر الأستاذ إبراهيم المنصور أن أسرتهم المنصور في الزلفي ، وأسرة الغيث في الشماسية أسرة واحدة.

أجاب بأن والده هو الوصي، وأن أبناء عبيد: إبراهيم وسليمان كانا كثيراً ما يزوران والده، ويقولان له أنت وصي والدنا علينا.

وهذه غريبة؛ حيث أوصى شاباً يصغره باثنتين وعشرين سنة بهذه الوصية، دون أن يكون بينهما قرابة.

ولكن الغرابة تزول بكون الشيخ عبدالله من أهل العلم، والقلم، والصلاح، والأمانة، والنزاهة، وبحكم علاقة الصداقة بين أُسْرَتَيْ: النتيفي والرومي، وبحكم الجوار بينهما في الأملاك والمعرفة القديمة.

وربما كان يجمعهما مجالس الذكر التي تعقد، والتي كان عبيد النتيفي يَحْضُرها، ويقوم بها.

٧ـ أن عبيداً أشهد على الوصية أخاه الأكبر محمداً [1]، وأشهد عليها كاتبها الشيخ محمد الذييب ـرحمهم الله جميعاً.

٨ـ أن عبيداً توفي بعد كتابة الوصية بمدة يسيرة؛ إذ كتب الوصية في ١٣٦١/١٠/٧هـ ونفذت الوصية في ١٣٦٢/٢/١٠هـ كما هو واضح من تذييل الشيخ محمد الذييب في آخرها.

وقد يكون عبيد توفي في المحرم أو أوائل صفر من عام ١٣٦٢هـ؛ إذ بين كتابة الوصية وتنفيذها مدة أربعة أشهر، وثلاثة أيام؛ إذ المشهور أن عبيداً توفي عام ١٣٦٢هـ.

---

(١) محمد بن أحمد النتيفي هو الأخ الأكبر لعبيد، وهو من ذوي الحفظ، والأخبار، والذاكرة القوية. وقد توفي رحمه الله عام ١٤٠١هـ في حادث سير وهو يمشي على رجليه قرب مسجد أبي عتيق الواقع قرب سوق الزلفي الشمالي.

ولا يبعد أن يكون قد توفي في أواخر ١٣٦١هـ إما في شهر شوال، أو ذي القعدة، أو ذي الحجة.

ولا يبعد أن يكون كتب وصيته بعد إصابته التي كانت سبب وفاته؛ إذ بين إصابته ووفاته ثلاثة أيام أو خمسة أيام ـعلى ما سيأتي بيانهـ.

ولكن المؤكد أن وقت وفاته ما بين كتابته للوصية في ١٣٦١/١٠/٧هـ وتنفيذ الوصية في ١٣٦٢/٢/١٠هـ.

وهذا نص الوصية بخط الشيخ محمد الذييب رحمه الله:

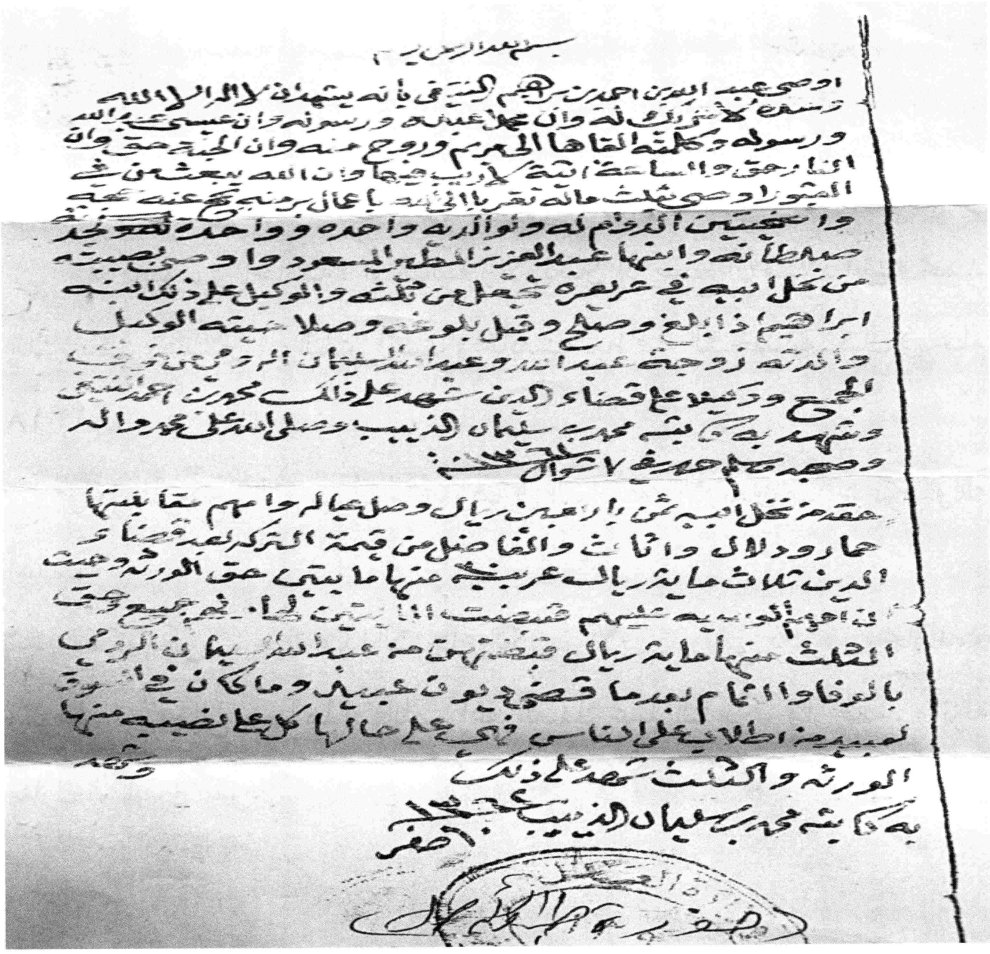

أما سبب وفاة عبيد رحمه الله : فهو أنه كان يحفر بئراً، أو يطويها في مزرعة الدخيل في عريعرة؛ فسقطت عليه حجارة وهو في أسفل البئر؛ فأخرجوه من البئر، وأصيب من جرائها في رأسه إصابة بالغة؛ فصاروا يعالجونه؛ رغبة في إيقاف الدم والتئام الجرح.

ومما وضعوه عليه غاز الكيروسين المعروف بـ(القاز)، وبعد أن وُضِع على مكان الجرح لم يُمهَل، وإنما مات بعدها.

وكان بين وقوع الحجر عليه، ووفاته مدة ثلاثة أيام -كما يقول حفيده خليل بن إبراهيم- أو خمسة أيام -كما يقول الشيخ عبدالله بن أخيه محمد.

وعلى هذا فإن عُمر عبيد النتيفي لم يتجاوز السادسة والأربعين بحال.

وقد يكون في الخامسة والأربعين لما توفي.

وقد يكون في الحادية، أو الثانية والأربعين إذا صح أن ميلاد أخيه محمد الذي يكبره بسنتين، والذي أُثْبِتَ في تابعيته -بطاقته الشخصية- كان في عام ١٣١٨هـ.

ولعل المرجح والأقرب أنه مات وهو في السادسة والأربعين من عمره -والله أعلم-.

وهكذا طويت حياة هذا الشجاع الكريم الأبي، وبقي ذِكْرُه، ومحامده، ومواقفه تروى إلى يومنا هذا؛ فاللهم اغفر لعبدك عبيد النتيفي، وارحمه، وأنزله منازل السابقين المقربين.

الكعبة: مثابة ومهابة
خواطر بعد دخول الكعبة المشرفة والصلاة فيها

الكعبة، وما أدراك ما الكعبة! بيت الله الحرام، وأول بيتٍ وضع للناس.

الكعبة مثابة للناس؛ فهي مرجع لهم، ومَعَادٌ يأتونه كلَّ حينٍ حجًّا، أو عمرة، أو زيارة؛ فلا يقضون منه وَطَراً كما قال ورقة بن نوفل في صفة الحرم:

مثـــاب لأفنـــاء القبائـــل كلـــها تخـب إليـه الـيعملات الطلائـح

فالنـاس كلمـا أتوهـا، ورجعـوا منهـا ـ حَنُّـوا إليهـا، ورغبـوا في زيارتهـا؛ فلا ينصرف المنصرف عنها وهو يرى أنه قضى وطره منها، كما قال الأول:

جعـــل البيـــت مثابـــاً لهـــمُ لـيس منـه الـدهرَ يقضـون الـوطر

وهي **مثابةً** ـ كذلك ـ من جهة أنه لا ينصرف عنها قـوم إلا ويخلفهـم آخـرون؛ فكأن الذين يَخْلُفونهم قائمون مقامهم بالنسبة للبيت وسكانه.

والكعبة ـ كذلك ـ **أمن؛** فقد جعلها الله أمناً للناس؛ لأنهم كانوا ـ في الجاهلية ـ يؤمِّنون فيها كل أحد، حتى إن الرجل منهم لو لقي قاتل أبيه أو أخيه لم يُهِجْـهُ، ولم يعرض له حتى يخرج من الحرم.

والبيت الحرام يحول بين القوي والضعيف؛ فَيُصَـدُّ القـوي فيـه عـن أن يتنـاول الضعيف.

والكعبة قيام للناس؛ فبها يَقُوم أَمْرُ دينهم ودنياهم؛ فطالما أن هـذا البيـت قـائم مُعظَّم، وطالما أن أفئدة من الناس تهوي إليه حجًّا، أو عمرة، أو زيـارة، و طالمـا أنهم يؤمُّونه، ويعظمونه ـ فإن دنيا الناس باقية، والعكس.

ولهذا إذا كان آخر الزمان، فغزا ذو السويقتين الكعبة؛ فهدمها حجراً حجراً كان ذلك مؤذِناً بخراب العالم، وقيام الساعة.

والكعبة أول بيت وضع للناس مباركاً وهدىً للعالمين.

فكونه مباركاً؛ لأن الخير نازلٌ فيه، كثير متنوع؛ فمن أجلى صور البركة فيه مغفرة الذنوب، ومضاعفة الثواب، ورفاهية الحال.

وكونه هدىً للناس أنه شاملٌ لجميع العالمين؛ إذ إن شهرته، وتسامُعُ الناس فيه يحملهم على التساؤل عن سبب وضعه، وأنه لتوحيد الله ـ عز وجل ـ وتطهيرِ النفوس من خبث الشرك؛ فيهتدي بذلك المهتدي، ويرعوي المتشكك، وتقوم الحجة على الجاحد.

وهذه الكعبة مُهَابة، مُعظمة، موقرة، وما تعظيمها إلا من تعظيم مُعَظِّمها، وما لقيت ذلك إلا لما ألقاه الله ـ عز وجل ـ في القلوب من تعظيمها؛ فكما أن المحبة منه ـ عز وجل ـ وهو الذي يلقيها على من يشاء من خلقه؛ لحكمة بالغة، كما ألقاها على موسى ـ عليه السلام ـ فجعله محبباً إلى عباده ـ فكذلك التعظيم منه ـ جل ثناؤه ـ فهو يلقيه على من شاء من البقاع، والذوات؛ فتصبح القلوب معظمة لذلك دون استرهاب، أو خلابة كما كان ذلك شأن الكعبة، وشأن نبينا محمدﷺ.

فالكعبة أحب البقاع، وأعظمها عند الله، ومحمدﷺ أحب العباد وأعظمهم عنده ـ عز وجل ـ.

ولهذا كان له ـعليه الصلاة والسلامـ من المحبة والتعظيم ما لم يكن لأحد مع ما كان عليه من التواضع، والبساطة، والبعد عن العوارض التي تصطاد

النفوس ، وتسترهب العيون؛ فحصل له أعظم إجلالٍ في نفوس أعدائه بَلْه أوليائه؛ فيكون فيه دليل على أن جلاله مستمد من عناية الله ـتعالى ـ وتأييده.

روى أبو داود ، والترمذي أن قيلة بنت مَخْرمة جاءت رسول الله في المسجد وهو قاعدٌ القرفصاءَ قالت : «فلما رأيت رسول الله المتخشع في الجلسة أرعدت من الفَرَق».[١]

فقولها : «المتخشع في الجلسة» : أَوْمَأَ إلى أن شأن المتخشع في المعتاد ألا يرهب ، وهي قد أَرْعَدَتْ منه؛ رهبة.

ووصف كعب بن زهير رسول الله حينما دخل عليه المسجد في أصحابه مؤمناً تائباً ، وكان كعب يومئذ أقرب عهداً بالشرك ، وأوغل في معرفة مظاهر ملوك العرب وسادتهم؛ إذ هو الشاعر ابن الشاعر؛ فإذا هو يقول بين يدي رسول الله يصف مجلسه :

لقد أقوم مقاماً لو أقوم به ... أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل
لظل يرعد إلا أن يكون له ... من الرسول بإذن الله تنويل

ثم يقول في صفة الرسول :

لذاك أهيبُ عندي إذ أُكَلِّمُه ... وقيل : إنك منسوب ومسؤول
من خادر من ليوث الأُسْدِ مسكنه ... من بطن عَثَّرَ غِيلٌ دونه غيلُ[٢]

وجاء في صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص ﷺ ـوهو في سياق الموتـ أنه قال : «وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجلَّ في عينِي منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عينَيَّ منه؛ إجلالاً له ، ولو سُئلتُ أن أصفه ما أطقتُ؛ لأني لم أكن أملأُ عينَيَّ منه».[٣]

---

١ ـ أبو داود (٤٨٤٧) والترمذي في سننه (٢٨١٤) وفي الشمائل (١٢٠).

٢ ـ عثَّر : مكان مشهور بكثرة السباع ، والغيل : الشجر الكثير الملتف. انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/١١٤ـ١١٥.

٣ ـ أخرجه مسلم (١٢١).

وهذا التعظيم والإجلال ـ كما يقول ابن تيمية ـ قد جعله الله في القلوب قرناً بعد قرن؛ فالناس يشهدون، ويقرُّرون بعظيم منزلته، وعلوِّ درجته من غير مُكْرِهٍ يكره القلوب على ذلك العلم والمعرفة مع كمال عقول الناظرين في ذلك؛ فهذا كله من أعظم الأمور الخارقة للعادة الخارجة عن طور البشر، الدالة على أن واهب ذلك التعظيم هو الله ـ عز وجل ـ.

وشبيه بذلك ما جعله الله لإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونوح وغيرهم من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من المحبة والتعظيم، وما في قلوب المؤمنين ـ أيضاً ـ من البغض الذي جُعل للكفار وأتباعهم.

والحاصل أن الله ـ عز وجل ـ قد **جعل للكعبة** خصوصاً، ولمكة عموماً من التعظيم ما لم يجعله لبقعة أخرى إلا ما جعله لبيت المقدس، وما جعله لمدينة رسول الله ﷺ بعد هجرته إليها؛ إذ لم يكن للمدينة قبل الإسلام شأن يذكر إلا بعد ما كان لها بعد الهجرة.

مع أن تعظيم الكعبة ومكة أرفع وأجلُّ من غيرهما، وأن هذا التعظيم باقٍ على تقادم الأزمان، واختلاف الأحوال.

وهذا مما يزداد به إيمان المؤمنين، وتعظم به حيرة الضلال والمتشككين.

ولقد قرر ذلك كثير من علماء الإسلام، ومنهم ابن تيمية رحمه الله في الصفدية في معرض مناقشته للفلاسفة، وردِّه عليهم في إنكارهم للمعجزات، وادعائهم أن معجزات الأنبياء قوىً نفسانيةً؛ حيث ذكر بالتفصيل تسعة أوجه للرد على الفلاسفة، بيَّن من خلالها بطلان قولهم، وأثبت صحة وقوع المعجزات، وضَرَبَ أمثلةً حسيَّة على أن المعجزات خارجة عن قوى نفوس البشر.

ومن تلك الأمثلة بيانه **لما حصل للكعبة البيت الحرام** من حين بناه إبراهيم -عليه السلام- إلى هذا الوقت من التعظيم، والتوقير، وانجذاب القلوب إليه، وأن الملوك يبنون الحصون، والمدائن والقصور ثم لا يلبث بنيانهم أن ينهدم، ويهان.

وقرر أن الكعبة بيت مبنيٌّ من حجارة سود بوادٍ غير ذي زرع ليس عنده ما تشتهيه النفوس من البساتين والمياه، وغيره، ولا عنده عسكرٌ يحميه من الأعداء، ولا في طريقه من الشهوات ما تشتهيه الأنفس، بل كثيراً ما يكون في طريقه الخوف، والتعب، والعطش، والجوع.

ومع هذا فقد جعل في أفئدة الناس التي تهوي إليه من الحب والتعظيم ما لا يعلمه إلا الله، وجعل له من العز، والشرف، والعظمة ما أذل به رقاب أهل الأرض؛ حتى تقصده عظماء الملوك، ورؤساء الجبابرة؛ فيكونون هناك في الذل والمسكنة كآحاد الناس[1].

ثم يصل إلى الشاهد من ذلك فيقول: «وهذا مما يُعلم بالاضطرار أنه خارج عن قدرة البشر، وقوى نفوسهم، وأبدانهم والذي بناه قد مات من ألوف السنين»[2].

ثم يبين بعد ذلك أن «أمر البيت مما حير الفلاسفة والمنجمين، والطبائعية؛ لكونه خارجاً عن قياس عقولهم، وقوانين علومهم حتى اختلقوا لذلك من الأكاذيب ما يعلمه كل عاقل لبيب، مثل قولهم: إن تحت الكعبة بيتاً فيه صنم يُبَخَّر، ويَصْرِف وجهه إلى الجهات الأربع؛ ليقبل الناس إلى الحج»[3].

---

(١) انظر الرسالة الصفدية ٢٢٦-٢٢٧.

(٢) الرسالة الصفدية ص٢٢٧.

(٣) الرسالة الصفدية ٢٢٧.

ثم يعلق على ذلك بقوله: «وهذا مما يَعْلَم كلُّ مَنْ عرف أمرَ مكة أنه من أبين الكذب، وأنه ليس تحت الكعبة شيء من هذا، وأنه لا ينزل أحد من أهل مكة إلى ما تحت الكعبة، ولا يحفره أحد، ولا يبخر أحد شيئاً هناك، ولا هناك صنم ولا غير صنم»[١].

ثم يذكر بعد ذلك حيرة ابن سبعين[٢] وأمثاله من سر هذا الانجذاب للكعبة، وأنهم ربما قالوا: ليت شعرنا ما هو الطلسم الذي صنعه إبراهيم الخليل حتى صار الأمر هكذا؟.

ثم يقرر أن الطلاسم إنما يقوى تأثيرها إذا ضعف العقل، وهكذا الشياطين كلما ضعفت القوى قوى تأثيرهم[٣].

إلى آخر ما قاله رحمه الله في ذلك الشأن.

بل إن ذلك التعظيم للكعبة مما نطقت به بشارات الكتب السابقة؛ فلقد صَرَّحَت بما لا يدع مجالاً للشك باسم مكة، والكعبة المشرفةِ، وَوَصْفِها بما لا يدع للشك مجالاً بصدق نبوة محمد ﷺ وبكونه بُعِث من مكة، ودعا إلى تعظيم الكعبة، وحج البيت الحرام، وما إلى ذلك من الأوصاف.

ومن أجلى ما في ذلك ما جاء في نبوءات أشعياء ـ عليه السلام ـ .

---

(١) الرسالة الصفدية ص٢٢٧، وانظر النبوات ١/٥١٠.

(٢) هو أبو محمد عبدالحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر الرقوطي الأندلسي؛ نسبة إلى بلدة رقوطة، وهي قريبة من مرسية، المشهور بابن سبعين، وهو من الصوفية الفلاسفة القائلين بوحدة الوجود، ولد سنة ٦١٤هـ، وكان في الأندلس ثم نزل مكة، وتوفي سنة ٦٦٩. انظر العبر في خبر من غبر للذهبي، ٥/٣٩١-٣٩٢، ولسان الميزان لابن حجر ٣/٣٩٢.

(٣) انظر الرسالة الصفدية ٢٢٧.

وفيما يلي ذكر لنزرٍ يسير مما جاء في ذلك الشأن:

١ـ **قال أشعياء النبي ـعليه السلامـ مثنياً على مكة:** «ارفعي إلى ما حولك بصرك، فستبتهجين، وتفرحين من أجل أن يصير إليك ذخائر البحر، وتحج إليك عساكر الأمم حتى يعم بك قطر الإبل الموبَّلة[١]، وتضيق أرضك عن القطرات التي تجتمع إليك، وتساق إليك كباش مدين، ويأتيك أهل سبأ[٢]، ويسير إليك أغنام فاران، ويخدمك رجال مأرب»[٣][٤].

قال ابن تيمية رحمه الله معلقاً على هذه البشارة: «فهذه الصفات كلها حصلت بمكة، فحملت إليها ذخائر البحرين، وحج إليها عساكر الأمم، وسيقت إليها أغنام فاران ـ الهدايا والأضاحي ـ وفاران هي البرية الواسعة التي فيها مكة، وضاقت الأرض عن قطرات الإبل الموبَّلة الحاملة للناس وأزوادهم إليها، وأتاها أهل سبأ، وهم أهل اليمن»[٥].

٢ـ **وقال أشعياء النبي ـعليه السلامـ في مكة:** «سيري واهتزي أيتها العاقر التي لم تلد، وانطقي بالتسبيح، وافرحي إذ لم تحبلي؛ فإن أهلك يكونون أكثر من أهلي»[٦].

قال ابن تيمية رحمه الله معلقاً على هذه البشارة: «ويعني بأهله: بيت المقدس، ويعني بالعاقر: مكة ـ شرفها الله ـ لأنها لم تلد قبل نبينا ﷺ.

---

١ ـ الموبَّلة: المثقلة.

٢ ـ سبأ: أرض باليمن.

٣ ـ رجال مأرب: هم سدنة الكعبة، وهم أولاد مأرب بن إسماعيل.

٤ ـ انظر الجواب الصحيح ٥/٢٥٥، ونحو ذلك في سفر أشعياء الإصحاح الستون ٤ـ٧ والعهد القديم ٨٤٠

٥ ـ الجواب الصحيح ٥/٢٥٦، وانظر هداية الحيارى ص ١٥٥.

٦ـ الجواب الصحيح ٥/٢٥٩، وانظر نحو ذلك في الترجمة الحالية لهذه البشارة في سفر أشعياء الإصحاح الرابع والخمسون ١ـ٣ والعهد القديم ٨٣٥.

ولا يجوز أن يريد بالعاقر بيت المقدس؛ لأنه بيت للأنبياء، ومعدن الوحي؛ فلم تزل تلك البقعة ولاَّدة»[١].

٣ـ وقال أشعياء ـ والمراد مكة ـ: «أنا رسمتك على كفي، وسيأتيك أولادك سراعاً، ويخرج عنك من أراد أن يُخيفك ويخونك؛ فارفعي بصرك إلى ما حولك؛ فإنهم سيأتونك، ويجتمعون إليك؛ فتسمي باسمي، إني أنا الحي؛ لتلبسي الحُلل وتزيني بالأكاليل[٢] مثل العروس، ولتضيقن خراباتك[٣] من كثرة سكانك والداعين فيك، وليهابن كل من يناوؤك، وليكثرن أولادك حتى تقولي من رزقني هؤلاء كلهم وأنا وحيدة فريدة؛ يرون رقوب[٤] فمن ربَّى لي هؤلاء ومن تكفل لي بهم؟»[٥].

قال ابن تيمية رحمه الله: «وذلك إيضاح من أشعياء بشأن الكعبة؛ فهي التي ألبسها الله الحلل الديباج الفاخرة، ووكل بخدمتها الخلفاء، والملوك، ومكة هي التي رَبَّى الله لها الأولاد من حجاجها، والقاطنين بها.

وذلك أن مكة هي التي أخرج عنها كل من أن أراد أن يخيفها، ويخربها، فلم تزل عزيزة مكرمة محرمة، لم يهنها أحد من البشر قط، بل أصحاب الفيل لما قصدوها عذبهم الله العذاب المشهور، ولم تزل عامرة محجوجة من لدن إبراهيم الخليل.

بخلاف بيت المقدس؛ فإنه قد أُخْربَ مرة بعد مرة، وخلا من السكان، واستولى العدو عليه وعلى أهله.

١ـ الجواب الصحيح ٢٥٩/٥، وانظر هداية الحيارى ص ١٥٦.

٢ـ الأكاليل: شبه عصابة للرأس تزين بالجواهر، ويسمى التاج إكليلاً. انظر مختار الصحاح ٥٧٧.

٣ ـ الخرابات: المواضع. انظر مختار الصحاح ١٧١.

٤ ـ الرقوب: الذي لا ولد له. انظر المصباح المنير ص ٢٣٤.

٥ ـ انظر الجواب الصحيح ٢٦٣/٥.

وكذلك إخباره بإهانة كل من يناويها: هو للكعبة دون بيت المقدس، قال ـتعالى ـ: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الحج: ٢٥.

إلى أن قال: «وأما كثرة أولادها، وهم الذين يحجون إليها، ويستقبلونها في صلاتهم، فهم أضعاف أضعاف أولاد بيت المقدس»[١].

٤ ـ **وقال أشعياء ـعليه السلام ـ في كتابه عن الحرم:** «إن الذئب والجمل يرتعان فيه معاً»[٢].

قال ابن القيم رحمه الله معلقاً على هذه البشارة: «إشارة إلى أمنه[٣] الذي خصَّه الله به دون بقاع الأرض؛ ولذلك سمّاه البلد الأمين، وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ العنكبوت: ٦٧.

وقال يعدد نعمه على أهله: ﴿ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ قريش»[٤].

هذه هي الكعبة؛ سواد عين الدنيا، وسوداء قلبها؛ الكعبة مهوى الأفئدة، ومغناطيس القلوب، وهَيُولَى كلِّ حُسْنٍ.

وكل مسلم أَوْمَضَتْ في قلبه بارقةُ إيمان يَجِدُ نفسه مشدوداً إلى الكعبة حبًّا، وشوقاً، وحنيناً، ومهابةً، وتعظيماً.

وأكثر المسلمين، بل أكثر الأمم السابقة لم يروا الكعبة، ولم يعرفوا وَصْفَها على الحقيقة؛ لأنهم لم يتمكنوا من المجيء إلى مكة، وأداء الحج.

---

١ ـ الجواب الصحيح ٥/ ٢٦٣ـ٢٦٥.

٢ ـ هداية الحيارى ص ١٥٧، وانظر الإصحاح الحادي والستين من سفر أشعياء.

٣ ـ يعني أمن الحرم المكي.

٤ ـ هداية الحيارى ص ١٥٧.

وإنما يعرفونها بحسب ما يَصِفُها لهم من رأوها، أو كتبوا عنها.

وفي العصور المتأخرة، وبعد ظهور التصوير الفوتوغرافي أضحى تصورُ الكعبة أَمْكَنَ من ذي قبل.

ثم لما جاء التصوير المتحرك بتطوُّره المتسارع صار تصوُّرها أجلى، وأوضح حتى لكأن الإنسان يراها رأي العين.

ولكن الخبر ليس كالعيان؛ فرؤيتها عبر الصور الثابتة أو المتحركة شيء، ورؤيتها مباشرة شيء آخر.

والمسلم على وجه الخصوص مرتبط بالكعبة ارتباطاً لا ينفك؛ فمنذ أن يشبَّ عن الطوق، ويبدأ بتعلم ما يجب عليه من أمر دينه ـ تكون الصلاة أهم ما يتعلمه بعد الشهادتين.

ومن أول ما يتبادر إلى ذهنه سؤال يتردد عن سبب الصلاة إلى جهة القبلة، فما هذه القبلة؟ وما سرُّ التوجه إليها؟ ولماذا لا تصح الصلاة إلا باستقبالها؟.

فمن هنا تبدأ تلك العلاقة التي تزيد وثاقة مع مرورِ الأيام، وكرورِ الأعوام، وزيادة العلم، والإيمان.

ولما كنا صغاراً لم نكن نعرف الكعبة إلا من خلال صورتها التي توجد في بعض المقررات الدراسية، أو من خلال رؤيتها في الصحف، أو النظر في جهاز صغير يأتي به الحجاج من ضمن هداياهم، وهو بحجمٍ أقل من ثلاثة أصابع طولاً وعرضاً، فتضغط على أسفله مرة إثر أخرى، فترى صورة الكعبة والمسجد الحرام من جهات عدة.

فهذا هو منتهى ما نعرفه عن الكعبة؛ إذ لم يكن عندنا في تلك الفترة تلفاز، ولم يكن البث يصل إلينا.

وكان مما نسمعه عن الكعبة ما يزودنا به من يذهبون إليها من الجيران، والأصدقاء؛ بحيث يصفون الحرم، ومكة بحسب ما يتيسر لهم من دقة الوصف، ومصداقيته.

وكلما سمعنا عن وصفها ازداد شوقنا إليها.

وكان من ضمن أولئك الجيران فتىً كان في الثالثة عشرة من عمره، وكان يذهب إلى مكة مع أخواله كثيراً، وكان ذلك الفتى مولعاً بالغرائب، ونسج الأساطير؛ فكان مما يحدثنا به عن الكعبة والحرم عموماً أنه يقول: إن المسجد الحرام هو آخر الدنيا، وأن أحد جهاته نهاية العالم؛ فلا يوجد شيء بعده، فارتسم في خيالي صورة ذهنية عن ذلك المشهد، وتصورت أن آخر الدنيا هوَّةٌ سحيقة مَن اقترب منها سقط، ولم يرجع مرة أخرى إلى هذه الدنيا.

ولما يسَّر الله لي الحج عام ١٤٠٢هـ وكنت في بداية المرحلة الثانوية ـ كان أول ما خطر في بالي رؤية الحرم، والكعبة، ورؤية ذلك المكان الذي تصورت أنه حافَّة الدنيا، ونهايتها؛ بناءً على رواية صاحبنا ذي الخيال الواسع.

ولكني فوجئت بأن نهاية الحرم من كل جهة نهاية لا تتوافق مع ما رواه لنا صاحبنا الآنف الذكر.

وكانت تلك الحجة مليئة بالأخبار، والمواقف؛ إذ كانت بصحبة جمع من الأقارب، واستمرت من اليوم الثاني إلى اليوم السادس عشر من ذي الحجة، وليس هذا مقام الحديث عن تلك الحجة.

ثم توالى ـ ولله الحمد ـ القدوم إلى مكة، حَجًّا، أو عمرةً، أو زيارة.

وكل يوم يزداد الشوق، ويتضاعف الحب، فمن ذا الذي تغيب عن باله الكعبة؟ وكيف تغيب عن بالِ أي مسلم وهي تتمثل له بكل سبيل، ويتوجه إليها في ليله ونهاره؟

ثم إن الإنسان في كل طواف يحاول القرب من الكعبة، واستلام الركن اليماني، وتقبيل الحجر الأسود.

ولكن الأغلب أن ذلك لا يتسنى خصوصاً تقبيل الحجر، حتى صار تقبيله قريباً من اليأس.

أما دخول الكعبة فكثيراً ما أسمع بعض أخبار من دخلوها، وكان ذلك بالنسبة لي حلماً في الكرى؛ إذ لم يخطر ببالي أن أدخلها، بل لم أحاول ذلك أبداً.

وفي يوم الأحد الموافق للسادس من شهر الله المحرم عام ١٤٤٠هـ عزمت على الذهاب إلى مكة؛ لأداء العمرة، فاتصلت بأحد أَعِزَّة الأصدقاء من مكة، وأخبرته أني سآتي في ذلك اليوم؛ فقال لي: ليتك تؤجل عمرتك إلى الأسبوع القادم.

فقلت له: ولِمَ؟ فقال: لأجل أن توافق يوم غسيل الكعبة الموافق للخامس عشر من شهر الله المحرم.

فقلت: وما شأني بذلك؟ فقال: لعله يتيسر لك دخول الكعبة.

فقلت له: وهل يمكن ذلك؟ فقال: الوقت متأخر، ولكن لعلنا نحاول في إيجاد تصريح دخول، فَأَرْسِلْ لي بطاقتك، وأنا سأحاول؛ فإن يسَّر الله ذلك فتلك نعمةٌ كبرى، وفرصة عظمى، وإن لم يتيسر ـ فالحمد لله؛ تأتي وتؤدي العمرة.

فقلت له: على بركة الله، وألغيت حجزي السابق.

ولما كان يوم الاثنين ١٤٤٠/١/١٤هـ توجهت من الزلفي إلى مطار القصيم، وكان موعد الإقلاع إلى جدة الساعة الواحدة وخمساً وأربعين دقيقة ظهراً، ولما وصلت إلى جدة توجهتُ إلى مكة، وأديت العمرة، ثم ذهبت إلى مقر صاحبي، وبعد المغرب زرت أنا وإياه أحد الأصدقاء، وبعد العشاء زرنا أحد المرضى، ثم عدنا إلى مقر صاحبي، وسمرنا تلك الليلة، وهو يتابع إجراءات التصريح مع صاحبٍ آخر لنا، ولكن تلك المحاولات لم تسفر عن شيء مؤكد.

ولما انتصف الليل اتصل بنا أحد الأصدقاء ممن يتابعون الأمر، فقال: صلوا الفجر في الحرم، ولعل الله ييسر الأمر.

وفي تلك الأثناء جاء أحد الأصدقاء، وقد حصل على تصريحٍ بالدخول من قبل.

وقبيل أذان الفجر حضر صاحبنا الذي يتابع إذن الدخول؛ فَكُنَّا أربعة: اثنان منا معهم تصريح، والثالث قد دخل الكعبة قبل ذلك، وبقيت أنا أنتظر التصريح.

ولما أُذِّن بالفجر توجهنا إلى الحرم، فدخلنا قصر الصفا، وصلينا الفجر فيه، وبدأت مراسم تغسيل الكعبة بعد الفجر، وصار الناس ممن معهم إذن بالدخول يتوافدون إلى المسجد الحرام؛ فيدخلون الكعبة عن طريق خاص، وعبر عدد من نقاط التفتيش التي تسأل، وتتأكد من وجود التصريح، وكونه مطابقاً لحامله.

وكانت الأفواج الأولى كثيرة، ومتتابعة، وكانوا لا يطيلون المكث، وإنما يأتون بعد فترة وجيزة؛ نظراً لكثرة الآتين.

ومن ضمن هؤلاء اثنان ممن جاؤوا معنا؛ حيث دخلوا المسجد، ودخلوا الكعبة.

أما أحدهما فقد تيسر له قبل ذلك دخول الكعبة عدة مرات.

وأما الآخر فكانت المرة الأولى له، وهو من أعزِّ الأصدقاء، وأقدمهم.

وقد انتظرتهم حتى أتوا؛ فصرت أرقب صاحبي الذي دخل الكعبة أول مرة؛ فأرى أنه قد جاء بغير الوجه الذي ذهب به؛ إذ رأيت التأثر البالغ بادياً على وجهه، وعينيه، ولم يتكلم كثيراً من شدة التأثر.

ولكن الفرح، والغبطة، والبشر بادية على وجهه.

أما أنا فلا زلت أنتظر التصريح في الدخول، وأنظر في أعين الغادين والرائحين ممن تيسر لهم دخول الكعبة.

واستمر الوضع على تلك الحال إلى أن أشرقت الشمس، وارتفعت، ومضى أكثر من ساعة ونصف على طلوعها.

ولا زلت أنتظر تلك الفرصة، وأملي بالله تحيى به المنى، وثقتي به أن يكرمني بدخول بيته المحرم لا حدود لها.

كما أن توطيني لنفسي أن الأمر قد لا يتيسر كان حاضراً؛ فلم أكن ـ ولله الحمد ـ لأجزع مما سيكون لو جاء على خلاف ما أريد.

وكلما طال الوقت ترادفت الأشواق، واضطرم الحشا، فصرت أتماسك كلما زعزعني الشوق؛ فأحاول مغالبته، ولكنه كان أغلب، وإلى دخول الكعبة أرغب.

وفي تلك المدة التي زادت على الساعتين هاجت بي الذكريات، وطافت بي كل مطاف، فحضر في خاطري مُعْظَمُ ما أعلمه وما قرأته عن مكة، والكعبة؛ فتذكرت أبانا إبراهيم الخليل ـعليه السلام ـ فتذكرت توحيده لربه، ومُهاجرَه في سبيله، وكمال عبوديته، وتقديمه محابَّ ربِّه على محابِّ نفسه، وتذكرت ما جرى

له من الابتلاءات العظيمة، وما حصل له من الكرامات، والمقامات العالية، وتذكرت أذانه في الحج، ودعاءه لمكة المكرمة، وبركاتِ تلك الدعوات التي ترى آثارها إلى يومنا الحاضر.

وتذكرت ما كان من أمنا هاجر ـ عليها السلام ـ وما كان من سعيها بين الصفا والمروة؛ بحثاً عن ماءٍ تشربه؛ لتدر باللبن على وليدها أبينا إسماعيل ذلك السعي الذي أصبح سنة ماضية، وركناً من أركان الحج.

وتذكرت أبانا إسماعيل ـ عليه السلام ـ فَمَرَّ بخاطري مشاركته لأبيه إبراهيم في بناء الكعبة، وما كان من بر إسماعيل بأبيه؛ حيث أطاعه لما أخبره بأن الله يأمره بذبحه، فما كان من إسماعيل إلا أن قال: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢).

وتذكرت أن مكة هي موطن النبي ﷺ وعلى ثراها الطاهر وُلِد، وشَبَّ عن الطوق، وفيها تنزل عليه الوحي، ومنها شعَّ نور الإسلام الذي بدد دياجير الظلمات.

وتذكرت من سار على تلك البطاح المباركة من أنبياء الله ورسله، وعباده الصالحين.

وتذكرت الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وما لاقوه من البلاء في سبيل نشر هذا الدين.

وتذكرت أن هذا البيت أول بيت وضع للناس، وأنه مبارك، وهدىً للعالمين.

بلـــدة عظمـــى وفي آثارهـــا أنفـــعُ الـــذكرى لقـــوم يعقلـــونْ
شـــبَّ في بطحائهـــا خـــيرُ الـــورى وشـــبا في أُفْقِهـــا أسمـــحُ ديـــنْ

وتذكرت علماء الإسلام على مرِّ العصور ممن كادت أكبادهم تتقطع شوقاً إلى الحج، ورؤية البيت العتيق، وبقية المشاعر، ولكنهم لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً؛ فكانوا يصفون الحج، ويبينون أحكامه، وهم لم يتصوروا ذلك على الحقيقة كابن عبدالبر، وابن حزم وغيرهم من علماء الإسلام - رحمهم الله -.

وتذكرت من حج من أولئك الأعلام العلماء، فدونوا رحلات حجهم شعراً أو نثراً، فتذكرت الإمام الصنعاني رحمه الله الذي وصف رحلته للحج في قصيدته الماتعة، الموسومة بـ: (مثير الغرام إلى طيبة والبلد الحرام) والتي منها قوله:

أيا عذبات البان من أيمن الحِمَى ... رعى اللهُ عيشاً في رباك قطعناهُ
سرقناه من شرخ الشباب وروقه ... فلما سرقنا الصَّفْوَ منه سُرِقْنَاهُ
وعادت جيوشُ البين يقدمها القضا ... فَبَدَّدَ شملاً في الحجاز نظمناهُ
ونحن لجيران المُحَصَّب جيرةٌ ... نُوفِّي لهم عهد الودادِ ونرعاهُ
فهاتيك أيامُ الحياةِ وغيرُها ... مماتٌ فيا ليت النوى ما شهدناهُ
فيا ليت عنا أغمض البينُ طَرْفَهُ ... ويا ليت وقتاً للفراق فقدناهُ
وترجع أيامُ المُحَصَّب من منى ... ويبدو ثراه للعيون وحصباهُ
وتسرح فيه العِيْسُ بين تُمامِه ... وتستنشق الأرواحُ نَشْرَ خُزامَاهُ
نَحِنُّ إلى تلك الربوع تشوُّقاً ... ففيها لنا عَهْدٌ وعقدٌ عقدناهُ
وربَّ برانا ما نسينا عهودكم ... وما كان من ربع سواكم سلوناهُ
ففي ربعهم لله بيتٌ مباركٌ ... إليه قُلوبُ الخَلْق تَهْوي وتهواهُ
يطوف به الجاني فيُغْفَرُ ذنْبُه ... ويسقط عنه جرمه وخطاياهُ
فكم لذةٍ كم فرحةٍ لطوافه ... فللهِ ما أحلى الطوافَ وأهناهُ

نطوف كأساً في الجنان نطوفها ... ولا همٌّ لا غمٌّ فذاك نفيناهُ
فيا شوقنا نحو الطواف وطيبه ... فذلك شوقٌ لا يحاط بمعناهُ
فمن لم يَذُقهُ لم يذقْ قطُّ لذةً ... فَذُقْهُ تَذُقْ يا صاح ما قد أُذِقْنَاهُ

إلى آخر ما قاله في قصيدته الطويلة الماتعة.

وتذكرت رحلة الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله إلى الحج، وما دوَّنه في تلك الرحلة من مشاهد، وذكريات.

وتذكرت رحلة الحج للشيخ محمد الخضر حسين ـ علامة الزيتونة، وشيخ الجامع الأزهر ـ والتي دوَّنها في بعض كتاباته، وصاغها في قصيدته (مشاهداتي في الحجاز)، والتي يقول طالعها:

المجد لا ينال القاطنين ... ودّعَ الصحب وحيَّا الظاعنين

والتي منها قوله:

سار شوطاً وهو لا يدري أفي ... حُلُم أم في زمانٍ لا يخون
ذكر الخضر وموسى إذ أتى ... مجمع البحرين مرتاد السفين

إلى أن قال:

دخلوا في جُنح ليلٍ وأتوا ... مكة الغراءَ من نحو الحجون
في رضا الله خُطاً خاضوا بها ... في حصىً يغبطه الدرُّ المصون
دخلوا بيتاً حراماً يستوي ... فيه ذو التاج ومُغْبَرُّ الجبين
شاهدوا الكعبة وهناً[1] فجَرَتْ ... عبرات البشر من بعض الجفون
مُقلَة الدنيا فإن أبصرتها ... في سواد فعيون الغيد جون
لثموا من ركنها الأيمن ما ... لثمته شفتا طه الأمين

---

١ ـ الوهن: نحو منتصف الليل.

هـــي بيـــت الله إن طـــافوا بهـــا وَهُـــمُ أضـــيافُ رب العـــالمين
وَرَدُوا زمـــرم يشـــفون بهـــا ظمـــأ الأكبـــادِ حينـــاً بعـــد حـــين
لـــو شـــفى عمـــرو بـــن كلثـــوم بهـــا غُلَّـــهُ عـــاف خمـــور الأنـــدرين

وتذكرت ما أودعه خطاط الحرم الشيخ محمد طاهر الكردي رحمه الله في كتابه الماتع (مقام إبراهيم) من تاريخ الكعبة، والمقام، والمسجد الحرام، ووصفه ذلك بأبدع ما يكون.

وتذكرت ما خطته يراعة شكيب أرسلان في ارتساماته اللطاف، وذلك لما حج عام ١٣٤٨هـ، وما عبر به من دخلوا الإسلام حديثاً من غير المسلمين لما حجّوا، وشاهدوا الكعبة أول مرة كعبدالكريم جرمانوس، ومحمد أسد، ومالكوم إكس، وغيرهم.

ثم رجعت إلى نفسي، وصرت أتساءل: هل حقًّا سأدخل الكعبة؟ هل سأصلي في داخلها، وفي أي ناحيةٍ اتجهت دون أن أحدد موضع القبلة فيها؟.

هل سيتيسر لي في هذا اليوم أن أكون في المكان المحدد الذي هو أول بيت وضع للناس؟ وهل ستقع قدمي على موطئ قدمي إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ؟ وهل سأصلي في أقدس بقعةٍ على وجه الأرض، وفي نفس الموضع الذي صلّى فيه رسول الله ﷺ؟.

هل حقًّا سأرى الكعبة من داخلها رأي العين وهي التي يصفها أكثر العلماء دون أن يروها من خارجها فضلاً عن أن يروها من داخلها؟.

وهكذا بدأت الخواطر تتداعى، وتزداد، وكلما زاد تداعيها زاد الشوق.

وفي تلك الأثناء، وبعد أن خفَّ الزحام، ودخل أكثر الناس، ولم يبق إلا القليل ممن أذن لهم بالدخول، وصاروا ينتظرون مجيء أمير مكة، ومن معه من

الضيوف ممن سيشاركون في تغسيل الكعبة ـ جاء البشير بتصريح الدخول باسمي؛ فلا تتصور تلك الفرحة التي غمرتني، ولا الأنس الذي هجم علي.

ولم أتذكر أنني فرحت بشيء تسلمته في هذه الدنيا كتلك الفرحة؛ بتسلم إذن الدخول إلى الكعبة.

ولم أتذكر إلا فرحة من يستلم كتابه بيمينه يوم يلقى ربه راضياً مرضيًّا.

والحقيقة ـ والله يشهد على ما أقول ـ أن تنظيم الدخول، وترتيب مراسيمه، وطريقته كان على أحسن ما يكون سواء كان من قبل إمارة مكة، أو رئاسة شؤون الحرمين، أو سائر الجهات الأمنية.

وما إن استلمت بطاقة التصريح الخاصة إلا وسار معي أحد من يقومون على ذلك الشأن؛ فمشيت من قصر الصفا، وتوجهت إلى المسجد الحرام.

وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيامُ من الخيام

وصرت أتساءل! هل سَتُقِلُّني رجلاي؟ هل سأتمالك نفسي؟

وهكذا سرتُ من نقطةٍ إلى أخرى حتى دخلت المسجد الحرام، فرأيته، ورأيت الكعبة من بعيد، وكأني أدخل المسجد الحرام أول مرة، وكأني أرى الكعبة بعينٍ لم أرها بها قبل.

وكان من فضل الله علي أن لم يكن هناك زحامٌ عند الدخول؛ إذ كان وقت الدخول برزخٌ بين الفوج الأول والفوج الذي يأتي في مقدمته أمير مكة، ومن معه من الضيوف.

بل لم يكن أحدٌ وقت الدخول إلا أنا، وعند دخول المسجد الحرام لم أجد من سيدخل إلا إمام المسجد الحرام الشيخ الدكتور عبدالله بن عواد الجهني ـ حفظه الله ـ حيث التقينا قدراً دون موعد سابق.

فلما دخلت المسجد رأيت الكعبة، ورأيت ما يقرب منها من المطاف خالياً، والناس يطوفون بعيداً عنها بما يقرب من عشرين متراً.

ورأيت الحجر الأسود وليس عنده أحد، ورأيت جموع الناس من الطائفين وغيرهم ينظرون إلى هذا المشهد العظيم، ورأيت رجال الأمن على اختلاف رتبهم وأعمالهم، وقد أحاطوا بالكعبة من جميع جوانبها، وهم على غاية ما يمكن من النظام، والسكون، والسكينة، وكأن على رؤوسهم الطير؛ فلا تسمع منهم أو ترى إلا الهمس، أو إشارة الخرس لما لا بُدَّ لهم منه؛ تعظيماً لهذا المكان، وإجلالاً له، وهم ينظرون إلى الكعبة نَظَر المَشُوْق المستهام لا نظر الذي كلِّف بعملٍ، وهو يريد الخلاص منه؛ فترى الواحد منهم يرمق الكعبة، ويحرص على حمايتها حرصه على حماية عينيه.

فلما رأيت ذلك المشهد ازددت هيبة، وإجلالاً، وحمدتُ الله أن قيَّض لهذا البيت من يقوم على رعايته، ويتشرف بخدمته، ويعظِّم مقامه، ويقوم على تطهيره من الأقذار، وأوضار الشرك الحسِّيَّة.

وما إن تقدمت قليلاً إلا وزادت السكينة، ورأيت من السكون ما لم أَرَه قبل ذلك.

وما إن تجاوزت آخر نقطة للإذن بالدخول إلا وتوجهت نحو الحجر الأسود، الذي طال عهدي بتقبيله من كثرة الزحام في سائر الأيام، فأقبلت عليه، وقبَّلته دون مضايقة من أحد، أو لأحد.

ولما وصلت إلى باب الكعبة لم أكد أصدق عيني، وصرت أتساءل: أأنا صاحٍ أم وسنان؟ أأنا في حلم، أم في علم؟.

ثم صعدت درج الكعبة، ورجلاي لا تكاد تقلاني من الفرحة، وما إن دخلت باب الكعبة إلا ورأيت السدنة وبعض رجال الأمن يستقبلون الناس بالبشر والترحاب؛ فأخذت ذات اليمين، واستجمعت خواطري، وتذكرت والداي، وأهل بيتي من زوجةٍ، وأولاد، وتذكرت إخوتي وأخواتي، وأجدادي وجداتي، وأعمامي وعماتي، وأخوالي، وخالاتي، وأقاربي، وأحبتي، وأصدقائي من مات منهم ومن هو على قيد الحياة منهم، ومن لهم حقٌّ علي من ولاةٍ، وأساتذةٍ، ومشايخ، وزملاء.

ثم صليت ما شاء الله لي أن أصلي، ثم انتقلت إلى الجهة الأخرى فصليت ما شاء الله أن أصلي، ثم إلى الجهة الأخرى وهكذا.

والناس من حولي يصلون، ويدعون، ويشكرون، ويتضرعون، ويبكون.

ومن فضل الله أن الكعبة في ذلك الوقت ليس فيها عددٌ كبير؛ فلم أضايق أحداً، ولم أجد مضايقةً من أحد.

ورجال الأمن يراعون الداخلين، ولا يستعجلونهم طالما أن الزحام قليل؛ فمكثت ـ ولله الحمد ـ ما يقرب من نصف الساعة أو يزيد.

وكنت أرى الناس يمسحون الكعبة بالمناديل المبللة بماء زمزم، وماء الورد، وكل من أتى أخذ منديلاً؛ فصار يمسح الكعبة، وربما مسحها بعضهم بغترته.

ولكوني أدخل الكعبة أول مرة، وفي يوم تغسيلها لم أعلم أن ذلك هو تغسيل الكعبة، بل ظننت أن تغسيلها إنما يكون إذا قدم أمير مكة؛ فيغسلها نيابة عن خادم الحرمين؛ ففاتني ذلك الشرف العظيم، ولعل الله ييسر فرصة أخرى لذلك.

أما شعوري داخل الكعبة فلا يكاد يوصف من الفرحة، والسكينة، والأنس.

ووالله إن تلك الصلوات التي صليتها في جوف الكعبة لمن أَلَذِّ وأحلى الصلوات في حياتي، ولم يكن بودِّي أن أخرج إلا لما بدأت الوفود تأتي إلى الكعبة مرة أخرى.

حينها تلطف أحد رجال الأمن بابتسامة طاهرة، وكأنه يشير بها إلى أن نعطي الفرصة لغيرنا؛ فخرجت من الكعبة، وبودِّي لو يودعني صفو الحياة وأني لا أودعها.

ثم نزلت قليلاً، ورأيت أمامها بأمتار بعض الأحبة جالسين، وكان من ضمنهم الصديق المذيع الأستاذ عبدالرزاق العليوي، وكنت قد رأيته قبل الدخول بساعة، واتفقت معه بعد دخول الكعبة على إجراء لقاءٍ إذاعي حول الكعبة، وتغسيلها، فقال لي: لقد تأخرت علي، وانتهى وقت البرنامج، فقلت له: وهل تلومني؟ فقال: لا، وقلت له: أعلم أن برنامجكم مباشر، فوعدته بأن أشاركه في حلقة حول الكعبة؛ فكانت المشاركة فيما بعد في حلقة مستقلة.

وبعد أن جلست قليلاً خرجت من المسجد الحرام، والتفت إلى الكعبة، وألقيت عليها نظرة، ولسان حالي يقول:

ومما شجاني أنها يوم ودَّعت تولت وماء العين في الجفن حائر
ولما أعادت من بعيد بنظرةٍ إلي التفاتاً أَسْلَمَتْه المحاجر

ثم ذهبتُ إلى أصحابي، وصرنا نتحدث عن ذلك اليوم السعيد، وصار بي من النشاط، والفرح الشيء الكثير بالرغم من قلة النوم قبل ذلك اليوم وبعده.

فلله ما أحلى تلك الأصبوحة، وما أجملها، ولله ما أروع تلك البَنِيَّة القوراء، وما أجملها، وما أشد حبَّ المسلمين لها، وارتباطهم بها.

وما أحرانا أن نستحضر تلك المعاني، وأن تكون حاضرة في أذهاننا، فوَّارة بها مشاعرنا؛ حتى لا تبرد جذوتُها؛ فتخبو، أو تهمد، أو تموت؛ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾.

وأذكر في هذا السياق أنني كتبتُ مقالاً عنوانه (برود المعاني)؛ إذ باعثه الحث على ألا تبرد في النفوس شعائر الإسلام، ومشاعره العظام.

وقد ذكرتُ فيه أنه قد زارني قبل سنوات طبيب من إحدى البلاد العربية، وكان يعمل في أحد المستشفيات، وقد كان على النصرانية ودخل في الإسلام حديثاً، وكان عمره آنذاك يزيد على الأربعين سنة.

ولاحظت فيه فرحاً، ورِقَّةً، واستشعاراً لعظمة الإسلام، وقناعةً تامة بما جاء به الرسولﷺ.

وكانت لديه مشكلة في علم والديه الكبيرين، وأصحابه الذين يعرفونه؛ فكان يخشى أن يتكدر والداه إذا علما بإسلامه؛ لذا صار متردداً في إخبارهم بذلك، فكان يخفي إسلامه.

وترتب عليه أن هُويَّته كانت نصرانية، وكان يرغب في أن تُعَدَّل إلى الإسلام.

كل ذلك من أجل أن يدخل مكة، ويؤدي الحج والعمرة.

وقد دار بيني وبينه حديث طويل حول هذا الشأن، فكان إذا جاء ذكر مكة، والكعبة فاضت عيناه بالدمع، وصار يُرَدِّد: هل يعقل أنني سأذهب إلى مكة؟ وهل أتصور أنني سأرى الكعبة وأطوف حولها؟ هل سيتم ذلك لي؟

حتى إن وجهه ليحمر من شدة ما يعتصره من حرقة، ويحدوه من أمل.

تعجبت من هذا الشعور، وكيف كانت معاني الإسلام، والمشاعر المقدسة حارَّة فوارة في حِسِّه في الوقت الذي بردت فيه تلك المعاني عند كثير من المسلمين.

وبعدها بسنوات قابلت بعض المسلمين من فرنسا، وألمانيا، ورأيت عندهم ما يزيد على ما عند صاحبنا الأول من حرارة الأشواق، وصدق المشاعر، وحضور معاني الإسلام، وقوة الاعتزاز به.

بل لقد قابلت قبل تلك المواقف بسنوات في شهر رمضان ١٤١١هـ في الحرم المكي رجلاً أمريكيًّا يقول: إنه يعمل في إحدى وكالات الأنباء العالمية، قابلتُه في صحن الحرم، وكان الوقت بعد العصر، ودار الحديث معه في جمع من الإخوة، وكان لا يركز كثيراً في الحديث، بل كان بصره مشدوداً إلى الكعبة لا يكاد يلتفت عنها يمنة أو يسرة.

فلما قال له أحد الحاضرين: ماذا تصنع؟ ما الذي يشدك إلى الكعبة؟

قال: لا أستطيع وصف هذا الشعور، ولو أن الأمريكان جاؤوا إلى هذا المكان، ورأوا الكعبة مباشرة، وما يكسوها من الجلال والروعة ـ لربما أسلموا دون دعوة.

والأمثلة على ما ذُكِرَ كثيرة جداً، وعند غيري ـ خصوصاً ممن يمارسون دعوة غير المسلمين ـ الشيءُ الكثير من ذلك القبيل.

والشاهد مما مضى حضور معاني القدسية، واستشعار عظمة الله، وحرارة العواطف تجاه الإسلام عند هؤلاء.

تلك المعاني والمشاعر، والعواطف التي بردت في حس أكثر المسلمين، وصارت أشبه بالأمور العادية جداً.

ولعل سبب ذلك أن كثرة الإمساس تقلل الإحساس.

لذا فإن الحاجة شديدة لاستحضار تلك المعاني، وتجديدها في القلوب.

ولعل من أعظم أسباب ذلك: التدبرَ في الآيات التي تدعو إلى تعظيم شعائر الله، واستدعاء الذكريات التي تبعث الأشواق، وتجدد معاني الإيمان؛ فإذا استشعر المسلم -مثلاً- فرضية الصلاة، وأنها فرضت في السماء ليلة عرج بالنبيﷺ وأنها صلة بين العبد وربه، وأن قَدْر الإسلام عنده كقدر الصلاة في قلبه، إلى غير ذلك من المعاني التي تدور في هذا الفلك - كان ذلك داعياً إلى إحيائها في قلبه وشعوره، وإعطائها حقها من التكميل والخشوع.

وقل مثل ذلك في الحج؛ بحيث يستشعر أن بطاح مكة كانت موطئ أقدام الأنبياء، وأنها أشرف الأماكن، وأحبها إلى الله، وأنه إذا سار فيها متعبداً لله صار امتداداً لتلك السلسلة المباركة، والركب الميمون من خاصة عباد الله من الأنبياء، والصديقين، والصالحين.

وقل مثل ذلك في شأن كثير من العبادات التي تنطوي على الحكم والأسرار.

وكذلك الحال بالنسبة لكثير من الأعمال التطوعية التي يبرد إحساس بعض القائمين بها من جراء طول العهد؛ فلا يكاد يستشعر عظم ما يقوم به، ولا الأجور المترتبة على ذلك.

فما أحوجنا إلى تجديد تلك المعاني، وتحريك تلك المشاعر، وألا يكون طول الأمد سبباً لبرود مشاعرنا، وتبلد إحساساتنا، وقسوة قلوبنا؛ لعلنا بذلك ننبعث إلى زيادة الإيمان، وقوة الإقبال على الله -عز وجل-.

ولعل من أسرار تكرار بعض العبادات يوميًّا كالصلاة، أو أسبوعيًّا كالجمعة، أو سنويًّا كصيام رمضان، أو عمريًّا كالحج - أن يكون المؤمن على ذُكْرٍ من هذا

المعنى، ألا وهو تجديد الإيمان، وإقامة ذكر الله، وإحياء تلك المعاني في النفوس؛ لتبقى فوارة حيَّة؛ فإذا كان الأمر كذلك فإنه يعني حياة القلوب.

وإذا كانت الأخرى فإن ذلك يعني خمودَها أو موتَها.

هذا ما أوحى به دخول الكعبة المشرفة، والصلاة فيها.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

المحتويات

ـ المقدمة	٣
نظرات في آيات	٥
متفرقات	١٠
نشر المحاسن	١٤
تنبيهات	١٦
لطائف	١٨
استدعاء السعادة	١٩
تعامل مريم ـعليها السلامـ مع الهمّ	٢١
زكاء الأيادي	٢٧
جمال المعروف بتفاصيله	٣٠
السخاء بالمشاعر	٣٣
سماحة نادرة	٣٥
﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾	٣٨
القلوب الطاهرة	٤٢
التفريط في المكاسب	٤٥
حدود العلاقة	٤٧
أدب السؤال وذوقه	٤٩
﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ **ـ أنموذج من هذا القبيل**	٥٢
﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾	٥٦

لواذع الأحبة	٦٨
التألف والاستعداء	٧٠
وأد العداوة والمظاهرة بها	٧٢
الخروج وإغلاق الباب	٨١
الحسَّاس البليد	٨٣
الوسط المحمي	٨٥
التنافس الشريف	٨٨
شفاعة صغير عند كبير	٩٢
من وحي الصلاة	٩٥
التهاون بأموال الناس	٩٧
أثرة وإيثار	١٠٠
أبيات اشتهرت ونسبت إلى غير قائليها	١٠٢
بين أبي تمام والمتنبي	١٠٥
إجابات طلابية طريفة	١١٢
في البحث العلمي	١١٩
﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾	١٢١
المقارنات	١٢٦
تفاوت الناس في التعامل مع السخرية	١٢٨
الشجاعة صبر ساعة	١٣٠
معرفةُ القَدْر	١٣٢
الرأيُ الدَّبَري	١٣٤

ورحلت يا أبا ناصر	١٣٩
الشجاعة بوصفها قيمة أخلاقية عُبيد النتيفي نموذجاً شذرات من سيرته وأخباره	١٤٧
الكعبة مثابة ومهابة ـ خواطر بعد دخول الكعبة المشرفة والصلاة فيها	١٩٧
ـ المحتويات	٢٢٣